شرح

كتاب التوحيد من صحيح الإمام البخاري

- رحمه الله -

شرح معالي الشيخ

يوسف بن محمد الغفيص

- حفظه الله —

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين أما بعد:

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: كتاب "التوحيد": الرد على الجهمية وغيرهم.

(الشرح)

مقدِّمةٌ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين، بعد أن من الله -جل وعلا- علينا بالانتهاء من شرح كتاب **"الإيمان"** من صحيح الْإِمَام أبي عبد الله الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-.

وسبق أن أشرت إلى أن من خير ما تدرس منه مسائل الاعتقاد هي الكتب التي وضعها أئمة الحديث في كتب السنة، وتطبيقًا لهذا المعنى بدأنا بكتاب الإيمان، ونبدأ اليوم بحمد الله وتوفيقه ونسأله السداد في القول والعمل والإخلاص لوجهه الكريم في كتاب **"التوحيد"**.

شرحُ قول المُصنِّف: "كتاب التوحيد":

قال الْإِمَام الْبُخَارِيُّ: كتاب **"التوحيد"** وجعله في الآخر من صحيحه، وكتاب **"الإيمان"** في الأول من صحيحه، وهذا من إشارة الْإِمَام الْبُخَارِيُّ إلى أن الدين يجمع هذا المعنى كلّه.

وأن كل ما ذكره من سنة النبي ﷺ في كتابه فأصلها الأول في الأخذ بها هو الإخلاص لله -جل وعلا-، وضمّن هذا الكتاب الرد على الجهمية، كما ضمن كتاب **"الإيمان"** الرد على المرجئة، وإن كان كتاب **"الإيمان"** لا يختص بالمرجئة وحدهم، كما أن كتاب **"التوحيد"** لا يختص بالرد على الجهمية وحدهم.

ولكن هذا من مقاصده - رَحِمَهُ اللَّهُ- في كتابه: الرد على الجهمية في مسألة التوحيد، وبوّب لذلك بالباب الأول بقوله: **"باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله - تبارَكُ وتَعَالَى-"**.

والتوحيد هو الدين الذي بعث الله به الأنبياء والرسل - عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فتوحيد الله هو الإيمان به، والإيمان بالله هو تحقيق توحيده -جل وعلا-، ومعرفة الله هو عبادته - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وإخلاص الدين له.

وهو الأصل الذي بعث الله به جميع الرسل -عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾[النحل:٣٦].

فهذه دعوة المرسلين أجمعين وهو الأمر بعبادة الله وإخلاص الدين لله واجتناب الطاغوت، كما في حديث أبي مالك في الصحيح: «**من قال: لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله**».

وجعل الله -جل وعلا- إِبْرَاهِيْمَ إمامًا حنيفًا لقيامه بدعوة التوحيد، في قوله -جل وعلا-: ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا** ﴾[آل عمران:٦٧].

وفي قول الله: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ** ﴾[النحل:١٢٠]، فكونه قَانِتًا لِلَّهِ أي بإيمانه وتوحيده، وهذا معنى كونه حنيفًا أي موحدًا.

والتوحيد هو أول دعوة الرسل - عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وهو حق الله على العباد، الحق الأعظم لله -جل وعلا- على عباده هو توحيده، ولهذا أظلم الظلم هو الشرك بالله كما قال الله -جل وعلا-: ﴿ **يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾[لقمان:١٣].

وما زال الْمُسْلِمونَ منذ بُعث النبي ﷺ قد استبان لهم أن أول الواجبات على المكلفين: هو شهادة أن لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وأن محمدًا رسول الله، وهذه الشهادة تتضمن معرفة الله، وتتضمن إخلاص الدين له -جل وعلا-.

فهي إيمانٌ بالله وإيمان بأنه الواحد المعبود وحده لا شريك له، ولهذا كان النبي ﷺ يدعوا بهذه الدعوة، كما دعا الأنبياء من قبله حتى حدث في الْإِسْلَامَ من أقوال الجهمية وغيرهم، من البدع التي قيلت في أول الواجبات.

فصار قومٌ يقولون: إن أول واجبٍ على المكلف هو النظر، وهذا من أقوال الجهمية وأشار الْإِمَام الْبُخَارِيُّ هنا إلى إبطالها، وهو مذهب المعتزلة وصار منهم من يقول: الواجب القصد إلى النظر.

وصار منهم من يقول يَعْنِي من المتكلمين: الواجب أول جزء من النظر، وصار منهم من يقول: الواجب هو المعرفة، ثم يجعلون المعرفة نتيجة النظر مقدمتها، وغلا بعضهم حتى قال كما هو مذهب أبي هاشم الجبّائي: أول واجب على المكلف الشك في معناه الأول.

فهذه الأقوال أقوالٌ محدثة في الْإِسْلَامَ، وأقوالٌ مبتدعة وهي على خلاف ما بعث الله به الرسل، من أن أول واجب هو الإيمان بهذا التوحيد، وهو شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦].

وهذه الأقوال كما أشار بعض المتكلمين كالرازي وغيره، وبعض المحققين من أهل العلم كابن تيمية أعني أقوال المتكلمين، الخلاف بينها خلافٌ لفظي ليس خلاف تضاد، إنما هو خلافٌ لفظي.

وهي أقوالٌ محدثة حدثت بعد عصر الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللَّهُ تعالى عَنْهُم-، وهذا لا يوجب أعني: أن أول واجبٍ هو لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، والإيمان بشهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأن محمدٌ رسول الله لا يوجب ترك مسألة الربوبية كما يتوهم البعض.

فإن التوحيد يتضمن الإيمان بربوبية الله وبعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان كذلك بكمال الرب -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وهو من معنى ربوبيته وكماله، فهذا من التراتيب والتقاسيم العلمية، فإذا قيل: التوحيد واحد وهو معرفة الله وعبادة الله.

أو قيل: التوحيد ينقسم إلى توحيدٍ علمي وتوحيدٍ خبري، إلى توحيدٍ علميٍ خبريٍ وإلى توحيدٍ طلبيٍ إرادي فيجعل قسمين؛ أو قيل: التوحيد ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

فهذا ليس من ما ابتدع إنما هو من باب التراتيب العلمية، وتقريب المعاني العلمية إلى الأذهان، لأن المعاني إذا نظرت إليها المعنى المقصود بتوحيد الربوبية أو الإلوهية أو الأسماء والصفات، أو المعنى العلمي أو الخبري أو الطلبي.

فكل المعنى الذي تحت هذه الأسماء هو المعنى الذي ذكر في الْقُرْآنَ والسنة، فإن جعلته واحدًا أو جعلته قسمين أو جعلته ثلاثة، فهذا كل يصح إنما العبرة بصحة المعاني وضبطها، وبيان الألفاظ وظهور المقصود بها.

بخلاف من قسم التوحيد وجعل المعاني فيه مسقط لبعض هذا المقام منه، وهذا وجه غلط المتكلمين في تفسير في بيان التوحيد، أنهم ذكروا بعض المقامات دون البعض الأخر، فقَالُوا: واحدٌ في ذاته وواحدٌ في صفاته وواحدٌ في أفعاله، وما ذكروا مسألة العبادة.

وإن كان عدم ذكر المتكلمين في كثيرٍ مما ذكروه حينما ذكروا معنى التوحيد وأقسام التوحيد، لا يَعْنِي أنهم يجحدون هذه المسألة أو ينكرونها؛ لكن عامة المتكلمين أخطئوا في بيان معنى التوحيد من حيث الترتيب.

و هذا الخطأ في الترتيب انجرّ إلى بعض المعاني، فصار فيه ضعف في تحقيقها؛ لكن حينما يذكر ابن تيمية -رَحِمَهُ اللَّهُ- غلطهم في هذا المقام، وأنهم قَالُوا: واحدٌ في ذاته وواحدٌ في صفاته وواحدٌ في أفعاله، وما ذكروا مسألة العبادة لا يعني أنهم ينفونها.

لأن من نفى الإخلاص لله هذا لا يصير مسلمًا، فهذا خطأٌ في الترتيب يترتب عليه قدر من الخطأ في المعاني وفقه المعاني وتحقيق المعاني ولا ش؛ لكن أَيْضًا لا يقع بالدرجة التي قد تتبادر إلى أنهم لا يشهدون هذا من كل وجه أو ينفونه، إنما هو في الأصل على ما ذُكر.

بخلاف الذي ذكره من ذكره من أهل العلم، لما قَالُوا: التوحيد العلمي والتوحيد الإرادي، فهذا لا يتضمن نقصًا في المعنى الصحيح، ولهذا صار سائغًا ولاسيما أنه إنما استعمل في مراحل من تاريخ الْمُسْلِمِينَ لدى بعض أهل العلم لبيان الدين.

لأن المقصود هنا البيان للناس والعامة فحتى يفقه الأمر، ومثله توحيد الصفات لما كثر الخوض في الصفات في الباطل في الطرق الكلامية والمذاهب الفلسفية، صاروا يذكرون مسألة الصفات على الاختصاص.

فهذا من باب الترتيب وليس هو مما يقال: إنه مما أُحدث تقسيمٌ مبتدع هذا لا يقوله إلا جاهل؛ لأن التقاسيم إذا وقعت على سبيل الترتيب العلمي والتقريب للأذهان.

والمعاني هي المعاني المسماة في الكتاب والسنة هذا مثل ما لما أتوا للصلاة، سموا ما يكون بين يديها أو عند ابتدائها سموه شرطًا، وسموا منه سننًا، وسموا أصول ما يكون من فعلها أو قولها أركانًا، وسموا ما دون ذلك واجبًا أليس كذلك؟.

فهذا لا يَعْنِي أنه أصبح بدعة وأن الصَّحَابَةِ ما كانوا يقولون: بمثل هذه التراتيب، هذا ترتيب وليس من باب المعاني المحدثة، إنما يكون الخطأ إذا وضعت المعاني المحدث تحت تقسيمٍ محدث.

وأما التقريب بالبيان العربي المعروف، ثم الكلمات المستعملة هنا كلمات شرعية، الكلمات لما يقال: التوحيد العلمي فالعلم كلمةً شرعية أليس كذلك؟ والله يقول: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[محمد:١٩].

وكذلك الإرادة كلمةٌ شرعية الله يقول: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[آل عمران:١٥٢].

فالكلمات المستعلمة هنا كلمات شرعية في أصلها أو وقعت على المعاني المستقرة في كلام العرب بالدلالات الصحيحة، ما استعملت هنا كلمات مولدة من الفلسفة أو نحوها، فهذا كله من باب البيان والتقريب نعم.

(المتن)

"بابُ مَا جاءَ فِي دُعاءِ النبيِّ -صلى الله عَلَيْهِ وَسلم- أُمَّتَهُ إِلَى تَوْحِيدِ الله تَعَالَى".

عنِ ابنِ عَبَّاسٍ، -رَضِي الله عَنْهُمَا-، أنَّ النبيَّ بَعَثَ مُعاذًا إِلَى اليَمَنِ ح.

وعن أَبِي مَعْبَدٍ مَوْلَى ابنِ عَبَّاسٍ قال: سَمِعْتُ ابنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: لَمَّا بَعَثَ النبيُّ مُعاذًا نَحْوَ اليَمَنِ قَالَ لَهُ:

«إِنّكَ تَقْدَمُ عَلى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا الله تَعَالَى، فَإِذا عَرَفُوا ذالِكَ فأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله قد فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَواتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذا صَلَّوْا فأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكاةَ أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلى فَقِيرِهِمْ، فَإِذا أَقَرُّوا بِذالِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ، وتَوَقَّ كَرائِمَ أَمْوالِ النَّاسِ».

(الشرح)

شرحُ حديثِ ابن عباسٍ أن النبى بعثَ معاذًا إلى اليمن:

هذا حديث بعث معاذ إلى اليمن، وبعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن، وبعث أبى موسى، وبعث علي ابن أبي طالب، والذي بعثه النبي ﷺ بالمقام الأول في بيان الدين لهم هو معاذ بن جبل: **«إِنّكَ تأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ»**.

وقوله: **«إِنّكَ تَقْدَمُ عَلى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا الله تَعَالَى»**، وفي روايةٍ في الصحيح: **«فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»**.

وهذا الحرف الذي ذكره الْبُخَارِيُّ في هذه الرواية من كتاب "**التوحيد**"، دليلٌ على أن اسم التوحيد اسمٌ شرعي، فيسمى هذا الباب باب التوحيد ويسمى الإيمان، أما الإيمان فهو اسمٌ مستفيضٌ في الشريعة

ويسمى التوحيد كما سماه من سماه من السلف، ومنهم الْإِمَام الْبُخَارِيُّ هنا لما قال: كتاب"**التوحيد**" فكلمة التوحيد كلمة شرعية، وتعني عبادة الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– وحده لا شريك له.

وجاء ذلك في الرواية الأخرى: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأني رسول الله**»، فهذا هو أول الواجبات مع أن القوم الذين بعث النبي معاذًا إليهم، فيهم بقيةٌ من أهل الكتاب، وفيهم عبدت الأوثان.

فمع اختلاف الأحوال ما بين عبدت الأوثان، وما بين أهل الكتاب صارت دعوتهم جميعًا في الابتداء دعوة واحدة، وهي أن يوحدوا الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– حق توحيده، وأن يخلصوا الدين له.

ثم أمر النبي ﷺ معاذًا بعد ذلك أن يدعوهم إلى أعظم واجبٍ بعد التوحيد: وهي الصلاة، ولهذا لما بين مباني الْإِسْلَامَ كما في حديث ابن عمر، قال: «**بُني الْإِسْلَامَ على خمسٍ شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأني رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج**».

فهذا هو أول ما يجب على المكلفين من الجن والإنس، أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، فمن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب، ومن حقق أصله أي أتى بأصله ولو نقص ما نقص في مقام العمل، فإنه يكون في الدنيا حرمُ ماله وده وحسابه على الله.

وهو أعظم الحسنات التي عُبد الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– بها، أعظم حسنةٍ عُبد الله بها هو توحيد الله والإيمان به، ويجب أن يفقه التوحيد والإيمان، وإلا حتى في الأمم الكتابية يقولون: الإيمان.

لكن ما هو الإيمان؟ الإيمان الذي بعث الله به الرسل هو: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وهذا هو اعتقاد أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَة.

بخلاف أهل المذاهب الأخرى من الطوائف التي هم من أهل القبلة؛ ولكن انحرفوا في بعض المقامات والمسائل والأصول، فيدخلون على ما ه من هذه الأصول الشرعية ما ليس منها، أو يخطئون في تفسير هذه الأصول الشرعية.

فإما أن يدخلوا عليها أو معها ما ليس منها، فيجعلونه في أصول الدين، أو أنهم يقعون في تفسير شيءٍ من هذه الأصول على غير وجهه الشرعي، وأصول الدين ليست ما نسميه من يسميه أصول الدين.

إنما أصول الدين هي التي بعث الله بها جميع الأنبياء والرسل، وهي المجموعة فيما جاء في حديث جبريل: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر والقدر خيره وشره»**، وتتضمن هذه جماع الدين.

ولهذا إذا قيل: ما معتقد أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَة؟ قيل: معتقدهم تحقيق هذا الإيمان، ولهذا ابن تيمية -رَحِمَهُ اللَّهُ- من فقهه لما ذكر معتقدهم في **"الرسالة الواسطية"** جعله في هذه الأصول.

ثم ذكر النبي ﷺ بعد الصلاة الزكاة، وفيها ذكر أن الزكاة تؤخذ من الأغنياء: **«تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ»**، والفقير هو من أخص أهل الزكاة، وإن كانت الزكاة تقع في غيره كما هو صريح الْقُرْآنَ: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ**﴾[التوبة:٦٠]، إلى أخر الآية.

فهذا مجمعٌ عليه إن الزكاة لا تختص بالفقير وحده؛ ولكنه من أخص أهلها، وأخذ منه طائفة من أهل العلم من حديث بعث معاذٍ إلى اليمن أن الزكاة لا تُنقل عن البلد مسافة قصر.

قَالُوا: لأن النبي قال: «**تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ**»، وهذه مسألةٌ فيها خلافٌ بين الْعُلَمَاءَ، فهذا الحديث جعله الْإِمَام الْبُخَارِيُّ مبتدأ كتابه كتاب "**التوحيد**"، ليبين به فضل التوحيد في هدي النبي ﷺ ورسالته ونبوته وأنه الأصل الأول.

ولذلك كنتيجة فإنه يَنْبَغِي على الْمُسْلِمِينَ عامةً وخاصة أن يعتنوا بهذا الأصل، وهو الدعوة إلى توحيد الله، وأكثر ما يحتاج الْمُسْلِمِونَ الآن هو أن يدعوا إلى تحقيق التوحيد.

وإذا قيل: يدعون إلى تحقيق التوحيد ليس بالضرورة أنهم منحرفون عنها، أو يتهمون بخلافه ولاسيما مع هذا الزمن الذي كثر فيه اتهام أَهْلِ السُّنَّةِ بالأوصاف التي هم بريئون منها، وإنما يدعون إلى تحقيق التوحيد.

ومن حصل عنده خطأ أو خلل في فهم التوحيد يبين له ذلك، والخطأ موجود ولاسيما في أمور المشاهد والقبور، وما يداخلها من البدع وأوجه أسباب الشرك أو ما هو من مادة الشرك في بعض الأحوال، فهذا موجود وهو مقامات ودرجات.

لكن أَيْضًا إيمان الْمُسْلِمِينَ بربهم ظاهر ولله الحمد، ولكن يحتاجون إلى أن يعلَّموا حقيقة التوحيد حتى لا يدخل عليهم شيءٌ من شبهات الضلال والانحراف، وهو أعظم العلم من حيث الفقه.

ولهذا كان طائفةٌ من فقهاء الكوفة يسمونه الفقه الأكبر، ونُسب للإمام أبي حنيفة في هذا كتاب مشهور اسمه "**الفقه الأكبر**" شرحه كثيرٌ من الحنفية؛ لكن الراجح أنه لا يصح إليه إنما هذا اسمٌ معروف "**الفقه الأكبر**" فهو أصل الدين.

وطالب العلم يجب أَيْضًا أن يعتني بفقهه لمقصدين:

<u>المقصد الأول</u>: أن يحقق عبادة الله على وجهه الصحيح، وفيما يظهر لي أن فقه العبادة اليوم ضعيف، فقه العبادة وطريقة تحقيق الإخلاص، ومسائل الاستعانة والاستغاثة بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- والتوكل عليه هذه الفقه فيها ضعيف.

وصار مع تحول المراحل التاريخية يسمى علم السلوك، ثم صار يسمى التصوف في طريقة بعضهم، فما صار له المقام الذي كان في زمن الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللَّهُ تعالى عَنْهُم-.

ولهذا قال الله-جل وعلا-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨]، لأن العلم بالله هو تحقيق العبادة على وجهه الصحيح، وتحقيق التوكل على الله على وجهه الصحيح، وتحقيق الرجاء على وجهه الصحيح، هذه معاني علمية وهي مبسوطة في الْقُرْآنَ.

وإن كان من قل فقهه يظن أنها معاني عامة، بخلاف إذا وقف على آية في الطلاق، أو آية في مفصل الحج قال: هذه آية أحكام، فإذا جاء على آيات في التوكل أو في الاستعانة أو في الرجاء أو في الخوف قال: هذه معاني عامة، وكأنها موعظةٌ عامة.

لا هذه فيها ترتيب حقائق، وهذا العلم ينظر إليه باعتبار علم له طرائقه وله تراتيبه، وإن كان مما زلَّت فيه أقدام البعض أنهم استدعوا بعض التراتيب من الطرق المبتدعة في الْإِسْلَامَ، وهي طرق بعض الصوفية التي غلت ومالت عن المنهج الصحيح في هذا.

ولهذا كان الصَّحَابَةِ ﷺ العبادة عليهم ظاهرة، وعنايتهم بمقام العبودية لله ظاهر ومستفيض، وكذلك علماء السلف- رَحِمَهُم اللَّهُ- كانوا عبادًا، وكان عنايتهم بمقام فقه العبادة كان مما استفاض في سِيرهم.

فهذه بدأت حالهم بدت تقل، حتى صار كأن هذا ليس من الفقه في الدين وهذا من الجهل، والجهل فنون وفي هذا الزمن صار الجهل فيما يحسب أنه من العلم أَحْيَانًا، فصار من مادة الجهل ما يحسب أنه من المعرفة والعلم.

فهذا مما ينبه إليه المسلم بعامة وطالب العلم بخاصة: إلى فقه التوحيد وفقه عبادة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- على وجهها، وانظر الْقُرْآنَ تجد أن أحكام التوحيد أكثر من أحكام فروع الدين، أحكام فقه التوحيد مستفيضة في الْقُرْآنَ.

فإن كل ما ذُكر في مسائل الإيمان، ومسائل الخشوع، ومسائل الرجاء ومسائل الخوف، ومسائل المحبة، ومسائل الإرادة، ومسائل الاستجابة، ومسائل السمع والطاعة كل هذا من تحقيق التوحيد وفقه التوحيد وأحكام التوحيد.

كل هذا والتسليم كل هذه من أحكام التوحيد: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾[النور:٦٢].

هذا في طاعة النبي ﷺ والإيمان بالله -جل وعلا-، وبيان ما بينهما من التلازم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فذكر الإيمان إيمانًا بالله ورسوله، وذكر الاستجابة للرسول: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾.

كذلك في مثل قول الله في أوصاف أحكام التوحيد، وأوصاف أهلها في سورة التوبة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة:١١٢]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون:١]، إلى آخر السياق.

فكل هذا من فقه التوحيد، فهذا فقهٌ يَنْبَغِي العناية به، ومن أخص من كتب من المتأخرين في فقهه الْإِمَام العلامة شيخ الْإِسْلَامَ ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ-، فهو إمامٌ بالغ التحقيق في هذا العلم من المتأخرين، الذين مضوا على طريقة السلف الأول.

لكن الشاهد من التذكير والتنبيه: أنه فقهٌ يُقصَّر في العناية به، وحتى لما صُنفت أحكام الْقُرْآنَ مثْلًا صارت تؤخذ الأحكام المتعلقة بالفروع فقط، فهذا من نقص الفهم والضبط للمقصود، وإلا فأكثر ما في الْقُرْآنَ من الآيات هو في بيان هذا الأصل الشريف.

أكثر الآيات في الْقُرْآنَ هي في بيان هذا الأصل، وحتى مسائل الفروع هي تبعٌ لهذا الأصل لأنها من عبادة الله، فهي داخلةٌ ومتضمنةٌ فيه، والنبي ﷺ يسميه إسلامًا ويسميه إيمانًا في حديثه الأخر.

ويسمى التقوى، ويسمى البر، و يسمى العمل الصالح، فضعُف الفقه فيه، وكان السلف الأول على عنايةٍ بالغةٍ بمقامه.

(المتن)

عنْ أبي سعِيدٍ الخُدْرِيِّ أنَّ رجُلاً سَمِعَ رجلا يقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١] يُرَدِّدُها، فلَمَّا أصبحَ جاءَ إِلَى رسولِ الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فذَكَرَ ذالكَ لهُ، وكأنَّ الرَّجُلَ يَتَقالُّها، فقَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: «وَالَّذِي نَفْسي بيدِه، إنَّها لتَعدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ».

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قال: أَخْبَرَنِي أَخِي قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَ- صلى الله عليه وسلم - بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِي صَلاَتِهِ فَيَخْتِمُ بِـ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١].

فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ- صلى الله عليه وسلم - فَقَالَ «سَلُوهُ لأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ فَقَالَ لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا فَقَالَ النَّبِيُّ- صلى الله عليه وسلم-: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ».

(الشرح)

شرحُ حديثِ أبي سعيدِ الخدري أنَّ رجلًا سمع رجلًا يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، ذكر الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ- في كتاب **"التوحيد"**: حديث أبي سعيدٍ الخدري في قصة هذا الرجل أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١] يُرَدِّدُها.

فلَـمَّا أصبحَ جاءَ إِلَى رسولِ الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فذَكَرَ ذالكَ لهُ، وكأنَّ الرَّجُلَ يَتَقالُّها، فَقَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه، إِنَّها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»**.

هذا الحديث من الأدلة التي ذكرها الْإِمَام الْبُخَارِيُّ في فضل التوحيد، وإنما قال النبي ﷺ: **«إِنَّها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»**، لأنها في توحيد الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فمع قصر آياتها وصفها الشارع بهذه الصفة.

والحديث في أن: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾[الإخلاص:١] تعدل ثلث الْقُرْآنَ جاء في الصَّحِيْحَيْنِ وغيرهما، وقد تكلم الْعُلَمَاءَ من الشرّاح وغيرهم في المقصود بقول النبي ﷺ: **«إِنَّها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»**.

وللْإِمَام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ- رسالةٌ في هذا سماها **"جواب أهل العلم والإيمان"**، ومحصّل ما ذكره الْإِمَام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ- في بيان المراد بهذا الحديث أن ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾[الإخلاص:١]، كما قال النبي ﷺ: **«إِنَّها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»**.

ولكن هل معنى هذا أن من قرأ: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾[الإخلاص:١]، يكون مماثلًا في القدر والصفة لمن قرأ عشرةَ أجزاء من الْقُرْآنَ؟ لاشك أن من قرأ عشرةَ أجزاء تكون حاله أفضل، مع قولنا: إبقاء القول على ظاهره.

الذي هو قوله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لا يتأول عن خلاف الظاهر، فليبقى القول على ظاهره يَعْنِي قول النبي ﷺ لا يتأول، بل يقال: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾[الإخلاص:١] تعدل ثلث الْقُرْآنَ.

لكن الشيخ - رَحِمَهُ اللَّهُ- يقول (أَعْنِي ابن تيمية): إن كونه تعدل ثلث الْقُرْآنَ إما أن يكون في القدر، وإما أن يكون في الصفة، وإما أن يكون فيهما معًا، قال: هي تعدل ثلث الْقُرْآنَ في القدر دون الصفة.

ومن هنا كانت حال من قرأ عشرة أجزاء من الْقُرْآنَ كانت حاله أكمل، فلو قرأ العشرة أجزاء من الْقُرْآنَ والآخر قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١] نقول: هذا قرأ ثلث الْقُرْآنَ، ونقول عن الثاني: إنه قرأ ثلث الْقُرْآنَ أو لا نقول؟.

نقول: قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١]، وقل هو الله أحد تعدل ثلث الْقُرْآنَ، وكون النبي ﷺ قال: «**إنها لتعدل**»، هذا ليس تأويلًا أعني ما ذكر ابن تيمية -رَحِمَهُ اللَّهُ-، لأن الشارع لم يقل: إنها ثلث الْقُرْآنَ، قال: «**تعدل ثلث الْقُرْآنَ**».

فهو يقول: إنها تعدل في القدر دون الصفة، فحال من قرأ عشرة أجزاء من الْقُرْآنَ اجتمع عنده القدر والصفة، وضرب ابن تيمية -رَحِمَهُ اللَّهُ- لذلك مثْلًا قال: كما لو أن رجلًا معه ألف دينار وآخر معه خمسمائة دينار مثْلًا في مقصود المثال الذي ضربه.

والخمسمائة الثانية متفرقة ما بين ملبسٍ ومسكنٍ استأجره، ومشربٍ ونحو ذلك، فيقول: هذا يملك ألف دينار وهذا يملك ألف دينار؛ لكن الثاني المنتفع بهذه الألف يختلف من جهة الصفة، فتكون حاله أتم.

كذلك يقول هنا: إن النبي ﷺ قال: «**تعدل ثلث الْقُرْآنَ**»، فيبقى قوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- على ظاهره وهذا ما فُسِّر به، ومنهم من قال: إنها تعدل ثلث الْقُرْآنَ؛ لأن الْقُرْآنَ في استقرائه إما أن يكون خبرًا وقصصًا، وإما أن يكون خبرًا عن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وتوحيدًا له وأمرًا بذلك، وإما أن يكون في التشريع.

قَالُوا و: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١] هي في الخبر عن التوحيد والأمر به، فإن الله يقول في كتابه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١]، فتضمنت أمرًا بأشرف الأمر وهو التوحيد، وإخبارًا عن التوحيد بتمام السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١]، إلى تمامها.

وهذا المعنى مناسب من حيث أن الْقُرْآنَ منه ما هو قصص، ومنه ما هو تشريع إلى آخره؛ لكن لا يفهم عنه أن القصص تتمحض وأن التشريع يتمحض عن التوحيد، بمعنى أن القصص مضمنة ذكر التوحيد والتشريع كذلك.

وعليه فالتفسير والبيان الذي ذكره شيخ الْإِسْلَامَ ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ- يكون مناسبًا في هذا، لأن الشارع قال: **«تعدل ثلث الْقُرْآنَ»**، فيبقى حرف النبي ﷺ على ظاهره وهذا أجل في الإتباع، وإن كان المعنى يفقه على وجهٍ مناسب أَيْضًا.

ثم ذكر بعده حديث عائشة -رَضِيَ اللَّهُ تعالى عَنْها-، وأن النبي ﷺ بعث رجلًا على سريةٍ وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم ب: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾[الإخلاص:١]، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم -.

وفي الحديث الأول أن: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾[الإخلاص:١] تعدل ثلث الْقُرْآنَ، وإن كانت حال من يقرأ الثلث من الْقُرْآنَ على التمام أكمل، هذا هو الفقه الذي فقهه الصَّحَابَةِ.

ولهذا لا نرى أن الصَّحَابَةِ بعد هذا الحديث صاروا يجعلون هذا وهذا على السواء، هذا لم ينقل كمذهبٍ لأحدٍ من الصَّحَابَةِ، ومن فقه الحديث الثالث أنه كان يرددها، فدل على أن ترداد السورة المعينة يكون مما يسوغ، ومما جاء به الأثر.

فإن النبي ﷺ امتدح حال هذا الرجل، وإن كان من يحفظ أو يقرأ أكثر من سورة حاله أكمل حتى يشمل قراءة أكثر مما هو في هذه السورة وحدها، ولهذا صارت حال من يحفظ الْقُرْآنَ بتمامه أكمل من دونه وهكذا.

أما في حديث عائشة فإن النبي بعث رجلًا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه فيختم بـ: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾[الإخلاص:١]، فهذا عرض في فعل هذا الرجل، وليس من الهدي الذي كان عامة الصَّحَابَةِ يفعلونه.

وأثنى النبي ﷺ على تعظيمه لهذه السورة، قَالَ: **"لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا"**، فلما فعل هذا الفعل على هذا المقصد الشرعي الشريف أثنى عليه النبي ﷺ.أما من حيث الحكم التكليفي المتعلق بمشروعية ختام الركعة أو الصلاة بقراءة: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[الإخلاص:١]، بعد السورة فهذا ليس في الأثر ما يدل على أن النبي ﷺ ندب إليه.

ففعل الرجل ليس خارجًا عن أصل الاقتداء؛ ولكن هل هذا مما يشرع على الاختصاص؟ ليس في الدليل ما يدل على ذلك، وإنما الظاهر من الرواية أن النبي ﷺ امتدح ما قام في نفسه، ولهذا قال: «**سلوه لأي شيءٍ يصنع ذلك؟**».

فامتدح هذا المعنى لديه أما أن هذا يشرع في ختام الصلاة، إذا صلى بالجماعة ختم بعد السورة ب: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[الإخلاص:١]، هل هذا يشرع؟ ليس في الرواية ما يدل على أن هذا يشرع.

ولكن لو أن أحدًا فعله في بعض الحال لقلنا: إن فعله هذا على سنة، لو فعله في بعض الحال لو أن أحدا صلى بقومٍ فقرأ في أخر الصلاة ختم ب: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[الإخلاص:١]، لقيل: إن هذا يكون حسنًا إذا عرض.

أما إذا لزمه الإنسان فهذا لا يظهر أنه من السنة إذا جعل هذا هديًا؛ لأن النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في صلاته لم يلتزم ذلك ولم ينقل عنه فعل ذلك؛ لكنه أثنى على هذا الفعل لما وقع عارضًا من هذا الرجل.

وقوله أي الصَّحَابَي ﷺ: **"لأنها صفة الرحمن"**، فعبر بكلمة الصفة وهذا يجاب به عما قاله أبو محمد بن حزم -رَحِمَهُ اللَّهُ- لما ذكر مبحث الصفات في كتبه، قال: إن كلمة الصفات كلمة لا أصل لها، فهذا فيه نظر ولا يسلم لأبي محمد بن حزم ما ذكره في مبحث صفات الله.

فضلًا عن أن معاني ابن حزم في صفات الله ليست المعاني الموافقة لمذهب السلف، وأبو محمد بن حزم كثير العناية بالدليل وتعظيم الدليل، وكثير العناية بتوقير الهدي الأول هدي الصَّحَابَةِ.

ويذم البدع كثيرًا ويقصد وينتصب للاستقامة على السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَة، فهو في هذه الموارد حَسَن الحال؛ لكن في تحقيق المعاني في مسائل أصول الدين له أحوالٌ مختلفة.

فإذا تكلم في مسمى الإيمان وفي أحكام أهل الكبائر والرد على الخوارج في مسائل الوعيد، فهو في الجملة في هذا الباب حسن التحقيق، وإن كان عليه بعض المسائل التي تراجع من مفصل هذا الباب.

لكن في الجملة كلامه في مسمى الإيمان، وفي مسائل الوعد والوعيد كلامه ورده على الخوارج في ذلك من أجود الردود، وأما كلامه في باب الصفات فهو بعيدًا عن التحقيق، كلامه في باب الصفات بعيدٌ عن التحقيق.

وإن كان ردّ على طريقة ما سماها طريقة أهل البدع في الصفات؛ لكنه من حيث المعاني أخطأ كثيرًا في مسائل الصفات؛ ولهذا لا يعتمد على ما يحرره ويذكره في كتابه "**الفِصل**"، أو في كتابه "**الدُرة في الاعتقاد**".

أو ذكره في مباحث أخرى لا يعتبر تحريرًا لما ذكره في الصفات، بل هو كثير الخطأ في الصفات، وإن كان أصاب في بعض الأوجه؛ لكن خطأه ظاهر في مسائل الصفات، وأما في مسألة اللفظ فإنه ترك مسألة الصفة، وقال: إن لا أصل لهذا اللفظ.

وهذا فيه تكلّف لأنها أولًا : استعملت في لسان الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللَّهُ تعالى عَنْهُم-، ثم إنها خبرٌ على مورد فصيح العرب وكلام العرب البين المستقيم، فهو ليس مما يجتنب كما ذكر -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

وفي قوله – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ**»، في إثبات صفة المحبة لله – جل وعلا-، وأنه يحب عباده الصالحين محبةً تليق بجلال الله، كسائر صفاته ليست كصفات المخلوقين.

وهذا إنما يقال: ليست كصفات المخلوقين، لما ظهرت الشبه في ذلك، وإلا فإن هذا من المعلوم من الفطرة والدين بالضرورة، فإن الله –جل ذكره– ليس كمثله شيء.

فالله –جل وعلا– يحب عباده الصالحين، وفي قوله: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾[المائدة:٥٤]، وفي قول النبي ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ**»، وفي قول الله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ**﴾[البقرة:٢٢٢].

فالأعمال الصالحة توجب محبة الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ودل ذلك على أن تعظيم الْقُرْآنَ من موجبات محبة الله، ودل ذلك على أن تعظيم صفات الله بمعنى التعظيم لله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– بكماله من موجبات محبته.

ودل ذلك على فضل التوحيد، وأن تحقيق التوحيد في معرفة الله وعبادته من موجبات محبة الله، بل هذا أعظم الموجبات.

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾[الإسراء: ١١٠].

عنْ جَرِيرِ بنِ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رسولُ الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: «لَا يَرْحَمُ الله مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ».

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ رَسُولُ إِحْدَى بَنَاتِهِ يَدْعُوهُ إِلَى ابْنِهَا فِي الْمَوْتِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْجِعْ إِلَيْهَا فَأَخْبِرْهَا أَنَّ لِلَّهِ مَا

أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»، فَأَعَادَتْ الرَّسُولَ أَنَّهَا قَدْ أَقْسَمَتْ لَيَأْتِيَنَّهَا.

فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَدُفِعَ الصَّبِيُّ إِلَيْهِ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا فِي شَنٍّ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ قَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: "بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾":

نعم قال الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ-: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[الإسراء: ١١٠]، لله -جل وعلا- الأسماء الحسنى، وهذا هو المقصود في تبويب الْإِمَام الْبُخَارِيُّ.

وفي قول الله -جل ذكره-: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، فالله -جل وعلا- من مقامات توحيده ومعرفته: أن له الأسماء الحسنى، ولا يعلم عدد الأسماء إلا الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، لا يعلم ولا يحيط بأسمائه الخلق، فلله -جل وعلا- الأسماء الحسنى وتعرف من كتاب الله وسنة نبيه.

فهي أسماء توقيفية لا يتجاوز الْقُرْآنَ والحديث في معرفتها، وهي مذكورةٌ كثيرة في كتاب الله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾[الحشر:٢٣]، وهو الحي القيوم وهو الرحمن الرحيم وهو السميع البصير إلى غير ذلك.

وما تتضمنه هذه الأسماء من موجبات من معاني توحيده، وموجبات معرفة الخلق له واستجابتهم لأمره، ولهذا فإن كل اسمٍ يتضمن جملةً من الصفات، ويدل عليها إما دلالة مطابقة أو دلالة تضمّن أو دلالة لزوم.

كل اسمٍ في الْقُرْآنَ يدل على جملة من صفات الله، إما دلالة مطابقة وإما دلالة تضمن وإما دلالة لزوم، ومذهب أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَة إثبات الأسماء حيث وردت في كتاب الله وسنة نبيه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

خلافًا لطرق أهل البدع من نفاة الأسماء، أو من دونهم ممن أثبت الأسماء ولكن جعلها لا تدل على إثبات قيام الصفات بذات الله، أو أخطأ من جهة أنه قصر الأسماء على عددٍ منها دون سائر ما ورد، فهذه أوجهٌ من الخطأ والبدعة تقع في طرق المخالفين لطريقة السلف.

ثم ذكر الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ- حديث جرير بن عبد الله قال: قال النبي - صلى الله عَلَيْهِ وَسلم-: **«لَا يَرْحَمُ الله مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ»**، ففيه إثبات صفة الرحمة لله -جل وعلا- .

وهذا من فقه الْإِمَام الْبُخَارِيُّ أنه ذكر الأسماء، ثم ذكر حديث جرير فيه ذكر صفة الرحمة: **«لَا يَرْحَمُ الله مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ»**، والله -جل وعلا- من أسمائه: الرحمن، ومن أسمائه: الرحيم، فالصفة ترد ضمن الاسم وترد مختصةً في سياق كما في هذا الحديث.

وفيه: أي في الحديث أن رحمة الناس والإحسان إليهم من موجبات - رَحِمَةَ اللَّهُ- - جل وعلا-، وفيه ذم القسوة في قلوب الخلق، ولهذا لا تنزع الرحمة إلا من شقي.

ثم ذكر بعده حديث أسامة بن زيد في ابن بنت النبي ﷺ، وأنت ترى أن النبي لما دعته إلى ابنها في الموت، قال: **«ارْجِعْ إِلَيْهَا فَأَخْبِرْهَا»**، ثم ندبها إلى ما يَنْبَغِي أن تفعله ولم يبادر- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

فمبادرته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إلى هذا القول هي مبادرةٌ للمقام الأعلى، لأنه ندبها إلى أمر ربه والصبر كما جاء في الصَّحِيْحَ: **"عند الصدمة الأولى"**.

فمن عنايته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بما شرع الله له من الشريعة، ومن نصحه لابنته ومحبته لها أنه ندبها إلى المقام الأعلى قبل أن يصل إليه، وهذا كونه أرسل الرسول بهذه الكلمات كونه أرسل رسوله بهذه الكلمات، أرسله بهذه الكلمات دليل على عنايته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بتعظيم مقام الشريعة من حيث ما يَنْبَغِي لها أن تفعل، قبل أن يحضر أبوها -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

فهذا ليس تأخرًا منه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- عن رحمة ابنته، وإنما استعجل -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وسارع وسابق -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لتعظيم أمر ربه الذي شُرع للعباد، شُرع فإنما يبلغ أمر ربه.

فلأن لا يفوتها الصبر عن الصدمة الأولى مباشرة أمر الرسول أن يرجع إليها، ويذكرها بالإيمان بالقضاء والقدر و التسليم لأمر الله والصبر والاحتساب.

ثم ما تأخر -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قام من مجلسه وكان مشغولًا به، ولا يحتاج إلى أن نقول: إن النبي كان لعله كان مشغولًا في جلسه، قطعًا أنه كان مشغولًا في مجلسه في أمر الْمُسْلِمِينَ، وتعليمهم وبيان الدين.

ولكنه سابق إلى المقام الأول تعظيمًا لشريعة الله التي بعثه الله بها، ولم يتأخر إلى أن يحضر؛ لأنها هي طلبته بصفته نبيًا من جهة ما يشرع في هذا المقام من السنن وطلبته بصفته أبًا لها -رَضِيَ اللَّهُ عَنْها-.

فهي تأخذ منه السنة والهدي الذي يُفعل في حال هذا الصبي، وما يشرع من الأفعال، فأرادت أن تتأسى به نبيًا وأرادت أن تجبر نفسها بوجوده أبًا، فاستعجل أو سابق -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إلى العناية بالمقام الأجل المقام الأول، وهو المتعلق بإيمانها بربها -جل وعلا-.

ولهذا فإن هديه هنا أكمل الهدي - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، كسائر مقاماته وسائر أحواله وليس تأخرًا عن حال هذا الصبي، ولهذا صار له - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من الحال والرحمة ما هو في تمام الرواية.

لما فاضت عيناه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وقال: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»، ولهذا لا تنزع الرحمة كما سبق إلا من شقي.

ومن آتاه الله هذه الصفة صفة الرحمة فليحمد الله عليها، وليحفظها على وجهها الصَّحِيْحَ، ومن رأى في نفسه قسوةً فإن هذا من المرض الذي يَعرض لبعض النفوس، فيَنْبَغِي له أن يعالج ذلك فليس ذلك مما يحسُن.

والرحمة إذا كانت في القلب أوجبت عدلًا، بخلاف القسوة فإنها توجب ظلمًا؛ لكن الرحمة تكون كمالًا تامًا إذا اجتمع معها العلم ولذلك هم لما ذكر الله الخضر. وما مَنْ الله به عليه قال: ﴿ **فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا** ﴾ [الكهف:٦٥].

فذكر الله امتنانه على الخضر بالمقامين: مقام الرحمة ومقام العلم، ومع كون الله بين أنه أتاه رحمةً وعلمًا فإنه لما سار موسى معه كما في سورة الكهف، وما جاء في السنن في قصتهما لما سار موسى معه قتل الغلام أليس كذلك؟.

مع أن الله أتاه رحمه وخرق السفينة وهذا قد يعرّض أهلها لما يعرضهم إليه، مع أن الله أتاه رحمه لمَ؟ لأن هذه الرحمة كانت مقترنةً بالعلم، الرحمة مقترنة بالعلم ولذلك إذا كانت الرحمة مقترنة بالعلم صارت توزن بميزان الشرعية.

لكن في الجملة الرحمة محمودة بالجملة الرحمة محمودة، ولاشك ولهذا ندب الشارع إلى العناية بمقامها، واتصف- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-بها وقال: : «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ**»، منةً من الله.

وتأمل في قصة الخضر. فإن أصل مسألة الخضر أن موسى قال: أنا أعلم، لم يذكر بَنِو إِسْرَائِيلَ مع موسى مسألة الرحمة، وإنما سألوه عن العلم فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى ربه، فقال: **"إن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك"**، أي في بعض الأمر.

قال: يا رب كيف لي به؟ قال: **"أحمل حوتًا في مكتل فحيث تفقد الحوت فهو ثَمْ"**، فصار موسى وفتاه كما جاء في حديث عبد الله بن عباس في قصة مسيرهما وهي مفصلة في سورة الكهف قبل ذلك.

الشاهد: أن الله لما ذكر أمره قال: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا ﴾، أي موسى وفتاه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾[الكهف:٦٥].

ولذلك الرحمة دون العلم تكون ناقصة، كما أنّ العلم دون الرحمة يكون ناقصًا، ولذلك غلظ القلوب ليس ممدوحًا في الشريعة، وله أسبابه المادية والمعنوية، ولهذا قال الشارع -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**غلظ القلوب والجفاء في المشرق**»، وذكره في أهل الإبل.

فهذا مما يؤثر على النفوس، فهناك من الأمور الكونية والمادية ما تؤثر، وبالمقابل هناك من الأسباب ما يؤثر في تحقيق هذه الرحمة في النفوس؛ لكن أَصلها من فضل الله على الخلق.

ولهذا جاء في الصَّحِيْحَ: «**إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمةً واحدة، فبها يتراحم العباد وبها تعطف الوحش على ولدها، وأبقى تسعًا وتسعين يرحم بها عباده يوم القيامة**».

فالله -جل وعلا- جمع للخضر. وجمع لموسى الصفتين، فحتى موسى أتاه الله الرحمة وأتاه العلم؛ لكن في مقامٍ من العلم أبان الله له أن علم الله لا يحيط به بشر.

ولهذا لما ركب في السفينة وجاء عصفورٌ فنقر، قال له الخضر: **"ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور"**، هذه نسبة لا تذكر بمعنى أنها نسبة ليس لها رقم أساسًا، ليس لها رقم (أسماء) فعلم الله لا يحيط به أحد.

وموسى –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– من كمال أمر الله له جعل له هذه القصة مع الخضر، وإلا فموسى أفضل –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– بإجماع الْعُلَمَاءَ أن موسى أفضل من الخضر، وموسى رسولٌ من رسل الله ومن أولي العزم من الرسل.

بخلاف الخضر فإنه من الصالحين والأولياء وأهل العلم والعبادة؛ ولكنه ليس من الأنبياء بل هو رجلٌ صالح، وعالمٌ أتاه الله رحمةً وعلمًا كما في كتابه.

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ».

(الشرح)

شرح قول المصنف: "بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾":

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد قال الْإِمَام الْبُخَارِيُّ –رَحِمَهُ اللَّهُ– في كتاب **"التوحيد"**: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: **﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾** [الذاريات: ٥٨].

ثم ذكر حديث أبي موسى ﵁، أن النبي ﷺ قَالَ: **«مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»**.

وهذا التبويب في كتاب **"التوحيد"** أراد منه الْإِمَام الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ- بيان: أن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- له الأسماء الحسنى، وأن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أفعاله فضلٌ على عباده وحكمةٌ في قضاء الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- برزق العباد مؤمنهم وكافرهم.

فهو -جل وعلا- الرزاق لسائر الخلق وسائر العباد، ليتحقق فقرهم وحاجتهم إلى ربهم - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فلا أحد يستغني عن خالقه، لا أحد يستغني عن الله الذي خلقه.

فإن العباد طبيعتهم وحالهم النقص والحاجة، وقوله: **«مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ»**، أن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هو الحليم، وهو كما جاء في حديث أبي موسى: **"يملي للظالم"**.

والله يقول في كتابه: ﴿ **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا** ﴾[آل عمران: ١٧٨]، فهذا من إملاء الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ولذلكم بقاء النعمة الظاهرة عند الكفار ليست دليلًا على مقامٍ من رضا الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ولا شك، وإنما هي مقام الإملاء وإقامة الحجة عليهم أو الإملاء لهم ليزدادوا إثمًا.

كما في قول الله -جل وعلا-: ﴿ **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا** ﴾[آل عمران: ١٧٨]، يدّعون له الولد أي من ادعى الولد لله: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ** ﴾[التوبة: ٣٠].

فيدعون له الولد وهو -جل وعلا- يعافيهم ويرزقهم، و قول النبي ﷺ في رواية الْبُخَارِيُّ: **«ويرزقهم»**، هذا دليل على أن رزق الكافر أو ما يقع للكافرِ يسمى رزقًا، ويضاف الرزق إلى الله.

خلافًا لطائفة من المعتزلة الذين قَالُوا: ما يكون من المال للكافر فإنه لا يسمى رزق الله، قَالُوا: لا يسمى رزق الله وهذا خلاف مذهب جماهير الْمُسْلِمِينَ، وخلاف إجماع السلف وخلاف النصوص.

هذا رأيٌ غلط قال به طائفةٌ من نظّار المعتزلة ومن وافقهم، نعم قال: باب قول – اللَّهُ تَعَالَى-: عالم الغيب.

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾[الجن: ٢٦]، وَ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[لقمان: ٣٤]، وَ ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾[النساء: ١٦٦]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾[فاطر: ١١]، ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[فصلت: ٤٧].

قَالَ يَحْيَى: ﴿الظَّاهِرُ﴾[الحديد: ٣]: «عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا»، ﴿وَالبَاطِنُ﴾[الحديد: ٣]: «عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: "بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾":

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾[الجن: ٢٦]، وهذا مما اختص الله به كما في قول الله -جل ذكره-: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل: ٦٥].

فالله وحده لا شريك له هو عالم الغيب والشهادة، فمن ادّعى علم الغيب أو ما هو منه فهذا كافرٌ بإجماع الْمُسْلِمِينَ، سواء سمّى نفسه ساحرًا، أو سماه الناس كاهنًا أو عرافًا أو روحانيًا، أو بأي اسمٍ من الأسماء.

فمن ادعى علم ما هو من الغيب، ولو لم يدعِ علم الغيب المطلق؛ لكنه ادعى مقامًا من علم الغيب أو موردًا من علم الغيب، فهذا كافرٌ بإجماع الْمُسْلِمِينَ، وهو من الإلحاد المبين والكفر بربوبية رب العالمين- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فإن الله يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل: ٦٥]، فهذا كافرٌ بالله مكذّبٌ لرسله، ومكذّبٌ بالكتب التي جاءت من عند الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وهو كاذبٌ في دعواه ولابد.

فإن الغيب لا يحيط به أحد، لا ملكٌ مقرب ولا نبيٌ مرسل عالم الغيب كما في قول الله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾[الجن: ٢٦-٢٧].

فمن كان ملكًا أو نبيًا علمه الله من الغيب ما علمه، ولا يحيط بذلك ملكٌ ولا نبي، فضلًا عن أن يدعيه من لا خلاق له عند الله من أصناف الكفار والكُهان والمشركين الكافرين بربوبية رب العالمين.

وفي قول الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[لقمان: ٣٤]، وَقوله: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾[النساء: ١٦٦]، وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾[فاطر: ١١]، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[فصلت: ٤٧].

هذه الآيات جمعها الْبُخَارِيُّ في هذا المقام استدلالًا على اسم العليم من أسماء الله وصفة العلم، إن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هو السميع العليم كما في كتاب الله، فمن أسمائه العليم.

وهو يتصف بصفة العلم كما في هذه الآيات، والآيات بيّنة أن علم الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لا يحيط به الخلق، فالله يقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾، وهذا لا يحيط به الخلق، ففيه إثباتٌ لصفة العلم وإثباتٌ لاختصاص الخالق وحده بهذه الصفة، فلا يشاركها فيها غيره.

والمخلوق وإن كان له علم إلا أن علم المخلوق علمٌ ناقص ليس كعلم الخالق، فإن علم الخالق لا يشاركه فيه أحد يختص به - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ولذلكم من فقه الْإِمَام الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ- أنه لما ذكر العلم ذكر جملة آيات أليس كذلك؟.

مع أن غالب طريقة الْبُخَارِيُّ في الكتاب يذكر الآية أو الآيتين؛ لكن هنا ذكر عددًا من الآيات مع أن العلم أبين في الإثبات من بعض الصفات التي جاءت في عددٍ من النصوص، العلم مستفيض والعلم فطرة أليس كذلك؟.

الإيمان بأن الله بكل شيءٍ عليم هذا علمٌ فطري، وعلمٌ عقلي فضلًا عن كونه علمًا شرعيًا مستفيضًا، فإذا كان كذلك من البيان، حتى إن الْإِمَام أحمد لما كانت القدرية تتكلم في مسألة الخلق خلق الفعل ومشيئة الرب لأفعال عباده.

كان يقول وغيره: ناظروهم أي القدرية بالعلم فإن أنكروه كفروا؛ لكونه أمرًا فطريًا ومعلومًا من الدين بالضرورة ومستفيضًا إلى غير ذلك، قال: ناظروهم بالعلم فإن أنكروه كفروا، وإن أقروا به خُصموا.

فظاهرٌ من طريقة أحمد: أن العلم من المعلوم فطرةً وعقلًا وشرعًا، حتى إن يحاج به في غيره من الأصول، وهذا لا يسقط رتبة الأصول التي بعدها عن كونها أصولًا معلومةً متواترةً في الشريعة.

إذا كان كذلك فلماذا الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ- عدّد ذكر الآيات؟ نقول: هذا كأنه والله أعلم تنبيه على منزلة هذا الأصل في الدين، وهو الإيمان بعلم الله فإن الإيمان بعلم الله يتحقق به مسألة الربوبية.

والإيمان بعلم الله يتحقق به مسألة العبادة، فإن أول مقامات العبودية لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- العلم، فالعلم بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وما يوجبه هذا العلم من العمل الذي لا ينفك عنه، ولا يصح تقدير الانفكاك.

فإذا قُدر انفكاك العلم عن العمل، فهذا ليس العلم الذي شرعه الله؛ بل العلم الذي شرع الله لابد أن يوجب صلاحًا في الأحوال والأعمال، العلم الذي شرعه الله لا يقدر منفكًا، ولذلك إذا قُدر منفكًا صار معرفةً محضة.

وهذه تعرض حتى لغير الْمُسْلِمِ كما قَال الله عن أهل الكتاب: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[البقرة: ١٤٦]، فهذه معرفةٌ ليست منجيةً لهم عند الله؛ بل هي حجةٌ عليهم وليست حجةً لهم.

بخلاف العلم الذي شرع الله فهو ما يوجب ويتضمن ويستلزم التحقيق للعمل، ولذلك فالعلم غايةٌ بذاته فهنا هذا المقام مقام العلم مقامٌ شريف وهو علم الخالق -جل وعلا-، فالربوبية من أخص أصولها هذا الأصل وهو أصل العلم.

والعبادة الإلوهية من أخص أصولها هذا الأصل وهو العلم، كما قال الله لنبيه: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[محمد: ١٩]، وباب الأسماء والصفات أَيْضًا من أخص أصوله هذا الأصل وهو العلم.

ولهذا حتى المعتزلة لما ذكرت الأسماء ذكرت العليم، يقولون: حيٌ عليمٌ قدير هذا عامة المعتزلة تقرُّ به في الأسماء، ومتكلمة الصفاتية الذين تأولوا طائفة من الصفات أو فوضوها لكنهم أثبتوا صفة العلم، وأثبتوا معها جملة لكن أثبتوا صفة العلم.

فهي برهانٌ في باب أسماء الله وصفاته، وهي دليلٌ على امتناع التأويل في بقية الأسماء والصفات لبيانها وظهورها، كما أنها في باب قدر الله علم الله في باب قدره هو برهانٌ على بطلان الغلط في باب القدر، كما كان الْإِمَام يقول: **"ناظروهم بالعلم"**.

وكذلك في باب النبوات ؛ فإن النبوات من علم الله، كما قال الله عما بعث به نبيه: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[النجم: ٣-٤]، فالنبوات هي من علم الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

والله يقول لنبيه: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[النساء: ١١٣]، فإذًا من فقه الْإِمَام الْبُخَارِيُّ أنه ذكر جملةً من الآيات، لمّا ذكر العلم الإلهي مع أنه

فطريٌ مستفيض، إلا إن ذكر الآيات المتعددة هو من التنبيه عند الْإِمَام - رَحِمَهُ اللَّهُ- على علو وشرف رتبة هذا الأصل.

الذي يعد من أخص الأصول في الربوبية والعبادة، والأسماء والصفات والقدر وبقية أصول الدين، فما من أصلٍ في أصول الدين إلا وهذا الأصل أحد قواعده.

حتى في باب اليوم الأخر فإن هذا من علم الله الذي اختص به الإحاطة بما يكون من أمر اليوم الأخر، فإن له من الأحوال والأهوال والوقائع ما سمى الله ذكره أو بينه في كتابه، أو ذكر النبي ﷺ مقامات منه؛ لكن الإحاطة بذلك هو ما اختص الله بعلمه، الإحاطة بأحوال اليوم الأخر هو مما اختص الله بعلمه.

ولذلك صار الْإِيمَان بعلم الله بالغيب هذا من أخص أصول الديانة، ولما ذكر الله في سورة البقرة المتقين قال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[البقرة:٢- ٣]، فالإيمان بِالْغَيْبِ هو من أخص أمور التقوى وأمور العبادة نعم.

(المتن)

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لاَ يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلاَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ».

(الشرح)

شرحُ حديثِ ابن عمر: «مفاتيح الغيب خمس»:

هذا حديث عبد الله بن عمر، وذكر فيه النبي ﷺ مفاتيح الغيب والمذكورة في قول الله:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾[الأنعام: ٥٩].

الله -جل وعلا- هو الذي تفرّد بعلم الغيب، ومن مقامات الغيب هذه الخمس التي قال الله فيها: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام: ٥٩]، ولا يحيط بهذه إلا الله -جل وعلا- ولا يعلمها إلا الله.

ومن مقاماتها: قول النبي ﷺ: «لاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ»، لاَ يَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ إِلَّا اللَّهُ، ولو أن كافرًا اعترض على هذا الأمر بقوله: إنهم الآن يعرفون هل هذا ولد ذكر أو أنه أنثى؟.

قلنا: هم لا يعلمون ذلك إلا مشاهدةً، وهو التصوير الآن حينما يكون قابلًا للتصوير في بطن أمه وتبين فيه الخلق؛ فهم إنما يذكرون الشاهد لا يذكرون ما هو غيب، فهذا مما يكون شاهدًا بالتصوير، فهذا لا شبهة فيه البتة.

ومثله الآن في نزول المطر: «وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ»، التوقعات التي يستعملها أهل الأرصاد والفلك، هذا أَيْضًا هو من الظن ليس من العلم في شيء هذا من الظن، وهو ظن مبني على تراتيب كونية معتادة.

لكن الإحاطة أو الجزم أو العلم هذا يختص الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- به؛ لكن الشيء يكون مشاهدًا وهم يخبرون بقدرٍ من المشاهدة، على أن هذا وإن كان يقدر إن كان العلم به مشاهدةً لأنه ليس من الغيب في هذه الحالة.

ويبقى أن ما يقولونه في هذا القدر الممكن هو قدرٌ ظني، ولذلك يقع فيه زيادة ونقصان وتأخر إلى آخره، فليس علمًا ولا يحيطون به مطلقًا أو يتكلمون فيه مطلقًا، ومع ذلك فإن هذه الكلمات الشرعية في كلام الله وكلام نبيه ﷺ تبقى على حقيقتها وإطلاقها، فلا يعلم متى يأتي المطر إلا الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وأما ما يقع كما أسلفت فهذا قدرٌ من المشاهدة وهي مقولةٌ بالظن، على أن بعضهم قد يتكلف الزيادة ويدعي الزيادة، فهذا يكون خرج عن حكم الشريعة التي أذنت فيه، يكون معتديًا في كلامه.

ليس كل ما يقال من قبل الفلكيين يكون صوابًا؛ بل منه ما يكون صوابًا ومنه ما يكون خطأ ومنه ما يكون تعديًا على الأحكام الشرعية أَحْيَانًا، فهذا يعرف على هذا القدر نعم.

(المتن)

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ، فَقَدْ كَذَبَ، وَهُوَ يَقُولُ»: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾[الأنعام: ١٠٣]، «وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ الغَيْبَ، فَقَدْ كَذَبَ، وَهُوَ يَقُولُ»: ﴿ لَا يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾.

(الشرح)

شرحُ حديث عائشة: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى..»:

نعم حديث عائشة حديث مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، فيه مسألتان: أن عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- تنكر أن النبي ﷺ رأى ربه في المعراج، وما نفته عائشة هو الذي عليه عامة الصَّحَابَةِ كما سبق.

بل حكى الدارمي إجماع الصَّحَابَةِ أن النبي ﷺ لم يرى ربه ببصره، وجاء في حديث أبي ذر الذي رواه مسلم: أن النبي ﷺ قال لما سأله أبو ذر: هل رأيت ربك؟ قال: **«نورٌ أنى أراه»**، وفي روايةٍ: **«رأيتُ نورًا»**.

فهذا الذي عليه الصَّحَابَةِ أن النبي ﷺ لم يرى ربه ببصره، وهذا هو مذهب كبار الأئمة كالْإِمَام أحمد وأمثاله، وقال طائفةٌ من المتأخرين بخلاف ذلك؛ لكن هذا مذهبٌ مرجوح، بالخلاف مذهب الصَّحَابَةِ فيما يظهر، وإن كانت هذه المسألة ليست بقدر مسألة رؤية الْمُؤْمِنِينَ تلك مسألةٌ متواترة.

قَالَتْ: **«وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ الغَيْبَ، فَقَدْ كَذَبَ»**، فَقَدْ كَذَبَ فهذا من مقامات المعرفة في حكم ذلك أنه لا يدّعي الغيب إلا كاذب، لأنه لا يحيط بالغيب إلا الله.

ولذلك ما يدّعيه الكاهن أو بأي اسمٍ كان فهو من الكذب، وقد يكون ممّا استرقت الشياطين من السمع، فهذا يكذب معه أضعافًا مضاعفة أو قد يكون أمرًا مشاهدًا، ظن

بعض الجُهال أنه يعلم غيبًا وهو إنما يفعل أمرًا معروفًا مشاهدًا، فيعطونه صفة المعرفة بما هو من الغيب، هذا كله من الضلال.

ولهذا نهت الشريعة عن إتيان الكُهان، وقال النبي ﷺ في حديث صفية بنت أبي عُبيد، عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من أتى كاهنًا أو عرافًا فسأله عن شيءٍ فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد**».

من سأل الكاهن أو العرّاف عما يراه غيبًا وما هو من الغيب، فصدقه في أنه يعلم الغيب أي الكاهن، فهذا المصدق يكفر إذا صدق بأن غير الله يعلم الغيب.

من صدق كاهنًا في دعواه أن يعلم الغيب فأقر له بأنه يعلم الغيب؛ أو ما هو من الغيب الذي هو من خصائص الخالق -جل وعلا-، فقد كفر أما لو سأله ولم يصدقه فهذا جاء فيه الوعيد الأخر قال: «**لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**».

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿السَّلاَمُ المُؤْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣].

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كُنَّا نُصَلِّي خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَقُولُ: السَّلاَمُ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلاَمُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: "بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿السَّلَامُ المُؤْمِنُ﴾":

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمدًا وآله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿السَّلاَمُ المُؤْمِنُ﴾[الحشر: ٢٣].

وذكره لهذين الاسمين في الآية هو إبانة من الإمام البخاري إلى أن المعتبر في هذا الباب هو ما جاء في كتاب الله وأن أسماء الله التي أخبر الله بجملتها مثل قوله: ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ﴾[الأعراف:١٨٠]، هي المسمى بها في القرآن والحديث.

ولا يتلقى الاسم من غيرهما، لأن أسماء الله ﷻ توقيفية وهي من توحيده، هذا بيان إلى أن أسماء الله وأن توحيد الله بأسمائه هذا من توحيد الله، ولهذا ذكرها في كتاب التوحيد، ولهذا نقول: توحيد الأسماء والصفات، أي أن الله وحده المختصّ بهذه الأسماء على ما يليق بجلاله، ومختصّ بهذه الصفات على ما يليق بجلاله، فلا يشارك الباري في حقائق أسمائه وصفاته أحد، فهذا من توحيد الله، ولا يستغرب إضافة هذا إلى التوحيد إلا جاهل بحقائق التوحيد.

ولذلك فإن جميع المسلمين من شتى الطوائف ذكروا أنّ هذا الباب هو من التوحيد، حتى الذين خالفوا مذهب السلف في مسألة الأسماء والصفات يتفقون على أن القول بالأسماء والصفات هو من القول بالتوحيد، وإن خالفوا في ترتيب حقائق هذا الباب أو في تأويل طائفة من معانيه، لكنهم يتفقون على أن هذا الباب، باب الأسماء والصفات هو من باب التوحيد، وأنه بابٌ منه، ولهذا صح أن تقول: هو قسمًا من أقسام التوحيد، أو بابًا منه، أو تقول: توحيد الأسماء والصفات.

ولذلك سمّت المعتزلة قولها في الأسماء والصفات، وجملة من المسائل الإلهية سمت ذلك التوحيد، أليس كذلك؟ وكذلك لما كتب الماتريدي كتابه سمى كتابه كتاب **"التوحيد"** وهو في مسائل الإلهيات وباب الصفات والأسماء، بابٌ واسعٌ فيه.

وجميع المتكلمين من متكلمة المعتزلة ومتكلمة الصفاتية يتفقون على أن هذا هو من التوحيد، فهذا عامة أهل القبلة يذكرونه بمسمى التوحيد، ولا أحد منهم ممن لم يسميه ينفيه، لم يحفظ نفيه لمذهب أحدًا من أهل القبلة، وإن كانت هذه المذاهب كثرت في هذا

الباب، وسبق في بعض المجالس في شرح رسالة التدمرية وغيرها بيان ما قاله طوائف من أهل القبلة في باب: الأسماء والصفات، وما وقع فيه من الخلل عند جملة من هذه الطوائف، والقول المحرّر في مذهب السلف في هذه الأمة وأئمتها.

إنما المقصود هنا التسمية، وأن هذا هو من توحيد الله وإن كان يختلف بين أهل القبلة في مسألة المناط وتحقيقه، فلا يختلفون أن القول في أسماء الرب وأفعاله وصفاته هو قولًا في توحيده ومعرفته، هذا لا يستريب فيه أحد.

ولذلك فإن تسميته بتوحيد الأسماء والصفات هذا اصطلاحٌ كما سبق التنبيه إليه وهو اصطلاحٌ واسع يقصد به البيان وتمييز المعاني لما تدخلت فيها الشبهات، ولذلك لو قال قائل: التوحيد واحد، وهو معرفة الله وعبادته، وقال آخر: التوحيد قسمان:

الأول: علمي، وعملي. الثاني: طلبي وخبري.

فكذلكم هذا صحيح، أو قال قائل: التوحيد ثلاثة:

الأول: توحيد الربوبية بأفعال الله.

الثاني: توحيد الإلهية بإخلاص العبادة له بالفعل المكلف.

الثالث: توحيد الأسماء والصفات بإثبات أسمائه وصفاته.

هذا يقصد منه تمييز المعاني، كما يقول الفقهاء: كما سبق أركان الصلاة، وواجبات الصلاة، وشروط الصلاة، وكما يقول علماء الأصول: القياس، والاستحسان، والمصلحة المرسلة إلى آخره، يقصدون تمييز المعاني، فهذا من باب تمييز المعاني، كلها داخلة في أدلة الشريعة، وكلها داخلة فيما يجب في الصلاة، سواء سميتها ركنًا أو واجبًا أو شرطًا كلها واجبة، في الحكم التكليفي العالم، أليس كذلك أليست الشروط واجبات، والأركان واجبات، وما سموه واجبًا واجب، في الحكم التكليفي كلها واحدة.

ولذلكم حينما يُقصد إلى التوحيد مثلًا أو يراد النزع على قول إمامٍ معين أو الرد على عالم من علماء السنة بعينه، يأتي هذا الأسلوب من المُداخلة غير المنضبطة علميًا ومنهجيًا،

فيقال تقسيم الوهابية للتوحيد ثلاثة، هذا بدعة ما ورد، (الحين ما ورد والأمور الثانية واردة)، وتجد فيه هذا ما ورد لو كنا نتكلم عن عبادة لا حصل لأحد بحيث أنه يقال: إن فلانًا، كما قال الإمام مالك: كلٌ يؤخذ من قوله ويترك، ليس الجدل في هذا.

الجدل في أن هذا لا ينافي الشريعة ولا ينافي ما جاء في كتاب الله، ولا ينافي ما جاء في سنة رسول الله، وهذا التقسيم الذي ذكره طائفة من أهل العلم حتى قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، ذكره ابن تيمية وذكره طائفة من أهل العلم من أصحاب أحمد وغيرهم.

هذه التقاسيم ليست ملزمة، وإنما المقصود هو بيان معاني الكتاب والسنة، فإذا اصطلح بعض أهل العلم اصطلاحًا لبيان هذه المعاني فالأصل أن هذه الاصطلاحات ما لم تعطل الأسماء الشرعية يكون لا مشاحة فيها، ثم إن قولنا اصطلاح هو مبنيٌّ على قدرٍ من التجاوز في التراكيب، وإلا هي في حقيقتها أسماء شرعية، ليست اصطلاحات محضة، الاصطلاح المحض مثل مصطلح الفناء عند الصوفية، هذا يعتبر مصطلحًا أو اسمًا شرعيًا؟.

يعتبر مصطلحًا، ليس في الكتاب ولا في السنة ما يفيد اشتقاق هذا الاسم منه، لا مصدر ولا غير ذلك، إنما إذا قلت الربوبية فهذا ذكره أن الله هو رب العالمين، وهذا ليس من الاصطلاح المحض، هذا اسمٌ شرعي ؛ لأنه في فاتحة الكتاب الله يقول: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، وقال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر:٦٠]، وهذا من البدهية، فذكر الربوبية هذا أمرٌ بدهي.

وكذلك الإلهية أن الله هو الإله، هذا أيضًا أمرٌ صريح تسمية أن الله هو الإله وأنه الله، والرسل قالت لقومها: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ ﴾[الأعراف:٥٩]، فذكر الإلهية هذا اسمٌ شرعي ليس اسمًا اصطلاحيًا حتى يقال: من أين جاء هذا الاسم؟ جاء من القرآن،

هذا موجود في القرآن، لكن تمييز المعاني أن توحيد الله بأفعاله يسمى الربوبية وهذا يسمى الإلهية، وهذا يسمى الأسماء والصفات، هذا تمييز معاني، ولو ميزت المعاني الشرعية باسماً آخر أو بتقسيم آخر ما قيل: إن الأول هو اللازم والثاني يكون باطلًا ما دامت الأسماء أسماء شرعية.

بل هذا أبين من كلمة الخبري والطلبي، الخبري والطلبي، هو بيانٌ لتقسيم فيه مادة واضحة من الاصطلاح ،وإن كان هذا الاصطلاح يؤول إلى الشرعي، باعتبار أن الأمر هو الطلب والشريعة فيها صريح الأمر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾[النحل:٩٠].

فهذه الاصطلاحات لا تتمحض أولًا أنها اصطلاحات، وإن كان فيها مادة من الاصطلاح من حيث طريقة التركيب أحيانًا لا تتمحض مثل ما تمحضت اصطلاحات بعض الاصطلاحات الكلامية أو الاصطلاحات لدى الصوفية، لا تتمحض حينما تقول: الطلبي، والعلمي، العلمي أيضًا ليس اصطلاحًا لأنه منسوب إلى العلم ، والعلم اسم شرعي، أليس كذلك؟ والطلب فيه مادة من الاصطلاح لكن مرادفه الأمر، والأمر اسمٌ شرعي، فلا يتمحض أنه اصطلاح.

وعليه فمثل هذه التراتيب، إن صحت العبارة قد تكون أدق من كلمة التقاسيم هذه، هذه التراتيب العلمية يقصد بها البيان، لا يقصد منه التعبد بعين التقسيم من حيث هو تقسيم إلى ثلاثة لا يكون إلى اثنين أو لا يكون واحدًا.

ولذلك قلنا: من قال: التوحيد واحد، وهو الإيمان بالله، أو قال التوحيد عبادة الله وإخلاص الدين له والإيمان به، وبما جاءت به رسله، ومن قال التوحيد هو الصراط المستقيم، وقال التوحيد هو دين الإسلام، ومن قال: التوحيد نوعان:

الأول: علميًا وخبريًا. الثاني: أو طلبي إرادي.

هذا أيضًا بيان للمعاني ؛ لأن الشريعة بالنظر إليها فيها خبرًا: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]، هذا خبر يجب التصديق به، وفيها أمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[البقرة:١٨٣]، فليس في كلام العلماء –رحمهم الله– يعني علماء السنة والجماعة، من المتقدمين والمتأخرين ما يستدعي مثل هذا الاستغراب الذي أحيانًا يثار على قول عالمٍ بعينه ويكون عند التحقيق ينسب إلى معين وهو عند التحقيق معروفًا في كلام غيره من أهل العلم لم يختصّ به.

الشاهد أن الله–جل ذكره– قال: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، فهذا في سورة الحشر في ذكر أسماء الله وصفاته، ثم ذكر الإمام البخاري حديث عبد الله بن مسعود قال: كُنَّا نُصَلِّي خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَقُولُ: السَّلاَمُ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلاَمُ»** ثم أرشدوا إلى الذكر المناسب المقابل له، وهو ما يسميه الفقهاء التشهد وسبق معنا في حكمه، ولذلك قال عبد الله في الرواية الأخرى: **«كان رسول الله يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن»**.

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٢].

فِيهِ ابْنُ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ».

(الشرح)

شرح قول المصنف: "بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَلِكِ النَّاس﴾":

الله ﷻ هو الملك الذي يختص بحقيقة هذا الاسم من أسمائه ﷻ، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو مالك يوم الدين، وهو ملك الناس، والله ﷻ هو الذي يقلب أمور

الخلق ويصرف أحوالهم ويقضي فيهم بما يقضي بموجب مشيئته وحكمته ﷻ، وهذا من مقامات ربوبيته، ولا يشاركه فيه غيره.

ولذلك من نازع الله في شيئًا من هذا المقام فقد نازع الله في ربوبيته، فالله هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف في عباده: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[الرحمن:٢٩]، كما أخبر عن نفسه.

ذكر البخاري حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ في قبض الأرض يوم القيامة: «**يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ** »، هذا لا نكيفه، هذا خبرًا عن رسول الله ﷺ نؤمن به ونصدق، ولا ندخل التكييف في هذا، لأن أفعال الله لا يصح لأحدٍ أن يكيفها فالكيف مجهول، إنما هذا خبرًا نؤمن به ونصدق لمجيئه عن النبي ﷺ.

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]، ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٨٠]، ﴿ وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾ [المنافقون: ٨]، وَمَنْ حَلَفَ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ.

وَقَالَ أَنَسٌ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَقُولُ جَهَنَّمُ: قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ»، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الجَنَّةَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، لاَ وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: لَكَ ذَلِكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ» وَقَالَ أَيُّوبُ: «وَعِزَّتِكَ لاَ غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف:"بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾":

هذه صفات الله وأفعال الله ﷻ وما يليق به، ومن أسمائه العزيز، قال الإمام البخاري:

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨].

والعزة المطلقة هي لله ﷻ وكذلك الكبرياء كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري، فمن نازع الله في ذلك عذبه الله، كما في آخر الحديث في الصحيح، قال: «**فمن ينازعني عذبته**»، ثم ذكر هذه الآثار المعلقة، قال: وقال أنس قال النبي ﷺ: «**تَقُولُ جَهَنَّمُ: قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ**»، فهذه عزة الله، وهذه أحوالًا تكون لهذه المخلوقات التي خلقها الله.

هو مثله ما جاء في قول أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**يَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الجَنَّةَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ**» هذا حديثٌ ثابت في الصحيح، قال يقول: «**يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ فإنه قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها**» لكن الإمام البخاري ذكره هنا معلقًا، ذكر منه هذا الوجه لبيان أن هذا الرجل قال: «**وعزتك**»، كما قال أيوب: «**وَعِزَّتِكَ لاَ غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ**».

ثم ذكر بعد ذلك حديث عبد الله بن عباس،. أن النبي ﷺ كان يقول: «**أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الَّذِي لاَ يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**»، هذا حديثًا متفق عليه وذلك في دعاء النبي ﷺ في صلاة الليل، في سياقٍ طويل، ومنه هذا الحرف الذي ذكره الإمام البخاري، وفي رواية في الصحيح: «**أعوذ بعزتك أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون**».

(المتن)

عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لاَ يَزَالُ يُلْقَى فِي النَّارِ» وقَالَ لِي خَلِيفَةُ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، وَعَنْ مُعْتَمِرٍ سَمِعْتُ أَبِي، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لاَ يَزَالُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ،

حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ العَالَمِينَ قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ تَقُولُ: قَدْ، قَدْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلاَ تَزَالُ الجَنَّةُ تَفْضُلُ، حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الجَنَّةِ».

(الشرح)

شرحُ حديث أنس: «لاَ يَزَالُ يُلْقَى فِي النَّارِ»:

هذا أيضًا من مقامات يوم القيامة وأن جهنم كما جاء في حديث أنس هنا، **«لا يزال يلقى فيها»** وهذا جاء في كتاب الله وأن الجنة يبقى فيها فضل فينشئ الله لها خلقًا وهذا من كرم الله على خلقه، وهو دليل على سعة الجنة، مع كثرة من يدخل النار (لا يزال يدخل فيها)، ولا يزال يلقى فيها، ولم يقل: لا يزال يبقى فيها، بل يلقى فيها لأنهم ركامًا في نار جهنم، ولهذا عبر أو جاء بالحديث هنا: **«لاَ يَزَالُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ»**، ولما ذكر الجنة قال: **«وَلاَ تَزَالُ الجَنَّةُ تَفْضُلُ»** أي يبقى فيها فضل لأنهم لا يكونون ركامًا فيها، بل هم درجات فيها.

بخلاف النار فإن أهلها دركات، وهذا فيه إثبات أفعال الله -سبحانه وتعالى- .

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ ﴾ [الأنعام:٧٣].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو مِنَ اللَّيْلِ: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، قَوْلُكَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لاَ إِلَهَ لِي غَيْرُكَ».

حَدَّثَنَا ثَابِتُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بِهَذَا، وَقَالَ: «أَنْتَ الحَقُّ وَقَوْلُكَ الحَقُّ».

(الشرح)

شرحُ حديث ابن عباس: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ..»:

هذا أيضًا حديث عبد الله بن عباس وهو كما سبق متفقٌ عليه، وكان النبي يقوله في دعاء الليل، وهو من الاستفتاح في الصلاة، ولكنه لم يأتي في الفريضة وإنما جاء في صلاة الليل، وهو من جوامع الأحاديث في توحيد الله، فإن فيه ذكرًا لربوبية الله ﷻ وفيه ذكرٌ لمقام قدر الله ولقاءه واليوم الآخر، وفيه ذكرٌ للساعة.

وفيه ذكرٌ للإسلام والإيمان: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ**»، وفيه تحقيق العبودية لله، فتضمن هذا الحديث جوامع مسائل التوحيد في ربوبية الله وأسمائه وصفاته وإخلاص الدين له.

(المتن)

بَابُ: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[النساء: ١٣٤].

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾[المجادلة: ١].

عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا»، ثُمَّ أَتَى عَلَيَّ وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَقَالَ لِي: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ، قُلْ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ،- أَوْ قَالَ أَلاَ أَدُلُّكَ بِهِ».

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي، قَالَ: «قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَغْفِرَةً إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: "بَابُ: {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}":

نعم الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمدٍ وآله وأصحابه أجمعين، قال الْإِمَام الْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: بَابُ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء: ١٣٤]، أي قول الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وهذا أراد به الْإِمَام الْبُخَارِيُّ بيان ما هو من أسماء الله وصفاته، وهذا من فقهه في تراجمه -رَحِمَهُ اللَّهُ- أنه يورد هذه الآيات الدالة على أسماء الرب -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وصفاته، وأن هذه الآيات التي وردت في كتاب الله وما جاء في السنة عن النبي ﷺ، فإنه بيانٌ وتحقيقٌ لهذا المعنى في الْقُرْآنَ فهو من التحقيق.

وسبق معنا أن توارد الأدلة من جهة سياقها يكون مانعًا من فرض المجاز عليها، وإن كان المجاز يناقش من أصل في هذا المحل مما هو في باب الأسماء والصفات؛ ولكن توارد السياق يدل على ذلك.

ولذلكم استدل الْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- بهذه الآية على هذا المعنى، وذكر بعد ذلك ما هو على مفصل الفعل، وأن قول الله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء: ١٣٤]، هذا له حقيقةٌ من حيث الصفة.

فأورد من الْقُرْآنَ ما يناسب هذه الحقيقة في تحقيقها، وهي قول -اللَّهُ تَعَالَى-: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[المجادلة: ١]، إذًا هذا أمرٌ معينٌ وقع.

مثل ما جاء في قول الله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[الأعراف:١٤٣]، قال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي﴾[المجادلة: ١]، إذًا هي صفةٌ من صفات الله تليق به، وليس هذا مما يكون على سبيل المجاز أو ما إلى ذلك.

ومثله لما أورد حديثْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقَالَ: «**أَرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ**»، أي ترفقوا على أنفسكم: «**فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا**».

ولذلكم لا يَنْبَغِي المبالغة في رفع الصوت عند سؤال الله- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وإنما يقتصد في ذلك حسب ما ورد في السنة، فإن إظهار ما هو من الصوت في الدعاء والإسماع أو ما إلى ذلك، هذا له أصله في الشريعة كما نعرف.

إنما الذي بين النبي لأصحابه تركه هو ما يتعلق بالزيادة على ذلك قال: «**فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا**»، فبيّن النبي لأصحابه حقيقة هذه الصفة، وأن صفات الله حقٌّ على حقيقتها لا ندخل في كيفيّها؛ لكن معناها حقٌّ على حقيقته، كما قال الْإِمَام مالك: "**الاستواء معلومٌ والكيف مجهول**".

النتيجة: أنك إذا تأملت ماذكره الْبُخَارِيُّ من الباب: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾[النساء: ١٣٤]، وهذا الإطلاق هذا الحكم المطلق العام، ثم ذكر آيةً فيها حكمٌ مقيدٌ خاص، وهو قصة المرأة: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ**﴾[المجادلة: ١].

ثم بيان تحقيق هذه الصفة في نفوس المخاطبين من الصَّحَابَةِ بحديث أبي موسى، فهذا يبين أن الصفات وردت عند هؤلاء الأئمة على هذا المعتبر، أنها حقٌّ ويراد بها ما دلت عليه من المعنى، ولا يوجب ذلك الدخول في الكيفية.

ثم ذكر بعد حديث أبي بكر أنه قال للنبي ﷺ: "**يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي؟**"، قَالَ: «**قُلِ**»، أبو بكر ﷺ هو خير الأمة وأفضل الصَّحَابَةِ كما نعلم.

وهو الصدّيق الذي جاء له من الفضائل ما لم تكن لغيره، ومن أخص فضائله أنه صاحب رسول الله في الغار، وامتُدح أمره في الكتاب صريحًا، وقال للنبي: "**عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي؟**"، وهو يعلم أعني أبا بكر كثيرًا من الدعاء.

لكن أراد أن يبين له النبي ما هو من خاص الدعاء وجوامعه، فأرشده - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إلى هذا قال: «**قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا**»، وفي روايةٍ في الصَّحِيْحَ: «**كبيرًا**».

«وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَغْفِرَةً إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»، من حيث الباب الحديث في إثبات أن الله هو الغفور وأن الله هو الرحيم، وهذه من أسماء الله -جل وعلا-، أن من أسماء الرب -جل وعلا- الغفور والرحيم من أسماء الله الغفور إنك أنت الغفور الرحيم.

ومن حيث المعاني في العبادة والتوحيد والإيمان، فإن الحديث فيه إقرارٌ من العبد بظلمه لنفسه، فمع كون السائل أبا بكر إلا أن الدعاء الذي علمه إياه ابتداءه: **"اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي"**.

لما يقول المُسْلِمِ في دعاء الله: **"اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثيرًا"**، وفي رواية: **"كبيرًا"** هذا يَعْنِي الإقرار، لأن دائمًا التوبة أول مقامات التوبة الرجوع والإقرار، ولهذا الفقهاء يقولون ما سماه بعضهم شروط التوبة: **"الإقرار بالذنب"**، الإقرار والرجوع لابد أن يقر بالذنب.

كيف يكون هذا الإقرار؟ بقوله: **"اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثيرًا"**، فإذا أقر العبد بذنبه وطلب من ربه المغفرة ف: ﴿**إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[الأعراف:٥٦].

ولذلك كان النبي يلتمس مغفرة الله بكثرة قوله: **"استغفر الله"**، حتى إنه يستغفر في المجلس الواحد كما في حديث أنس والمغر المُزني مائة مرة أو سبعين مرة، كثرة الاستغفار والتوبة إلى الله، لأن هذه من العبادات الميسرة.

ولا يَنْبَغِي للإنسان أن يقول: أنا- إن شاء الله- عازم وهذه أرتب وقتي على التوبة، لا التوبة يجب أن الإنسان في اليوم الواحد يتوب إلى الله عدة مرات، فالنبي ﷺ يقول: **«فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة»**.

بعض الناس يقول: والله لا أنا عندي الآن وقرأت الْقُرْآنَ في هذا الشهر، ولا صمت رمضان وإلا كذا وفعلًا وصار أو صار موقف أو مصيبة لقريب أو صديق، فيقول: أنا الآن بدأت أفكر أني بشكل جاد ولله الحمد أني أتوب.

لا التوبة ما تبغي تفكير بشكل جاد إنك تتوب، دائمًا المسلم ما في أحد يحتاج يتوب وأحد ما يحتاج يتوب، كل أحد من الْمُسْلِمِينَ كبير أو صغير عالم أو عامي، مقصر. بذنوب معينة أو مقصر بوجهٍ أخر، كل بني آدم كما قال النبي ﷺ: **«كل بني آدم خطاء»**، صفة مبالغة: **«وخير الخطاءين التوابون»**.

الآن نلاحظ أن الحديث فيه صيغ مبالغة: **«كل بني آدم خطاء»**، ما قال: بعض بني آدم أو من بني آدم: **«كل بني آدم خطاء»**، ما قال: يخطئون، قال: خطاء ما معنى خطاء؟ كثير الخطأ، الخطأ صيغة مبالغة له.

مثل لما تقول: شخص كذب لكن لما تقول: شخص كذاب، يَعْنِي كثير الكذب حتى صار وصفٌ ملازمٍ له: **«كل بني آدم خطاء وخير الخطاءين التوابون»**، ما قال: من يتوب قال: التوابون كثير التوبة.

ولذلك إذا نظر الإنسان الْمُسْلِمِ إلى التوبة بعقله، وجد أنها نعمة من الله على الخلق، مثل ما أنعم الله على الخلق الصحة والعافية والأكل والشرب، أعظم منها أن الله أنعم عليهم بشعيرة من شعائر الدين اسمها التوبة.

بمعنى أن الله -جل وعلا- ما أغلق الباب على العباد، ولو تاب الإنسان من الذنب بعض الناس يقول: لا أنا ما أني أضحك على نفسي أتوب ثم بعدين أرجع لا، هذا كله ليس ضحك على النفس لكن هذا ضحك الشيطان عليك بهذا الكلام.

لأننا لما نقول: هذه شعيرة صارت شعيرة مثل الصلاة أليس كذلك؟ طيب الصلاة هل لأحدٍ أن يقول: والله أنا أفكر كيف أصلي؟ وإلا الصلاة مبنية على منهج علمي وشرعي، فكذلك التوبة مبنية على منهج علمي، ما معنى هذا الكلام؟.

معناه أن الْعُلَمَاءَ قاطبة باتفاق أئمة السنة يقولون: **"من تاب من الذنب ثم رجع إليه"**، تاب من قلبٍ صادق استغفر الله من هذا الذنب ثم عاد إليه، توبته الأولى توبة كاذبة ولا صحيحة؟ صحيحة هذا كلام أئمة السنة والفقهاء قاطبة أن توبته صحيحة.

لكن لما رجع إلى الذنب أو إلى ذنبٍ أخر يبقى مطالبًا بماذا؟ بتوبةٍ أخرى وهكذا، قد يقول قائل طيب: إلى متى؟ إلى أن تنفك من الذنب أو تلقى الله تائبًا، لكن كون الإنسان يقول: أنا لن أتوب إلا إذا أنا صادق في التوبة، ما معنى صادق في التوبة؟.

الصدق ليس معناه استحالة العودة إلى المعصية، الصدق أن تكون عند توبتك صادق، لأنه قد يقول قائل: الصدق صعب لا ما هو صعب، لما الإنسان يقول في سجوده لا يسمعه إلا الله: اللّٰهم إني تبت إليك، هل هذا توبته صادقة ولا فيها شك؟.

هذا لاشك أن توبته صادقة ؛ لأنه قالها وهو ساجد لله مخلص لله لا يسمعه إلا الله؛ لكن معناها في نفسه كل ما تكون العزيمة في نفسك على أن لا تعود إلى الذنب أقوى فإن هذا يكون من محققات التوبة.

فالتوبة إذًا هي من العبادات والشعائر الميسرة، ولذلك نلاحظ في شريعة الْإِسْلَامَ التوبة ليس لها مكان معين، حتى الكعبة التي شرفها الله ما شرع الله أن العباد ينصبون توبتهم تحت جدرانها أليس كذلك؟.

من يتوب في المسجد فمكانه صحيح، ومن يتوب وهو في سيارته فمكانه صحيح، ما في مكان مخصص يقصد إلى أن تقول: هذا المكان لإعلان التوبة، وأَيْضًا من رحمة الله بعباده وكمال الدين لكونه دين الْإِسْلَامَ عبادة لله ليس عبادة للبشر أن التوبة لا تعلنها للناس.

ما تحتاج إلى أن تذهب إلى عالم أو إلى ولي أو إلى شيخ أو إلى شخصٍ ما، وتقول له: أنا والله أتيت أتوب وأريدك يَعْنِي تستمع إلى توبتي وإلا تلقنّي التوبة (صح ولا لا؟) هذا ليس في دين الْإِسْلَامَ هذا في الأديان المحرفة.

التوبة عند الأحبار أو عند الرهبان أو ما إلى ذلك هذا في الأديان المحرفة، في دين الْإِسْلَامَ بل لا يجوز شرعًا أن تذهب إلى شخص وتقول له: أريد أن أتوب عندك هذا من الضلال.

فإذًا التوبة ترى عبادة ميسرة لأن الإنسان ما الذي ينجيه من هذه الآثام والأخطاء التي يقع فيها؟ تنجيه أمور من أعظمها التوبة؛ لكن التوبة لاشك أنها تكون صادقة، كما قال الله: ﴿ **تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا** ﴾[التحريم:٨].

لكن الشيطان ليُغلق باب التوبة يأتي الإنسان من أبواب، ليغلق عليه باب التوبة يأتيه بطرق إن وجد أنه إنسان ما هو ذاك العازم على التوبة أَصلًا، قال له: انتظر فيما بعد ولا تزال شابًا ولا تزال صغيرًا والتوبة إذا كبر الإنسان إلى أخره.

وإن وجد في نفس هذا الشخص إقبالًا على التوبة ورغبةً في التوبة، قال له: التوبة شروطها صعبة وأنت لم تجتمع فيك هذه الشروط فلا تضحك على نفسك، ولذلك بعض الناس تقول له: تب يا أخي، يقول: أنا ما أضحك على نفسي.أنا ما أستطيع، هذا هو الخطأ الأكبر.

بل يَنْبَغِي للمسلم أنه دائمًا يقول: **"استغفر الله من كل ذنب ما علمت وما لم أعلم"**، ولذلك أبو بكر الصديق قال له النبي ﷺ: **«قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»**، لا يغفر ذنوب الناس إنما يغفرها الله وحده.

«فَاغْفِرْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَغْفِرَةً إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»، فإذا سألت الله فاسأله بأسمائه الموجبة لمغفرته ورحمته، فالتوبة يجب أن تكون دائمة في قلب الإنسان، وخير الخطاءين انظر من تحبيب الشريعة للمسلم بالتوبة هل المخطئ فيه خير في الأصل؟.

الخطأ خلاف الخير أليس كذلك؟ لكن هنا يقول: وخير الخطاءين لأن الخطأ من طبيعة بني آدم قال: **«وخير الخطائين التوابون»**، فالتوبة شعيرةٌ في القلب وتقال باللسان يتقرب بها إلى الله –جل وعلا–، ويمحوا الله بهذا الذنوب ويقرّب بها العبد إلى الله.

ولهذا لما ذكر الله صفة الْمُؤْمِنِينَ في سورة التوبة سميت السورة باسم هذا المعنى الشرعي سورة التوبة، أول صفات الْمُؤْمِنِينَ في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾[التوبة:١١١]، أول الصفات التي ذُكرت فيهم قال: ﴿التَّائِبُونَ﴾[التوبة:١١٢].

وهي دليل على صدق الإنسان، ولهذا قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التوبة:١١٩]، الذين تابوا فالتوبة بابها مفتوح إلى أن تطلع الشمس من مغربها.

لكن التقصير مع الأسف فينا، التقصير في الإنسان أن الله جعل له بابًا مفتوحًا؛ ومع ذلك إذا قيل له: تب إما أن يقول: بعدين أو يقول: وش أنا سويت؟ ماذا فعلت حتى أتوب؟ لماذا تقول لي تب أو تنصحني بالتوبة؟.

لا النبي يقولك: **«كل بني آدم خطاء»**، الخطيئة تقع في أفعالنا وتصرفاتنا وخواطرنا، فنلازم كثرة التوبة والاستغفار، لأن هذا من تحقيق العبودية لله وحده لا شريك له.

(المتن)

عن عائشة، قال النبيﷺ: «إن جبريل نادى قال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك».

(الشرح)

شرحُ حديث عائشة: «إن جبريل نادى قال: إن الله قد سمع..»:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وآله وأصحابه أجمعين، أورد الإمام البخاري - رَحِمَهُ اللَّهُ - هذا الحديث عند قوله باب: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء:١٣٤].

ذكر الإمام البخاري حديث عائشة وهو حديثٌ متفقٌ عليه، قال: قال النبي ﷺ: **«إن جبريل -عليه السلام- ناداني»**، وهذا حديث عروة عن عائشة، أن عائشة حدثته أن النبي ﷺ قال: **«إن جبريل -عليه السلام- ناداني، وقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا**

عليك»، هذا جاء في السياق، وفي هذا السياق أن الله –سبحانه وتعالى- بعث جبريل إلى النبي ﷺ وقال: «**إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، فمرني بما شئت فيهم، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا**».

الشاهد في هذا أن الله ﷻ سمع قول قومه، والله ﷻ هو السميع البصير، فهذا في إثبات صفات الرب –سبحانه وتعالى-، قال: «**إن الله قد سمع قول قومك**»، فهو –سبحانه وتعالى- محيطًا بكل شيء، سميعٌ بصير، فهذا من إثبات صفات الله ﷻ وهو داخلًا في قول الله: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾[النساء:١٣٤].

(المتن)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ [الأنعام: ٦٥]

عن جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ السَّلَمِيِّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ هَذَا الأَمْرَ – ثُمَّ تُسَمِّيهِ بِعَيْنِهِ – خَيْرًا لِي فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ – قَالَ: أَوْ فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي – فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي – أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ – فَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ».

(الشرح)

شرح حديث جابر بن عبد الله: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا»:

هذا حديث جابر بن عبد الله ﷺ بوب عليه البخاري بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ثم ذكر حديث جابر في الاستخارة، وتضمن هذا الحديث الذي ذكره المصنف جملًا في توحيد الله-سبحانه وتعالى- وفيه قال النبي ﷺ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ»**، ففيه إثبات صفة العلم لله، وأن الله بكل شيء عليم.

«وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ» أن الله هو القادر وأنه على كل شيء قدير.

«وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ»، فهذا فيه بيان إحاطة الله-سبحانه وتعالى- بالأشياء وأنه بكل شيء عليم لا يخفى عليه ﷻ شيء في الأرض ولا في السماء.

فهذا الحديث في مقامات توحيد الله بعلمه وأنه وحده لا شريك له بكل شيء عليم، وبقدرته وأنه وحده لا شريك له على كل شيء قدير، وهو علاّم الغيوب وحده لا شريك له، فهذه ثلاث مقامات من التوحيد، العلم، والقدرة، والعلم بالغيب على الاختصاص في الغيب لا يعلمه إلا الله، وما عدا الغيب أيضًا لا يحيط به إلا الله.

ولذلك اختصاص الرب ﷻ بهذا المعنى أن الله ﷻ لا يحيط بما فيه الغيب إلا الله، فالله -سبحانه وتعالى- يعلم الغيب، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور مما هو خارج عن الحسيات، ويعلم ما كان وما سيكون وهذا هو الغيب الآتي في غيب الله-سبحانه وتعالى-، فهذا داخلٌ في دلالة الغيب.

وأيضًا حتى في الأمور الممكنة فإنه لا يحيط بها أحد إلا الله -سبحانه وتعالى-، فالخلق قاصرون عن الإحاطة في المُمكنات، وفي ما هو أبعد منها من عالم الغيب ومستقبل الأحوال وتصرّف الأحوال من بابٍ أولى، فالله ﷻ هو المحيط وحده، ولهذا قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾[البقرة:٢٥٥]، فهذا في مقامات التوحيد

الذي تضمنها هذا الحديث وتضمن مقام العبودية، توحيد العبادة بالدعاء، وقوله:«**فاصرفه عني**»، وقوله: «**واقدره لي**» إلى آخره.

وأما من جهة هذه الشعيرة التي تسمى صلاة الاستخارة عند الفقهاء فهي شعيرة شرعها النبي ﷺ من باب تحقيق التوحيد ليبين للعبد فقره، وليبين للعبد استعانته بالله وضرورته إلى ذلك، ويحقق مقام العبودية والاستعانة لله ﷻ، وهذا يدلك أيضًا على أن المصالح العبادية التي هي للعباد لا تقاس بالأسباب الممكنة وحدها، فإن الأسباب الممكنة قد لا يتأتّى عليها المسبب؛ لأن المُسبَّب متصلٌ بما هو فوقها، فالأسباب هنا أسباب قاصرة.

ولمّا كانت قاصرةً شُرعت هذه هداية وسدادًا للعباد فهي تحقيقًا للعبودية والاستسلام لله، وهي فضلًا من الله هذه الشعيرة حتى يقع بفضل هذا الدعاء الذي ترجى إجابته من الله ﷻ السداد للعبد في أمره، فهو دليلٌ يعني هذه الشعيرة وصلاة الاستخارة دليل على قصور السبب، والأسباب في هذا المورد، وأن الأسباب هنا إنما تسمى أسبابًا بمعنى الجزء من السبب وليس بمعنى السبب الكلي، فهي أسبابٌ قاصرة.

والمُسبَّب المقصود للعبد لا يستطيع هذا السبب الإحاطة به، إما لكونه أحيانًا يتعالى عن السببيّة، وإما لكونه متصلًا بسببٍ يكون السبب المُدرَك للعبد، قاصرًا عن كماله، ولهذا شرعت.

ففي هذا الحديث فقه الأسماء والصفات في العلم والقدرة، وفي هذا الحديث فقه مقام القدر وبيان حقيقة الأسباب في الشريعة، هذا المعنى الثاني الذي تضمنه هذا الحديث، وتضمن أيضًا فقه العبودية لله والاستسلام لله وحده، وتحقيق الاستعانة به، وتحقيق الدعاء بعبادة الله بهذه الصلاة، التي أقيمت لهذا السبب الشرعي .

فجمع حديث الاستخارة هذه المقامات من مقامات التوحيد في أسماء الرب وصفاته، وفي ربوبيته وعلمه بالغيب وحده لا شريك له، وتقليبه الأمور كيف يشاء، وفي عبودية الله، وفي قدر الله، وحقيقة الأسباب كل ذلك في مقام فقه هذا التوحيد، فحديث الاستخارة من

جوامع الأحاديث لتحقيق فقه التوحيد في ربوبية الله، في أسماء الله وصفاته، في قدره بيان وحقيقة الأسباب إلى غير ذلك.

وأما من حيث الصفة الفقهية لحديث الاستخارة فهي كما قال النبي ﷺ: **«فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ»**، فإذًا هي صلاة مشروعة باختصاصها في غير الفريضة.

وإن كان هذا الدعاء المذكور في حديث جابر لو دعا به في غير هذه الصلاة فهو دعاءٌ مشروع لكنها لا تقع على الغرض الشرعي الذي تسمى به صلاة الاستخارة إلا بهذه الرتبة، أما إذا دعا بالدعاء فهو دعاءً يرجى إجابته، لكن لا يتحقق إقامة الشعيرة إلا بفعل الصفة نفسها، وهي أن يصلي ركعتين من غير الفريضة، وقوله:**«ثم ليقل»**، قوله: **«فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ»**، إذًا هي نافلة هل تفعل وقت النهي أو لا تفعل؟ فإنك تعلم أن الوقت في الجملة إما أن يكون وقت صلاة، وإما أن يكون وقت نهي، وبين الفقهاء اختلاف في قدر أوقات النهي، هذا محله محلًا آخر من البحث ليس في هذا المقام.

لكن كجملة من حيث النتيجة الفقهية، هل تُفعل في غير وقت الصلاة، بمعنى هل تفعل في أوقات النهي؟ هذان قولان للفقهاء والراجح الذي عليه الجمهور أنها لا تفعل في وقت النهي إلا إذا تضايق الحال، فإذا تضايق الحال فهذا فيه سعة إن شاء الله.

والمقصود بتضايق الحال ماذا؟ يعني لو كان عنده أمر باقي فتذكر العصر، فهل يقوم يصلي بعد العصر؟ أو يقال: ما دام أن الأمر فيه سعة ينتظر إلى بعد المغرب، إلى غروب الشمس، أيهما؟ الثاني، لكن لو أنه تضايق الحال عنده كأن يكون أراد سفرًا لابد أن يحسم أمره في هذا العصر، أي : بعد صلاة العصر طرأ له ما يستدعي السفر، بعد صلاة العصر فهو في وقت النهي، فهل يفعله أو لا يفعله؟.

لو أخّر الاستخارة إلى غروب الشمس فيصلي بعد غروبها فاته الأمر، فإذا تضايق الحال فعل الاستخارة ولو في وقت النهي، أما إذا لم يتضايق الحال فلا يفعلها، بل يجعلها في غير وقت النهي، لأن هذا هو الأصل، على الراجح هو مذهب الجمهور والفقهاء، لكن

استثنى الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ بعض الصلوات من وقت النهي، ومذهب الإمام أحمد هو أوسط المذاهب في ذلك.

وأعدل المذاهب في مسألة الصلاة في أوقات النهي، فاستثنى مثلًا صلاة ركعتي الطواف وله في غيرها في بعض الصلوات كلام، لكن ما عدا ذلك ينزل عن هذه الرتبة، كالنفل المطلق أو بعض ما يسمى له سببًا عند طائفة من الفقهاء كالشافعي، ولكنه دون هذا المقتضي، كصلاة تحية المسجد، فإن فيها خلافٌ بين الفقهاء.

الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يرى صلاة تحية المسجد وقت النهي، والذي عليه الجمهور أن تحية المسجد لا تصلى وقت النهي، وهذا الأرجح، فهذا من حيث الفعل.

الوجه الثالث، أو الفقه الثالث في الحديث: إذًا هي ركعتان من غير الفريضة لا تقوم الشعيرة إلا بها، ولو دعا صح، ويكون من جملة الدعاء.

الفقه الثاني: أن هذه هل تفعل وقت النهي أم لا؟ هذا انتهى النظر فيه مجملًا.

النظر الثالث من حيث الجانب الفقهي: وهو هل يقع الدعاء بعد السلام أم قبل السلام، وبالاتفاق أن الدعاء محله في آخر الصلاة، لكن هل يفعله قبل أن يسلم أو بعد أن يسلم؟.

النبي ﷺ بين أن العبد إذا احتاج إلى عملٍ ليعمله قد تردد فيه: «**إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين**»، هل إذا ركع ركعتين، ودعا بهذا الدعاء يدعو قبل السلام أو بعده، عقب السلام أو قبله بعد فراغه من التشهد؟.

قولان للفقهاء:

يعضد القول بأنه قبل السلام أن هذا أحرى بحسب أدلة الشريعة، فإنه جاء في حديث عبد الله بن مسعود لما علّم النبي ﷺ الصلاة، وعلمهم التشهد ، قال: «**ثم ليتخير من المسألة ما شاء**»، فهذا محلًا للدعاء بالأصل، وهو ما يكون بعد التشهد وقبل السلام، فيكون هذا أرجح من هذا الوجه.

ولكن إذا نظرنا إلى ظاهر الرواية في البخاري وغيره، فإن في بعض حروفها، كالحرف الذي أخرجه البخاري في هذا الموضع، قوله: «**فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ ثم ليقل**»، فكأنه من حيث ظاهر اللفظ أن هذا الدعاء يكون عَقِب الفراغ من صلاة الركعتين، فهذا محتمل بظاهر بعض حروف الرواية، وذاك محتملٌ باقتضاء الأصل، فهما قولان للفقهاء وكلاهما قولًا وجيه .

(المتن)

بَابُ مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾[الأنعام:١١٠].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْلِفُ: «لاَ وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ».

(الشرح)

شرحُ حديث عبد الله بن عمر: «لاَ وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ»:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، قال الإمام البخاري – رَحِمَهُ اللَّهُ –: بَابُ مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ** ﴾.

ثم ذكر حديث عبد الله بن عمر قال: أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْلِفُ : « لاَ وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ».

فهذا ذكره الإمام البخاري في كتاب التوحيد، وفيه أن من مقامات توحيد الله – سبحانه وتعالى– أن الله ﷻ هو مقلب القلوب، وهو مقلب الأبصار، وهو مقلب الليل والنهار، وهذا من ربوبية الله ﷻ ومقامات الإيمان به، ومقامات معرفته، ولهذا كان النبي ﷺ يدعو ويكون في قسمه وفي يمينه ﷺ: «**لا ومقلب القلوب**» باعتبار أن هذا من محض حق الله ﷻ فهو الذي بيده هذا الأمر.

ولهذا جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال والحديث في الصحيح: « **إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»، وكان في

دعاء النبي ﷺ كما في الصحيحين أيضًا: **«اللَّهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»**، فهذا من مقامات ربوبية الله أنه مقلب القلوب، فهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

يهدي من يشاء فضلًا منه ورحمة، ويضل من يشاء عدلًا وحكمة، ولا يضل الله ﷻ إلا الظالم بخلاف المهتدي، فإن الله يتفضل عليه بالهداية، وهو آخذًا بأسبابها تارة، أو يكون فضلًا لدنيًا من الله -سبحانه وتعالى- لعبده، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا** ﴾[الأنعام:١٢٥]، فالله هو الهادي، والله ﷻ لا يظلم أحدًا، فإن الذي ضل هو العبد، وإن كان بإرادة الله ﷻ لكن إنما ضل بإرادة الله ﷻ وهو ظالمٌ لنفسه.

ولهذا إذا جمعت إلى هذه الآية وهي قول الله ﷻ: ﴿ **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾ تجد أن تمام الآية: ﴿ **كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾[الأنعام:١٢٥].

وفي قول الله تعالى: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾[إبراهيم:٢٧]، ففي الآية بيان أن من ضل فبظلمه لنفسه والفعل بإرادة الله وقدره فهو مقلب القلوب، ولهذا طبع الله ﷻ على قلوب المنافقين، وختم على أسماعهم وأبصارهم، ختم الله على سمعهم، وختم على بصرهم، وختم على قلوبهم، وطبع على قلوبهم بما خادعوا الله وبما أخلفوا الله، وبما كادوا لنبي الله ﷺ.

ولهذا قال الله ﷻ في عقوبة المنافقين: ﴿ **فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾[التوبة:٧٧]، فبخُلِفهم ما وعدوه ربهم وبكذبهم على النبي ﷺ عاقبهم الله عقوبة تناسب حال المنافقين، فإن سنة الله ماضية في عقوبة هذه

الأمم، فعقوبة المنافقين لم تكن كالعقوبة التي عوقب بها قوم نوح، بالطوفان أو قوم عاد بالريح الصرصر، أو قوم صالح بالصيحة .

وإنما عوقبوا بعقوبة وهي قول الله: ﴿ **فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾[التوبة:٧٧].

(المتن)

بُاب إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ اسْمٍ إِلاَّ وَاحِدًا:

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ذُو الْجَلاَلِ الْعَظَمَةِ، الْبَرُّ اللَّطِيفُ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلاَّ وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». أَحْصَيْنَاهُ حَفِظْنَاهُ.

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: "بُاب إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ اسْمٍ إِلاَّ وَاحِدًا":

قال البخاري –رحمه الله–: بُاب إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ اسْمٍ إِلاَّ وَاحِدًا:

ثم ذكر حديث أبي هريرة ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلاَّ وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**».

وفسر الإحصاء هنا بالحفظ، وهو يتضمن الحفظ لألفاظها أي الحفظ لهذه الأسماء حتى يأمر العبد لسانه بذكر الله بها، ودعاءه بها، كما قال الله ﷻ: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[الأعراف:١٨٠].

والحفظ لمعانيها من جهة تعظيمها والعمل بمقتضاها، وفضل الله ﷻ في هذا الثواب: «**من أحصاها دخل الجنة**» فضل الله واسع، فحينما يقال: إن المعنى في قوله: «**من أحصاها**» يتضمن هذا وهذا، فإن مسألة الثواب تقع على ما يقتضيه فضل الله ﷻ وتقتضيه رحمته، والله سبحانه وتعالى واسع الفضل.

فلا يتكلف في كثرة الشروط على هذا الفضل، لأن هذا أمرًا بين العبد وبين ربه، والعمل في الحديث على ظاهره، ولكن من حيث القواعد الشرعية فإن المعرفة بها ووعيها، والذكر بها باللسان ودعاء الله سبحانه وتعالى بها، وقيامها في القلب والخشوع لله ﷻ عند ذكرها، كل هذه المعاني والعمل بمقتضاها هي من المعاني المشروعة، وهي داخلة في قول الله ﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾[الأعراف:١٨٠].

و(أثبت الأئمة والصحابة) أثبت الصحابة رضي الله تعالى عنهم- وأئمة السنة أسماء الله ﷻ كما وردت في كتاب الله، وكما جاءت عن نبي الله ﷺ.

والأسماء، أعني أسماء الله ﷻ توقيفية بمعنى لا يتجاوز فيها القرآن والحديث، يسمى الله ﷻ بأسمائه كما سمى نفسه في كتابه، وبما سماه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث، ومن أسماء الله الرحمن، الرحيم، ومن أسمائه السميع والبصير والعزيز والحكيم، والملك، والقدوس، والحي والقيوم، إلى آخره، وهي متواترة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وباب الأسماء أخص من باب الخبر كما ذكر الأئمة -رحمهم الله-، وخالف في ذلك طوائف من غلاة المتكلمين الذين لم يحققوا باب الأسماء، وخالف في ذلك بعض المتكلمين الذين أطلقوا إثبات الأسماء، لكن قصروها على عددٍ قاصر ناقص عن العدد الشرعي الوارد في الكتاب والسنة.

أو طريقة ثالثة لمقتصدة المتكلمين الذين لم يعملوا بكثيرٍ من السنة في ذلك بحجة أنها من باب الآحاد، فهذه طرقٌ عرضت للطوائف من أهل النظر والكلام يُعلم مخالفتها لطريقة السلف الصالح-رضي الله تعالى عنهم-، فهذه من الطرق الكلامية المتروكة، وإن كان بعضها أبعد من بعض.

وأيضًا فإن بعض الطوائف من أرباب السلوك صار لهم طرقٌ مبتدعة في الدعاء بأسماء الله، وربما ذكروا في الأسماء ما ليس من الوارد في الكتاب ولا في السنة، فهذه أيضًا من الطرق المبتدعة، أو أخرج الاسم عن كونه مُعرَّفًا، الذي هو حق الله سبحانه وتعالى

فقطعوه إلى وجهًا من التجريد الذي يجعله مشتركًا ثم يقع الدعاء به، فلا يقع على الوجه الذي جاءت به الشريعة.

وإنما يدعى بالأسماء على ما وردت به في الشريعة، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ ما هو من التفسير للاسم، فإن الله ﷻ قال في كتابه: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[الحديد:٣]، فدعا النبي ﷺ بقوله: «**اللّٰهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**».

(المتن)

باب السؤال بأسماء الله والاستعاذة بها.

عن أبي هريرة عن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال: «إذا جاء أحدكم فراشه فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات، وليقل باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فأحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

تابعه يحي وبشر بن مفضل عن عبيد الله عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وزاد زهير وأبو ضمرة وإسماعيل بن زكريا عن عبيد الله عن سعيد عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

ورواه بن عجلان عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «إذا جاء أحدكم فراشه فلينفضه»:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وأصحابه أجمعين.

ذكر الإمام البخاري – رَحِمَهُ اللَّهُ – هذا الحديث في الدعاء بأسماء الله، وهذا كما سبق بيانه فيما أورد الإمام البخاري من الأبواب السابقة، هو على نفس المعنى الذي سبق ذكره، وهو على قول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[الأعراف:١٨٠] .

وجاءت الشريعة في ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ بدعاء الله بأسمائه وصفاته، فيدعى الله ﷻ بأسمائه الحسنى، وأسماء الله ﷻ هي التي وردت في كتاب الله، أو في سنة نبي الله ﷺ، وهذا الحديث الذي ذكر البخاري هو تفصيلًا لما سبق في قول النبي ﷺ: **«إن لله تسعًا وتسعين اسمًا مئة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة، من حفظها دخل الجنة»**.

(المتن)

عن حذيفة قال: كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «اللّٰهم باسمك أحيا وأموت، وإذا أصبح قال: الحمد لله الذي أحيانًا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

(الشرح)

شرحُ حديث حذيفة: «اللهم باسمك أحيا وأموت»:

فترى أن أدعية النبي ﷺ تضمنت الثناء على الله بأسمائه وصفاته، سواء كان ذلك في الأدعية المقيدة أو في الأدعية المطلقة، الأدعية المقيدة، كهذا المحل عند ما يأوي إلى فراشه كما سبق أو إذا كان من الليل أو إذا أصبح أو ما إلى ذلك، أو كان من الدعاء المطلق الذي يدعو به النبي ﷺ في عامة حاله.

(المتن)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «باسْمِكَ نَمُوتُ وَنَحْيَا، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي ذر: «باسْمِكَ نَمُوتُ وَنَحْيَا»:

هذا حديث أبي ذر أن النبي إذا أخذ مضجعه في نومه، قال: **«باسمك»**، أي باسم الله **«نموت ونحيا»**، وترى أن النبي ﷺ في هذه الأدعية التي تضمنت الثناء على الله بأسمائه وصفاته أيضًا ترى أن كل دعاءً منها فإنه يقع فيه مناسبة لمحله، فإنه عند النوم، والنوم وفاة صغرى تجد أن النبي ﷺ يذكر أن الله ﷻ بيده الحياة وبيده الموت.

والإنسان أجله عند ربه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[لقمان:٣٤]، فهذا من التوكل على الله والتفويض لله، وأن الإنسان في نومه يسلم أمره لله سبحانه وتعالى، ولهذا كان ﷺ يقول كما في هذا الحديث، حديث أبي ذر: «**باسمك**»، أي باسم الله «**نموت ونحيا**»، وإذا أصبح واستيقظ من نومه قال: « **الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا**» أي أن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي يتوفى الأنفس، الله ﷻ هو الذي بيده الآجال.

وشهود هذه الحقيقة من حقائق التسليم لرب العالمين -سبحانه وتعالى- بأنه وحده هو الذي بيده الآجال، وهذا مما يجعل العبد متعلقًا بالله، متوكلًا عليه مستعينًا به.

(المتن)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ فَقَالَ بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا. فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا».

(الشرح)

شرحُ حديث ابن عباس: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ»:

هذا حديث عبد الله بن عباس وهو من أدب الشريعة في جماع الرجل زوجته: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ**» أي أنه يشرع له إذا أراد أن يأتي أهله أن يقول: «**بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا**» وهذا من كمال الشريعة، لأنها أتمت الأحكام للعباد حتى فيما هو من خاصة أمرهم من هذه الأحوال الخاصة التي يؤتي فيها الرجل إلى زوجته، فإن الشريعة جعلت لها أدبًا.

وهذا الأدب له أثرٌ في الأحكام التي يقدرها الله -سبحانه وتعالى- فهو سببٌ شرعي لحفظ النفس المنفوثة إن قدِّر بينهما ولد، وهذا يبين أن أصل مادة الشر من الشياطين، فقال: «**اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا**».

وفيه أن اسم الله يدفع الشياطين، ولهذا إذا مس الإنسان طائفُ من الشيطان فإنه يستعيذ بالله ويسمي الله، والاستعاذة بالله، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾[المؤمنون:٩٧]، فالاستعاذة بالله من همزات الشياطين.

وكذلك التسمية كما في حديث سليمان بن صرد لما استبّ رجلان وتغاضبا، فقال النبي ﷺ: «**إني اعلم كلمة لو قالها هذا لذهب عنه ما يجد، بسم الله الرحمن الرحيم**»، ولهذا شرع في قراءة القرآن التعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وصارت سور القرآن مفتتحة ببسم الله الرحمن الرحيم.

وكل ذلك مما يدفع كيد الشيطان، وهذا من الذكر المشروع في هذا المحل، وإذا قام سببه، بمعنى أن الإنسان إذا خشي من أثرٍ من الشياطين يقول: باسم الله، ويقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

(المتن)

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ أُرْسِلُ كِلابِي الْمُعَلَّمَةَ. قَالَ :«إِذَا أَرْسَلْتَ كِلابَكَ الْمُعَلَّمَةَ».

(الشرح)

قف على هذا ففيه أحكامٌ من أحكام الصيد تأتي إن شاء الله وبالله التوفيق.

(المتن)

٢٣- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ وَقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لأَخِيهِ اعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ، يُقَالُ ذِي الْمَعَارِجِ الْمَلَائِكَةُ تَعْرُجُ إِلَى اللَّهِ.

٧٥١٩ .عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .رضى الله عنه .أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الْعَصْرِ وَصَلاَةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهْوَ أَعْلَمُ بِكُمْ فَيَقُولُ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

٧٥٢٠- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إِلاَّ الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ». وَرَوَاهُ وَرْقَاءُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «وَلاَ يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إِلاَّ الطَّيِّبُ».

٧٥٢١- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَدْعُو بِهِنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ».

٧٥٢٢- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: بُعِثَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِذُهَيْبَةٍ فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةٍ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَعَثَ عَلِيٌّ وَهْوَ بِالْيَمَنِ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِذُهَيْبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا، فَقَسَمَهَا بَيْنَ الأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِي مُجَاشِعٍ، وَبَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الْفَزَارِيِّ، وَبَيْنَ عَلْقَمَةَ بْنِ عُلاَثَةَ الْعَامِرِيِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلاَبٍ، وَبَيْنَ زَيْدِ الْخَيْلِ الطَّائِيِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ، فَتَغَيَّظَتْ قُرَيْشٌ وَالأَنْصَارُ فَقَالُوا: يُعْطِيهِ صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا قَالَ: «إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ». فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، نَاتِئُ الْجَبِينِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ، اتَّقِ اللَّهَ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «فَمَنْ يُطِيعُ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُهُ فَيَأْمَنِّي عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَلاَ تَأْمَنُونِي». فَسَأَلَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ -قَتْلَهُ أُرَاهُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ- فَمَنَعَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ

هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ».

٧٥٢٣- عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قَالَ: «مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ وآله وأصحابه أجمعين، بوّب الإمام البخاري رحمه الله ضمن كتاب التوحيد، قال: "باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾"، ثم ساق في ذلك الأحاديث التي قُرئت.

هذا التبويب في كتاب التوحيد ساقه البخاري في تقرير جملة من حقائق الربوبية وصفات الله سبحانه وتعالى، وأفعاله، وبدأ في ذلك بقول الله جل وعلا: ﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، وَقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾.

وهذا الإخبار الذي أخبر الله به في كتابه؛ هو من أدلة علو الله جل وعلا، فإن أدلة علو الله متواترة في الكتاب والسنة، وعلو الله ثابتٌ بدليل السمع ودليل العقل.

أما ثبوته بدليل السمع؛ وهو القرآن والسنة، فإن هذا متواتر في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وهو متواترٌ فيهما من وجوه؛ باعتبار استفاضة ذكر ذلك في القرآن، وباعتبار تنوّع السياق في ذكر علو الله سبحانه وتعالى تنوعًا يجعل ما يدعيه البعض من التأويل في مسألة العلو، كما هي طريقة نفاة صفة العلو من الجهمية ومن سار على طريقتهم، أو تأثر بشيء منها، يجعل هذا التأويل ممتنعًا.

وهذا مما هو معلوم، فإن التأويل الذي ذُكر في آراء أولئك النظّار معارض من جهة الشريعة، ومعارض من جهة اللغة، ومعارض من جهة دليل العقل، وهذه المعارضات، من

هذه المقامات يطول ذكرها، ولكن يُشار إلى معنى؛ وهو أن التأويل مع تنوع السياق يُعتبر ممتنعًا، وإن كان يمتنع من وجوه أخرى، سواء باقتضاء اللغة، واقتضاء الشريعة، واقتضاء دليل العقل.

لكن المقصود أن دليل العلو لم يقع آية واحدة من القرآن، حتى يقال: إن هذه الآية تُتأول، مع أنه لو كان كذلك لم يقع التأويل، ولكن العلو وقع دليله في القرآن والسنة متنوعًا تنوعًا لغويًا في سياقه، يمتنع معه تقدير وفرض التأويل.

وهكذا في كثيرٍ من صفات الله جل وعلا، بل في عامة الصفات؛ أن في ثبوتها يكون تنوعًا في السياق من جهة الدلالة اللغوية، وهذا التنوع في السياق يجعل التأويل أظهر في الامتناع، فإن كان امتناعه باقتضاء أحدها متحققًا، أو بطلانه باعتبار أحدها متحققًا، لكن هذا التنوع يجعله أظهر في ذلك.

ومن ذلك قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، وهذا دليل على إثبات علو الله علوًّا يليق بجلال الله، ومثله الآية الأولى في تبويب البخاري: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، فإن العروج يكون إلى الأعلى، ومثله الآيات الأخرى في علو الله؛ كقول الله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١]، وقول الله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، كقول الله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقول الله: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]، وهكذا.

وليس في القرآن ما يُشكل على ذلك البتة، لماذا؟

لأن القرآن بريءٌ من الاختلاف في آحاد، ومفصّل التشريع، فكيف بأصوله! القرآن لا تأتي فيه شريعة هي فرعٌ من فروع التشريع تختلف في دليلها، أو في مقصدها، يقع فيه اختلاف؛ لأن الله برأ كتابه من ذلك؛ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء: ٨٢].

وأما ما يورده بعض المأولين في مثل قول الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، فهذا لا يقع إلا عن درجة من الجهل في اللغة، والشريعة، بل ودليل العقل، فإن الله جل وعلا لما أخبر بهذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ليس منافيًا لعلو الله، إنما هذا إخبار أن الله هو المعبود وحده لا شريك له، يعبده أهل السماء، ويعبده أهل الأرض، فهو معبودٌ في السماء، ومعبود في الأرض.

(أليس في كتاب الله،) أليس من المتقرر أن الملائكة عباد الله هم في السماوات التي خلقها الله، أليس كذلك؟ فيعبدون الله كما وصفهم الله بعبادته بالقرآن: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء: ٢٠]، والسماء التي بها الملائكة، ليس هو المقصود بالسماء إذا قيل: إن الله في السماء، كما في كتاب الله: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]، وليس المقصود عند أئمة السنة، والصحابة رضي الله عنهم، لما قالوا: بما جاء صريحاً في كتاب الله أن الله جل ذكره فوق سماوات مستو على العرش.

ليس المقصود أن الله في السماء بمعنى السماء المخلوقة، أن الله في السماء المخلوقة، فإن الله منزهٌ عن ذلك، كيف وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

السموات المخلوقة التي بها الملائكة، هذا مقام مختلف عن الذي هو صفة لله سبحانه وتعالى، فإن الله في العلو المطلق، وهو بائنٌ عن خلقه، عن السموات المبنية المخلوقة، وعن غيرها.

مسألة علو الله من المسائل التي استفاض فيها دليل السمع، ودليل الفطرة، ودليل العقل، ولذلك الدليل العقلي يدل على أن الله سبحانه وتعالى فوق خلقه، وقد ذكر ذلك كما سبق الإشارة إليه من أئمة السنة كالإمام أحمد، أو من مقتصدة المتكلمين؛ كأبي الحسن الأشعري، وبعض متقدمي أصحابه، الذين يقررون مسألة العلو على ما يقرره أهل

الحديث في الجملة، وإن كان التقرير العقلي الذي يستعملونه قد يختلف مقامه، لكن من حيث النتيجة يثبتون مسألة العلو، كما هي طريقة عبد الله بن سعيد بن كُلّاب، وأبي الحسن الأشعري، وبعض كبار أصحابه.

إنما المقصود هنا: أن العلو من مقامات ربوبية الله وصفات الله جل وعلا، فهو رب العالمين، وهو العلي الأعلى، فيوصف ربنا وصفًا يليق بجلاله، ويُنزه عن صفات المحدثات، وليس علوه جل وعلا كعلو الملائكة في السماء؛ لأن الله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك كله، كما قال الله جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى: ١١].

والعرب كانت تعرف أن الله في السماء في جاهليتها، ولهذا وقع في شعرهم، وهو فرعٌ عن معنى قرره أهل العلم، وهو مقرر في كتاب الله بيّن، وهو أن العرب في جاهليتها كانت تُقر بجملة الربوبية، كالإقرار بأن الله هو الذي خلقهم، وهو الذي خلق السموات والأرض، وهذا تجدونه صريحاً في كلام الله في القرآن: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

فالعرب تُقر أن الله هو الخالق للسموات، الخالق للأرض، الخالق لهم، ولكن لا نقول: بأن العرب كانوا محققين لتوحيد الربوبية، ففرقٌ بين مطلق الإقرار، وجملة الإقرار، فهذا صريح في القرآن، لا ينكره من يعرف القرآن، القرآن صريح بأن العرب تقر بأن الله هو الذي خلقهم، وأن الله هو الذي خلق السموات والأرض، هذا نسميه إقرار، والله لم يسمه إيمانًا؛ لأن الإيمان يكون على سبيل الاسم الشرعي الصحيح المحقق لمقتضياته ولوازمه.

وليس إقرارهم للربوبية هو تحقيق الربوبية؛ لأن (تحقيق الربوبية لله يوجب أو) لا يتحقق -تحقيق الربوبية لله- إلا بالإيمان بعبادة الله وحده لا شريك له، فإن الربوبية

الإقرار بها يستلزم ضرورة عقلية، التمام الذي هو أصلٌ ملازمٌ لها وهو عبودية الله جل وعلا، أو أن العبادة حقٌ لله وحده لا شريك له.

فإذن فرقٌ بين قولك: العرب تُقر بجملة الربوبية، وبين قولك: العرب محققة لتوحيد الربوبية، الثاني لا يكون، والأول هو الصريح في القرآن.

وحتى هذا الإقرار لماذا نصفه بأنه إقرارٌ بجملة الربوبية؟

لأنه لا يطرد من حيث التحقيق للعبادة، وحتى في مقام الربوبية تجدون أغلاطًا وشركًا يقع من العرب في جانب الربوبية، مثل ما يكون عندهم من سؤال الآلهة التي يعبدونها كالأصنام، يسألونها قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وهنا جمعوا بين عبادة غير الله بالدعاء، صرفوا العبادة وهو الدعاء لغير الله.

ولكن لما جعلوا هذه الآلهة لها أثر في تحقيق قضاء الحاجات (هذا)، وتفريج الكربات، وشفاء المرضى، هذا من جانب أو من باب مقام الربوبية، أليس كذلك؟ ولذلك إبراهيم قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾ [الشعراء: ٧٧ - ٨٠]، يتداخل عند العرب.

لكن حقًا كانت العرب تقول: إن الله هو الذي خلق السموات، نعم هذا صريح في القرآن، تقول: إن الله خلقهم؟ نعم، وتقول: إن الله خلق الأرض؟ نعم، وحقائق أخرى من حقائق الربوبية كانت العرب تقر بها، لكن لم تكن تحقق، كهذا المثال الذي أُشير إليه.

ويقع ذلك مثلًا في مسألة البعث عند العرب، ليسوا على مادة مطردة، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧]، وبعضهم يقول: ما يهلكنا، كما أخبر الله بالقرآن، إنهم يقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وإذا نظرت بحالهم مثل الاستقسام بالأزلام، منافٍ للربوبية، والطيرة منافية للربوبية، وهذا موجود، وهذا موجود، بل إن العرب نفسها لم تكن على جادة واحدة في التفاصيل، مثل مسألة الموت، وأنت لو قرأت في شعر شعرائهم لوجدت أنهم في تقدير بعض التفاصيل من الربوبية ليسوا وجهًا واحدًا، فمثلًا نظرتهم للموت، المسلم، والدين الذي بعث الله به الرسل لأن الموت قدرٌ يقدره الله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وهو بمحض أمر الله، وتقديره وإرادته.. إلى آخره، أليس كذلك؟

وبنو آدم جميعهم يعلمون أنهم لا يختارون الموت، هذا حقيقة بشرية مدركة لدى البشر، أيًّا كانت ديانتهم، أنهم لا يستطيعون اختيار البقاء عن الموت، لكن بما يُفسّر الموت عند أولئك الجاهليين؟

تجد أن هناك بعض التباين أو الاختلاف بين العرب في جاهليتهم، ربما إذا نظرت إلى زهير بن أبي سلمى وجدتَ أنه في معلقته يقول:

رَأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ *** تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِىءْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ.

هو يقول لك: رأيتُ المنايا خبط عشواء. هذا واضح أن زهيرًا على ما قيل فيه أن شعره فيه حكمةٌ كثيرة لكنه يبقى جاهليًّا.

هنا تلاحظ أن زهيرًا في بيته هذا، قد أبعد في الجاهلية، ورأى أن الموت عشوائيًّا، فيقول:

رَأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ *** تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِىءْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ.

إذا قارنتَ هذا مع قول شاعرٍ جاهليٍّ آخر كطرفة بن العبد، وجدتَ أنه يختلف نظرته للموت عن نظرة زهير، رغم أن زهيرًا كان يوصف بالحكمة، فذاك يقول مثلًا:

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ ويَصْطَفِي *** عَقِيْلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ.

ثم يقول: وهذا يمكن أقرب للشاعر، للمقارنة بين النظرين، يقول:

لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى *** لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ باليَدِ.

وذاك يقول: رأيتُ المنايا خبط عشواء! وهذا يقول: لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى *** لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ باليَدِ.

يقول: كل إنسان قد قُيد بالموت، مثل الحبل الآن إذا قُيد برجل أو بيد الدابة، وأُمسك بطرفه، وأُرخي، ففي أي لحظة يمكن أن صاحب الدابة إيش؟ يشد الحبل.

ويقول: كل الناس تحت السيطرة في موضوع الموت، وكلهم مقيدين لكن متى يأتي الأجل هنا؟ هذا أقرب وإن كان ليس مطابقًا بالطبع، لكن أقرب للمدرك الشرعي في تفسير الموت، أليس كذلك؟

ذاك يقول: خبط عشواء! وهذا لا يقول: إنه خبط عشواء، يقول: إن الموت فيه ترتيب، فيه قدر، لكنه لم يفصح عن الحقيقة الشرعية أو يستطع أن يبين الحقيقة فيقول: لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى.

ولذلك لما استطرد في شعره بعد ذلك بيّن أنه حاله التي صار عليها؛ لأن بعض قومه قد ضايقوه، ولذلك يقول في شعره:

فَمَا لِي أَرَاني وَابْنَ عَمِّي مَالِكاً *** مَتَى أَدْنُ مِنْهُ يَنْأَ عَنِّي ويَبْعُدِ.

يَلُوْمُ وَمَا أَدْرِي عَلامَ يَلُوْمُنِي *** كَمَا لامَنِي فِي الحَيِّ قُرْطُ بْنُ مَعْبَدِ.

يقول بعد ذلك:

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بنَ خَالِدٍ *** وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْروَ بنَ مَرْثَدِ.

(شوف) هنا أضاف المشيئة، أضاف أن الحالة التي هو عليها من غنى أو فقر أو عزة أو ذلة أو منعة أو عدم ذلك، أضاف ذلك إلى المشيئة، فيقول:

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بنَ خَالِدٍ *** وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْروَ بنَ مَرْثَدِ.

فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيْرٍ وَزَارَنِي *** بَنُونَ كِرَامٌ سَادَةٌ لِمُسَوَّدِ.

ولذلك ختم قصيدته المشهورة بالمعلقة، بقوله:

سَتُبْدِي لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً *** ويَأْتِيْكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ.

وَيَأْتِيْكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبِعْ لَهُ *** بَتَاتاً وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام مما يتمثل به قول طرفة بن العبد: سَتُبْدِي لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً، وهذا يكذب جهلة المتأخرين بعضهم اللي قالوا: إن الشعر الجاهلي شعر منحول، فهو موجود وروى أصحاب الحديث الأسانيد أن النبي سمع وتمثل بشعرٍ من شعر أولئك، فيكف يكون (إيش)؟ منحولًا، وقد وُثق بالأسانيد التي يذكرها أصحاب الحديث بالأسانيد الموصولة عند المحدثين.

الشاهد هنا أن العرب ليسوا على انتظامٍ واحد، ولذلك صار فيهم المتحنفة في بعض العرب، وصار فيهم مَن يقاربون المتحنفة ولم يصلوا إلى هذه الدرجة، ولكن يبقى أن هذا لم يصل إلى التحقيق ولكنه إقرار في جملته.

ولهذا بُين في كتاب الله مقام الربوبية ومقام العبادة وبُين التلازم بينهما وبُين مقام التضمن في الألوهية للربوبية.

هذا الذي ابتدأ به البخاري ثم ذكر أحاديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ..**». إلى آخره.

هذا حديث متفق على صحته، ويُصدق به بأن ملائكة من ملائكة الله يتعاقبون على المسلمين ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، وهذا من الأدلة الدالة على فضلِ هاتين الصلاتين.

ومما استدل به في قول الله تعالى: ﴿ **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)** ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقوله الله: ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى** ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

والجمهور على أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، بل جاء ذلك في صريح السنة.

«**ثم يعرج الذين باتوا فيكم**»: وهذا الشاهد، أن العروج يكون إلى أعلى، يعرجون إلى ربهم.

«**فَيَسْأَلُهُمْ وَهْوَ أَعْلَمُ بِكُمْ فَيَقُولُ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي**». وسؤال الله للملائكة كما هو متحقق في العقل والفطرة والشرع، يسألهم ما هو أعلم، كما قال لعيسى بن مريم فيما ذكره الله في كتابه: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ**﴾ [المائدة: ١١٦].

ثم من إجلال الأنبياء لربهم، يقول: ﴿**إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ**﴾، ثم لم يقل عيسى: بأنك تعلم ما قلتُ، بل بيّن أن الله يعلم ما هو أبلغ من قول الإنسان وهو (ماذا؟) ما في نفس الإنسان، ﴿**إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي**﴾ [المائدة: ١١٦]، ولم يقل: تعلم ما قلتُ، وهو سبحانه محيط بكل شيء، ﴿**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)**﴾ [المائدة: ١١٦].

ثم ذكر بعده حديث أبي هريرة أيضًا، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ**»، وهو متفق عليه، والشاهد فيه: «**وَلاَ يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إِلاَّ الطَّيِّبُ**».

وهذا فيه فضلُ الصدقة وشرفها، ومن جهة مسائل الصفات والربوبية فهو دليل على تقرير هذه الحقيقة في علو الله.

وجاء بعده حديث أبي العالية عن ابن عباس أن نبي الله كان يدعو بهن عند الكرب، وهذا مما يُشرع، والشاهد فيه من جهة الترجمة: أن الله سبحانه وتعالى موصوف بأنه رب العرش، وهو قد استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله، والعرش هو سقف المخلوقات،

واللهُ فوق سماواته مستوٍ على عرشه، استواءً وعلوًّا يليق بجلال الله وحده لا شريك له، لا يدرك العبادُ كيفه وكنهه.

ثم ذكر حديث أبي سعيد قال: بُعِثَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِذُهَيْبَةٍ فَقَسَمَهَا.

هذا في الذهب الذي بعث به علي بن أبي طالب، لما بعث النبي عليًّا إلى اليمن بالذهب، بعث إلى النبي بذهب، والحديث كذلك متفقٌ عليه.

وفي رواية بأن عليًّا بعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذهب في أديم، والأديم هو الجلد، في أديم مَقْرُوظٍ ، لَمْ يُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، فَقَسَمَه النبي عليه الصلاة والسلام، وكان بحضرته وجوه من قريش، وبحضرته وجوه من الأنصار، وبحضرته وجوه من أهل نجد، وما جاور نجدًا من العرب والأعراب، فرأوا أنه في هذا المقام أعطى بعض وجوه أهل نجد، ولم يعط من كان من كبار المهاجرين أو كبار الأنصار، من قريشٍ أو من الأوس أو الخزرج.

يدلك هذا على أن الدين ليس قائمًا على اعتبار موازين الناس بالمال، وإن كان المال له أثر في سياسة الأمور وإصلاح الأمور، وبناء الأمور، إلى آخره.

والناس خُلقوا محتاجين إلى حركة المال الصحيحة، وأُلقي في نفوسهم المحبة ليتحركوا، ولكن لم يُشرع لهم أن تطغى هذه المحبة.

ولهذا مُدح من وُقي شُح نفسه، في قول الله: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)﴾ [الحشر: ٩]، لكن تعلق الآدمي بالمال هذا طبيعة للإنسان، ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾ [الفجر: ٢٠]، وكما في السنة: «**يهرم ابن آدم وهي تشب منه اثنتان؛ الحرص على المال، والحرص على العمر**»، هذا طبيعة، لكنها الشريعة لم تترك هذه الطبيعة على حالها، بل جاءت بتصحيح هذه الطبيعة إلى مسالك العقل والحكمة والاعتدال، ومن هنا شُرعت

النفقة بالمال، وشُرع الاقتصاد بالبحث عن المال، وشُرع كف اليد عن المال الحرام، إلى غير ذلك.

ومن ألزم نفسه بسياسة الشريعة، وكتاب الشريعة انتفع من المال على وجهٍ مناسب، ومن لم يكن كذلك وإن جمع مالًا لكنه لا يكون مفيدًا له في حياته، فضلًا عن مآله، من لم يلتزم بآداب الشريعة لم ينفعه المال على الوجه المناسب في الحياة فضلًا عن المآل.

ولذلك العبرة بنفع هذا المال وحقيقته للإنسان، وهذا على كل حال موضوعٌ يطول.

الشاهد أن النبي أعطاهم تألفًا، وهذا من فقه السياسة الشرعية، والشريعة جاءت بتقرير هذه القاعدة الجليلة؛ وهي قاعدة السياسة الشرعية، بحيث أن العمل يُرجى له الأثر، يعني من جهة تحصيل المصالح، ودرء المفاسد.

وهذا يدلك على أن النفوس البشرية بحاجة إلى التألف على دين الله، ولهذا شُرع في أهل الزكاة وهي فريضة شُرع في أهل الزكاة سهم المؤلفة قلوبهم كما هو صريح في القرآن، وإن كان رُوي عن بعض الصحابة الاجتهاد بتركه، كما جاء عن عمر؛ وأن ذلك كان أول الإسلام، لكن هذا اجتهاد مرجوح، والصحيح أن سهم المؤلفة قلوبهم لا يزال إلى أن تقوم الساعة، وهم أضرب كما ذكر الفقهاء، فإنما ما كانوا يُعطون لمحض كف الشر، بل كان الهدف الأسمى في التأليف؛ استدعاء نفوس أولئك الكبراء إلى الإسلام، والانفكاك عن عقد الجاهلية، وفخرها بطريقة الآباء في آلهتهم وعبادتهم لآلهتهم، فإذا خُففت هذه العقد الجاهلية بالمال انفكت النفوس عن مانعها من قبول الحق، وأشرق عليها نور الإسلام، ونور الوحي، ولهذا لم يقع مثل هذا التأليف أنهم أسلموا طلبًا للمال ليقيموا على هذه الحال، ولذلك كل من تألفته الشريعة على هذا المعنى، لابد أنه يصير في.. أو صار بعد ذلك عن الذين تألفهم النبي على الإسلام، صاروا بعد ذلك من سادات المسلمين، واستقر الإيمان في قلوبهم.

فهذا على كل حال بعض التشريع كما في أهل الزكاة جاء كذلك، وهذا في الصدقة، وفي العطية، فإما أن تكون الزكاة فريضة أو تكون صدقة، أو يكون المال عطية، وهذا من عطية النبي صلى الله عليه وسلم، أنه أعطى هؤلاء، ولذلك كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم لم يستغربوا هذا الأمر، ولم يراجعوه؛ لأنهم يعلمون أن ما عند الله خيرٌ لهم.

ثم ذكر قصة ذلك الرجل الذي قام وهو وُصف بتلك الأوصاف في شكله وخلقه، وقال ما ليس له به علم، وما ليس لهم به علم، أحق من وصفه للنبي صلى الله عليه وسلم، ذكر البخاري هنا في روايته أن النبي قال: **«إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ»**، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ: يَا مُحَمَّدُ اتَّقِ اللَّهَ.

وفي رواية: اعدل يا محمد، وهو رجل كاذب، وفي قلبه النفاق، وفي قلبه الشر. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: **«إِنَّه يخرج مِنْ ضِئْضِيءِ هَذَا»**، وهذا ليس على سبيل النسب المحض؛ لأن ذلك الرجل من بني تميم، والخوارج لما خرجت كانوا من أنواع العرب، يعني من قبائل شتى من العرب، لم يكونوا من محض بني تميم، كان فيهم من بني تميم، ومن غير بني تميم، إنما هو كناية عن الاتصال بطريقته، وليس النسب (علمناه) الذي تسمى به القبائل.

«قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ»؛ وحديث الخوارج كما ذكر العلماء متواتر حتى قال الإمام أحمد: صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه: أخرجها مسلم في صحيحه، وأخرج البخاري بعضًا منها، وهي مخرجة في الصحاح، وفي السنن والمسانيد، وخرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وإن كان الصحابة لما خرجوا لم يكفروه، ومضوا فيهم بحكم الشريعة التي قامت على العدل، وبيان الحق، ومضوا فيه بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وقاتلهم علي بن أبي طالب كما هو معروف في النهروان، وذلك بما جاء في الأحاديث الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكر البخاري حديث أبي ذر، وفيه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، في قول الله، قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: «**مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ**».

وهذا أيضًا يدل على إثبات مسألة العلو، وأن المخلوقات حتى عاليها عند الخلق؛ كالشمس فإنها فوق الناس، والعرش فوق ذلك، ولهذا وُصفت بالتحت، بالإضافة إلى العرش، والله جل وعلا لا يُقاس بخلقه، وهو جل وعلا فوق سماواته، كما أخبر عن نفسه؛ مستوٍ على عرشه، وتلك الجارية التي قال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «**أين الله؟**»، في حديث معاوية بن الحكم السلمي الذي أخرجه مسلم وغيره، «**أين الله؟**»، قالت: في السماء، قال: «**من أنا؟**»، قالت: أنت رسول الله، قال: «**اعتقها فإنها مؤمنة**».

وهذا من حقائق الربوبية التي فطر الله الناس عليها، أن ربنا جل وعلا هو العلي الأعلى، وهي من ضمن الفطرة التي قال الله فيها: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولذلك ترون أن من خالف جمهور المسلمين من بعض الطوائف وضلوا في مسألة أتوا بأقوالٍ ليست بلائقة بمقام الخالق جل وعلا، وسموا كلمات ليس لها أصل لا في كلام الله، ولا في كلام رسوله، ولم يستعملها أهل الفطر حتى قبل الإسلام، كعبارة: في كل مكان، عبارة: ليس له مكان، لا داخل العالم، وخارج العالم، عبارات أحدثوها، لم ينطق بها الأنبياء، ولم ينطق بها الرسل، ولم تنزل بها الكتب.

ومع ذلك نقول: إن مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة، مطابقٌ لنص القرآن، ما هو؟ هو قول الله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١]، هو قول الله: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]، لا يزيدون على ما جاء في القرآن لا لفظًا، ولا معنى، ليس هناك كلمات تقتضي مدلولًا مخالفًا لما جاء، مختصًا عما جاء في القرآن، يوافقون القرآن لفظًا ومعنى، وإذا عبّروا بمرادف فإنك تجد هذا المرادف قد وقع ذكره في أثر أو نحو ذلك.

مع أن الأصل هو: لزوم كلمات الكتاب و السنة، وربما عبّروا بعبارة يُراد بها درء الغلط مثل؛ قول: من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، هذا محقق في كلام الله ورسوله، في قول الله جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وهو نفيٌ لذلك.

كذلك التعطيل فإن الله سبحانه أمر بتعظيم صفاته وأسمائه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فإذا سميته إلحادًا في أسماء الله، أو سميته تعطيلًا لحقها، وحق الله في كماله، فهو على اتفاقٍ لغوي في المناسبة.

(المتن)

٢٤- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

٧٥٢٤- عَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلاَةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَافْعَلُوا».

٧٥٢٥- عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا».

٧٥٢٦- عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: "باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾":

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمدٍ، وآله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه في كتاب التوحيد: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ثم ذكر الأحاديث في هذه المسألة الشريعة العظيمة؛ وهي رؤية المؤمنين لربهم سبحانه وتعالى.

قال: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، دلَّ على رؤية المؤمنين لربهم الكتاب والسنة والإجماع، وهذه المسألة من الأصول عند أهل السنة والجماعة؛ أن المؤمنين يرون ربهم، كما جاء في كتاب الله، وكما جاء في متواتر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي روايات مخرجة في الصحاح والسنن والمسانيد، وغيرها.

ومن ذلك؛ حديث جرير، ويأتي بعده ذكر أحاديث أبي هريرة وأبي سعيد، وغير ذلك.

قال الله جل وعلا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وهذا النظر الذي عُدي بـ إلى هو النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى، ومنه؛ قول الله جل وعلا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فإن النبي صلى الله عليه وسلم فسّر الزيادة هنا كما جاء في حديث صهيب الذي أخرجه مسلم وغيره؛ أن الزيادة هي النظر إلى وجه الله جل وعلا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**أما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم**».

ومنه قول الله جل وعلا: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وهذه الآية من أدلة أهل السنة على هذا المعنى، والذي ذُكر صريحًا في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، فإن الآية في سورة الأنعام فيها نفيٌ للإدراك، والله جل وعلا من كماله المختص به سبحانه وتعالى أنه كما أخبر عن نفسه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فالمؤمنون يرون ربهم، لكن لا تدركه الأبصار جل وعلا، لا يحاط به، ولا يحاط به علمًا.

ونفي الإدراك دليلٌ على أن ما دونه؛ وهو أصل الرؤية ثابت، وإلا لم يكن لتخصيص القدر الزائد عن أصل الرؤية في النفي معنى، فلو كان أصل الرؤية منتفيًا، لما كان لنفي الإدراك وجهًا من التخصيص، فلما ذُكر في الآية نفي الإدراك دلّ على أن ما دونه ليس قد تعلق به النفي.

وهذا الاستدلال على كون هذه الآية دليلًا على إثبات الرؤية ذكره كثيرٌ من مثبتة الرؤية من أصحاب الحديث، أو من متكلمة الصفاتية الذين يثبتون الرؤية، كما ذكر ذلك أبو الحسن الأشعري، من متكلمة الصفاتية، وذكره طائفةٌ من أهل العلم، وممن حرّر هذا المعنى وبيّنه ابن تيمية رحمه الله.

الإمام ابن تيمية رحمه الله بيّن أن الآية ليس فيها دليل على نفي الرؤية كما زعمت المعتزلة، وهي عند التحقيق دليلٌ على ثبوت، وإثبات الرؤية، بهذا الاعتبار.

ومنه ما جاء في قول الله جل وعلا: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾ [المطففين: ١٥]، فإن هذا في حق المشركين والكفار، وهو دليلٌ على أن المؤمنين يلقون ربهم، ويرونه سبحانه وتعالى كما جاء في غير ذلك في موارد من القرآن.

ومما جاء في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث، قال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب**»، والحديث في هذا قد تواتر، عن نحو ثلاثين من الصحابة، منهم؛ العشرة المبشرون بالجنة.

أحاديث الرؤية متواترة، وقد جمعها بعض المحدثين، وأصحاب الحديث كالدارقطني، فإنه قد جمع أحاديث الرؤية في جزءٍ وسِّفرٍ مختص، وجمعها أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة، وجمع غيرهم، وهي أحاديث مستفيضة عن نحو ثلاثين من الصحابة، وجمهور هذه الروايات صحيحة، وبعض الأسانيد التي تُكلم فيها لا تؤثر؛ لأن جمهور هذه الروايات صحيح، بل جملة من هذه الأحاديث في الصحيحين، قد اتفق المحدثون على صحتها، فلم يختلف المحدثون في صحة أحاديث الرؤية، وإن كان كما قلت: قد يقع بعض

الأسانيد التي يكون فيها كلام، هذا عارض، لكن جمهورها مصحح، وبعضه قد اُتفق على تصحيحه بين أهل الحديث، وهو حجة صريحة وقطعية، والإجماع هو إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

ونفاة الرؤية من المعتزلة، ونحوهم، ومن أخذ بطريقتهم أو سبقهم إلى نفي الرؤية فإنهم لا حُجة لهم على ذلك، لا من الشرع ولا من العقل.

أما الشرع فإنه لا يدل على هذا القول الذي يخالف النصوص، وحقيقة مذهبهم أنهم يقولون -كما تصرح به كبار النظار من المعتزلة وأهل هذه الطريقة- يقولون: بأن الرؤية منفية وممتنعة في حق الله، فإذا قالوا: إنها ممتنعةٌ فإن القول بالامتناع ليس هو القول بالنفي.

ومن هنا فإنهم استدلوا خطأً وانحرافًا بقول الله جل وعلا، استدلالًا خاطئًا مباينًا للمقصود من الآية؛ وهو أنهم جعلوا قول الله جل وعلا: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام: ١٠٣]، دليل على انتفاء الرؤية، وامتناعها.

والآية كما سبق فيها نفي الإدراك، وليس فيها نفي الرؤية.

ثم إن الآية لو قُدر أن الإدراك هو الرؤية جدلًا فإن الآية فيها نفي وليس فيها امتناع، وثمة فرق بين النفي والامتناع، فإن المنفي لا يلزم أن يكون ممتنعًا، فأنت تقول، أو يقال في العربية: لم يأت زيد، أليس كذلك؟ هذا نفي أو ليس كذلك؟ لم يأت زيد، أو يُخبر عن مستقبله فيقال: لم يحضر زيد، هذا نفي، فهل هذا النفي لكون مجيء زيد ممتنعًا في ذاته؟ الجواب: لا، فإذن ثمة فرقٌ بين النفي والامتناع.

فالآية تقول، أو يقول الله فيها: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فالإدراك هنا ليس هو الرؤية كما سبق، ومن وجهٍ آخر يقال: إن الآية نفت، والنفي ليس هو الامتناع

ومذهبهم ليس النفي، مع الامكان، وإنما مذهبهم إيش؟ الامتناع، فالامتناع قدرٌ زائد في الحكم، لم يدل عليه هذا التقدير لو سُلم جدلًا أنه كذلك، مع أنه مردودٌ عند التحقيق.

ومثله قول الله جل وعلا: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإن المعتزلة جعلت الآية دليلًا على مذهبهم، ونقول: إن الآية لا تدل على ذلك؛ أي أن هذا كان خطابًا لموسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل ربه أن يراه في الدنيا، فقال الله له: لن تراني، فهذا حكم الدنيا، والذي في كتاب الله في المقام الآخر؛ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، هو حكم الآخرة، والقرآن يُصدق بعضه بعضًا لا يعارض بعضه بعضًا.

لكنهم شبّهوا في هذا الاستدلال بشبهةٍ قالوا فيها: إن ﴿ لن ﴾ تقتضي تأبيد النفي، وهذا ليس صوابًا وهي من حيث هي مسألة مجردة في العربية محل خلاف بين أهل العربية، ولكنها في هذا المورد لا تحتمل التأبيد.

ومما يدلك على أنها لا تستلزم التأبيد أنه جاء في كتاب الله تقييد الفعل بعدها، في قول الله: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ [يوسف: ٨٠]، فقُيد الفعل بعدها، فلو كانت تقتضي تأبيد النفي لما قُيد الفعل بعدها.

والصواب: أنها تفيد النفي مطلقًا، ولا تأبيدًا، والجمهور استعملها بغير التأبيد، والتأبيد يكون بتسميته إثباتًا، وليس بأحرف النفي، فليس من أحرف النفي ما يدل على التأبيد البتة، حتى يقع التأبيد بذكر اسمه.

ولهذا لم ذُكر خلود الكفار في النار، والتأبيد الذي فيه قال الله جل وعلا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وأما أحرف النفي فإنها لا تكون كذلك، ولما ذكر الله أن الكفار لا يدخلون الجنة، بيّن التأبيد لعدم دخولهم

الجنة؛ أي امتناع دخولهم الجنة بما يدل عليه من السياق، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠)﴾ [الأعراف: ٤٠].

الآية وهي قوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] في قصة موسى لا تدل على التأبيد، فهذا خطأ من جهة اللغة؛ بمعنى حمل الآية عليه خطأ من جهة اللغة، فضلًا عن كون المسألة من حيث هي مجردة، هل لن تقتضي تأبيد النفي؟ محل خلاف، والصحيح عدم ذلك، بل كل أحرف النفي لا تستلزم التأبيد، وإن كان التأبيد يقع على جهة الإثبات وليس على جهة النفي، فأنت ترى أن المعتزلة استدلت بالآيتين؛ بقول الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وهذه الآية لا تدل على مذهبهم، بل عند التحقيق تدل على ثبوت الرؤية.

كذلك قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾ [الأعراف: ١٤٣] يدل على عدم صحة مذهب المعتزلة بما سبق، بل هو عند التحقيق هذا الدليل دليلٌ على الإثبات، وكونه دليلًا على الإثبات من وجوه؛ أولها أنه سؤال موسى عليه الصلاة والسلام، فإن المعتزلة تقول: بأن الرؤية تمتنع لمنافاتها بتوحيد الله.

هذا صريح مذهبهم وليس لازم المذهب، يقولون: إنها ممتنعة؛ لأنها تنافي التوحيد، ويجعلون لذلك لوازم لا تليق بالله سبحانه وتعالى، فإذا كان كذلك، كيف صح أن رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام ونبي الله كيف صح أنه يسأل ربه ما ينافي مقام التوحيد والربوبية، وما سأل موسى ربه ذلك إلا أن هذا من المقام الذي لا ينافي من جهة أصله مقام الربوبية.

وأنت ترى أن نوحًا عليه الصلاة والسلام لما سأل ربه نجاة ابنه كما جاء في كتاب الله، لما قال نوح في خطابه: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]، قال الله جل وعلا: ﴿يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)﴾ [هود: ٤٦]، فكان الجواب في سياق قصة نوح على هذا الوجه، لما سأل ربه نجاة ابنه الكافر.

والله لما سأله موسى عليه الصلاة والسلام، لم يكلم موسى ما قيل، أو ما هو من مثله، ما قيل لنوح، وإنما قال الله له: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وهذا نفي ولا شك أنه لن يرى أحد ربه حتى يموت، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم.

وحتى نبينا لم يرى ربه على الصحيح كما سيأتي، فلم يرى أحدٌ ربه قبل أن يموت، فالعبد إنما يُثبت للمؤمنين رؤية ربهم من بعد وفاة الناس وقيامهم من قبورهم ومجيئهم للآخرة، فهو من أحكام الآخرة، وليس من أحكام الدنيا.

قال الله جل وعلا: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإذن الوجه الأقوى أن السؤال وقع من موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الله لم يجبه بما أجاب به نوحًا عليه الصلاة والسلام.

ومن وجهٍ ثالث؛ أن الله جل وعلا قال: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فلم يُعلق على أمرٍ ممتنع الوقوع.

والمقصود أن مذهب المعتزلة ليس هو نفي الرؤية عند التحقيق ، بل القول بامتناعها.

ومما يتصل بهذه المسألة مسألتان؛ مسألة رؤية الكفار والمنافقين لربهم في عرصات القيامة، هذه مسألة فيها خلاف معروف، وليست هي من الأصول التي يلزم فيها القول، وإن كان الذي عليه جمهور السلف أنهم لا يرون ربهم؛ لقول الله جل وعلا: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾ [المطففين: ١٥].

والأحاديث كما سيأتي في الصحيحين وغيرهما لا تدل على أن الكفار أو المنافقين يرون ربهم، كما سيأتي بيانه وإن كان في بعض الرواية وبعض الحروف التي اشتبهت على بعض الناظرين فيها، حتى توهم البعض أنها صريحة في إثبات رؤية المنافقين، وهي ليست كذلك، والقرآن بيّن في مثل قول الله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾ [المطففين: ١٥]، والرؤية كرامة، تكرّم الله بها، وصارت أخص المقامات، والثواب، وسماها الله الزيادة في القرآن: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

والمسألة الثانية: وهي رؤية النبي لربه ليلة المعراج، فهذه مسألة بين المسألتين من جهة قدرها، وقد حكى الإمام الدارمي إجماع الصحابة؛ أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يرى ربه ببصره ليلة المعراج، والمأثور عن الصحابة رض الله عنهم إما نفي هذه الرؤية كقول عائشة رضي الله عنها من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، أو أن بعض الصحابة ذكر رؤية الفؤاد كما جاء عن ابن عباس، وكله في الصحيح، عن ابن عباس أنه قال: أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه بفؤاده، أو ترد الرواية عن ابن عباس مطلقة، ومن روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنه أثبت الرؤية البصرية فقد غلط عليه، فهذا ليس من كلام ابن عباس، إنما كلام ابن عباس إما مطلق، وإما مقيد، وكلامه المطلق يُحمل على المقيد، ولم يثبت عن صحابي واحد بإسناد صحيح أنه أثبت الرؤية البصرية.

والأدلة من القرآن والسنة وهو ظاهر مذهب الصحابة رضي الله تعالى عنهم، بل شبه إجماع، وحكاه الدارمي إجماعًا؛ أن النبي لم يرى ربه ببصره.

أما القرآن فلأن الله لما ذكر مسرى نبيه قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١]، فالآية فيها إخبار، وفيها ذكرٌ امتنان الله على نبيه، وصار مقام الامتنان ذُكر فيه رؤية الآيات، ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾، فلو كان النبي عليه الصلاة والسلام رأى ربه، لكان الإشادة والامتنان

برؤية الله أعظم من الامتنان برؤية الآيات، فإن قيل: هذا إخبار عن ابتداء فضل الله على نبيه، قيل: فقد أخبر الله بما صار إليه أمر نبيه في مسراه ومعراجه، فقال الله جل وعلا: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)﴾ [النجم: ١٨]، ولم يذكر الله في كتابه أن نبينا عليه الصلاة والسلام رأى ربه، بل قال الله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)﴾ [النجم: ١٨]، وهذا استدلالٌ بيّن بالقرآن.

وأما السنة فجاء في حديث عبد الله بن شقيق الذي رواه مسلم وغيره أنه سأل أبا ذر: هل رأى النبي ربه؟ فقال أبو ذر: يا ابن أخي سألت رسول الله كما سألتني، فقال: «**نور أنى أراه**»، وفي رواية أخرى عند مسلم، فقال: «**رأيت نورًا**».

فهذا بيّن أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه لم يرى ربه، بل قال: «**رأيت نورًا**»، وقال: «**نورٌ أنى أراه**».

وهذا الذي عليه أئمة السنة، وإن كان بعض المتأخرين من أصحاب الأئمة والفقهاء صاروا يحكون في ذلك مذاهب على غير ترتيب وجيه، ونُسب للإمام أحمد من بعض الحنابلة المتأخرين، ومن غير الحنابلة أنه يذهب في إحدى الروايات أن النبي رأى ربه ببصره، وهذه الرواية لا تصح عن الإمام أحمد، والمعتبر في مذهب الإمام أحمد ما جاء في كلام ابن عباس، وما جاء في كلام بقية الصحابة.

فإذن هذا هو القول المستقر في هذه المسألة؛ أن النبي لم يرى ربه ببصره، وإنما يقال ما قال الله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)﴾ [النجم: ١٨].

(المتن)

٧٥٢٧- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّاسَ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ». قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ». قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ. فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ

يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا - أَوْ مُنَافِقُوهَا شَكَّ إِبْرَاهِيمُ - فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا فَإِذَا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبُّنَا. فَيَتْبَعُونَهُ وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ؟». قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلاَّ اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمُ الْمُوبَقُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ، أَوِ الْمُوثَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ الْمُخَرْدَلُ أَوِ الْمُجَازَى أَوْ نَحْوُهُ، ثُمَّ يَتَجَلَّى حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ إِلاَّ أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ قَدِ امْتُحِشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ تَحْتَهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الْجَنَّةَ فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا. فَيَدْعُو اللَّهَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَهُ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ. فَيَقُولُ: لاَ وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ أَبَدًا، وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ. فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ. وَيَدْعُو اللَّهَ حَتَّى يَقُولَ هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ. فَيَقُولُ: لاَ وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا قَامَ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ فَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ الْحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ،

فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ ثُمَّ يَقُولُ: أَىْ رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ اللَّهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ -فَيَقُولُ- وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ. فَيَقُولُ: أَىْ رَبِّ لاَ أَكُونَنَّ أَشْقَى خَلْقِكَ فَلاَ يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ اللَّهُ مِنْهُ فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ قَالَ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللَّهُ لَهُ تَمَنَّهْ. فَسَأَلَ رَبَّهُ وَتَمَنَّى حَتَّى إِنَّ اللَّهَ لَيُذَكِّرُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، حَتَّى انْقَطَعَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ قَالَ اللَّهُ ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ».

٧٥٢٨- قَالَ عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ لاَ يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِهِ شَيْئًا حَتَّى إِذَا حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: «ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: «وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ». يَا أَبَا هُرَيْرَةَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا حَفِظْتُ إِلاَّ قَوْلَهُ: «ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: أَشْهَدُ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَوْلَهُ: «ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ.

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟»:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وآله وأصحابه أجمعين.

ذكر الإمام البخاري في صحيحه هذا الحديث، عند قوله في كتاب التوحيد: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وسبقت هذه المسألة؛ وهي رؤية المؤمنين لربهم سبحانه وتعالى، وما جاء فيها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وما قضى الله به في كتابه من قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وأن ذلك ليس منافيًا، ومخالفًا لما جاء في الكتاب والسنة من رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة.

سبق ذكر هذه المسألة وقدرها عند السلف وعند أهل العلم، وما فيها من الإجماع في ذلك.

هذا الحديث وهو حديث أبي هريرة وأبي سعيد حديثٌ متفقٌ على صحته، أخرجه البخاري رحمه الله، وأخرجه الإمام مسلم كذلك، وأخرجه غيرهما، فهو من الأحاديث المتلقاة بالقبول عند أهل الحديث، وهو من الأحاديث الصحاح البينة الصحة، وفيه جملةٌ من المسائل الكبار في العلم، ومن أخص مسائله: إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

هذا الحديث صريح في ذلك، وقد قال النبي فيه: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ**». قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ**». قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**».

وهذا كان جوابًا عن سؤالٍ وقع من الصحابة رضي الله تعالى عنهم: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فأجابهم النبي بالإثبات، ولم يزجر السائل في سؤاله، وإنما دل ذلك على السؤال كان صحيحًا، وكان الجواب بالإثبات الصحيح البيّن، وليس هذا كما ادعى بعض النظار من أحاديث التشبيه، فليس في السنة ما يسمى أحاديث التشبيه، وليس في السنة إلا الحق المبين.

وما هذا الحديث عند أهل الحديث إلا من الأحاديث المعلومة الصحة كما أسلفت، وقد اتفق البخاري ومسلم وغيرهم من أئمة الرواية والمصنفين في الحديث على قبوله وإثباته، فليس أحدٌ من أئمة الحديث تكلم فيه لوجه من العله، في إسناده أو في متنه، وإنما من التبس عليه الأمر بما أصاب من علم الكلام، ومقدمات من الفلسفة المقولة عن غير المسلمين؛ كالفلسفة الأصلية وغيرها صاروا يستشكلون لمثل هذه الروايات، ويجعلون هذه الأحاديث من أحاديث التشبيه، أو ظاهرها التشبيه أو ما إلى ذلك، وكل ذلك منافي للعقل والشرع.

ومن تدبر أو تأمل الرواية وجد أن التشبيه هنا لم يقع إلا من جهة فعل الآدمي، فهو تشبيهٌ بين الفعلين، وهما فعل الآدمي، وليس التشبيه بين المرئي والمرئي، فليس فيه تشبيه للخالق سبحانه وتعالى شيئًا من خلقه؛ لا الشمس ولا القمر، ولا غير ذلك، فإن ربنا جل ذكره، كما قال الله جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فهذا من المخالف المنقول، ومن المخالف أيضًا عند التحقيق في المعقول.

وفي هذه المسألة وهو من المسائل الكبار في هذا الحديث؛ أن الله سبحانه وتعالى بيّن حكم أهل الكبائر، أن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن حكم أهل الكبائر، كما بيّن الله ذلك في كتابه، وأهل الكبائر من المسلمين تحت مشيئة الله كما بيّنه الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقد دلّت الأحاديث الصحاح وكذلك الوعيد الذي جاء في القرآن على أن الله سبحانه وتعالى جعل وعيدًا لمن جاوز في أمر الكبائر، ولكن هذا الوعيد هو في علم الله ومشيئته وحكمته، وعدله، ولكن دلّت الأحاديث الصحاح كهذا الحديث المتفق عليه وغيره على أن قومًا من أهل الكبائر يُعذبون ثم يخرجون من النار، وهذا مخالف لقول المرجئة الواقفة الذين جوّزوا في أحد الفروض التي ذكروها أن جميع أهل الكبائر لا يُعذبون البتة، وهذا الفرض تخالفه أو يكون مخالفًا للنصوص الصحاح عند النبي صلى الله عليه وسلم.

فإن الأحاديث صريحة بأن قومًا من أهل الكبائر يُغفر له، وأن قومًا من أهل الكبائر يُعذبون، ولكن لا يُعذب بالنار عذاب الكفار إلا الكفار، ولا يُخلد في النار إلا من كفر بالله سبحانه وتعالى، فعذاب الكفار وهو الخلود في النار، يختص بمن كفر بالله، وأما العصاة من الموحدين، ومن أصابته النار فهو عذاب دون عذاب، فذلك من عدل الله سبحانه وتعالى، والله جل وعلا يتدارك العباد برحمته، ويُخرج سبحانه وتعالى بشفاعة الشافعين وبموجبات

من الأعمال الصالحة وبمحض رحمته، وكل ذلك ولو اختلف سببه، فإنه راجع إلى رحمة الله بعباده الموحدين، حتى ولو كان بشفاعة الشافعين فإن لهم في الشفاعة والتقدير بخروج العصاة بموجب هذه الشفاعة هو باب من أبواب رحمة الله جل وعلا بعباده.

ومن المسائل الكبار في هذا الحديث ما يدل على فضل الصلاة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم: «**تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ إِلاَّ أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ**»، فهذا دليل على فضل الصلاة وعظم قدرها، حتى إن الله سبحانه وتعالى حرّم على النار أن تأكل أثر السجود من العبد.

وكذلك من المسائل الكبار في هذا الحديث الإثبات للصراط وهو يُضرب بين ظهري جهنم، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا من فضله عليه الصلاة والسلام على غيره أنه أول من يجيز، كما أن أمته هي أول الأمم التي تجيز، وهو كذلك أول من يستفتح باب الجنة، كما جاء في حديث أنس في الصحيح: «**آتي يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فيقول: محمد، فيقول: بك أُمرت، لا أفتح لأحدٍ قبلك**».

وكذلكم من المسائل الكبار في هذا الحديث فضل التوحيد، وأن الله سبحانه وتعالى يغفر ما دون ذلك؛ أي ما دون الشرك بالله، ففيه فضل التوحيد، وأن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الشعيرة؛ وهي شعيرة التوحيد والإسلام هي المنجية عنده كما قال الله جل وعلا: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾ [آل عمران: ١٩]، وفي قوله: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ [آل عمران: ٨٥]، فهذا يوجب على العبد أن يُعنى بمقام التوحيد، وإخلاص العمل لله وعبادة الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، والبراءة من الشرك.

ومن المسائل الكبار في هذا فضل الله سبحانه وتعالى ورحمته بعباده في قصة آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وأن فضل الله وثوابه جل وعلا وسعة رحمته، وفضله على عباده واسع

لا يحيط الخلق به، ولا يُقدر أحد قدره، ولذلك فإن هذا العبد يذكره الله من كذا، وكذا، حتى إذا انقطعت به الأماني، قال الله لك: ذلك لك ومثله معه، كما في حفظ أبي هريرة.

وفي حفظ أبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «**ذلك لك وعشرة أمثاله معه**»، كما جاء في الرواية الأخرى.

(المتن)

٣٠- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾، وَقوله: ﴿لَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

سخر: ذلل

٧٥٥٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لاَ يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلاَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ إِلَى مَسْكَنِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ».

(الشرح)

شرح قول المصنف: " باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾":

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وآله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: ٣٠. باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾.

أورد الإمام البخاري هذا التبويب في كتاب التوحيد في صحيحه، قال: باب قول الله تعالى ثم ذكر هذه الآية، والآية الأخرى: وَ﴿لَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾.

وذلك في إثبات صفة الكلام لله جل وعلا، وأن من مقامات التوحيد، ومقامات الإيمان بالله جل وعلا وصفاته، الإيمان بأن الله جل وعلا له صفة الكلام، وهي صفة تليق بمقام الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى: ١١].

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾؛ فهذا إثبات لصفة الكلام، ومثله؛ ما جاء في قول الله جل وعلا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، والقرآن كلام الله كما هو صريحٌ في محكم التنزيل، وكذلك منه قول الله جل وعلا: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، والآيات دالة على إثبات هذه الصفة، وما جاء في السنة الصحيحة للنبي صلى الله عليه وسلم، كل ذلك من المتواتر المجمع عليه بين أئمة العلم والدين، والله جل وعلا كلامه مختصٌ به كبقية صفاته ليس ككلام الخلق، وليس على صفة كلام الخلق، وإنما كلام ربنا وصفته جل وعلا على ما يليق بمقام الله الذي أخبر الله به، واقتضاه دليل العقل والفطرة، وهو قول الله جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وله جل وعلا المثل الأعلى سبحانه وتعالى.

وكل ذلك ثابتٌ في كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومن دليله من السنة هذا الحديث الذي أورده البخاري عن أبي هريرة قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يُخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلمته**»، قوله: «**وتصديق كلمته**»؛ أي التصديق بكلام الله، وكلام الله الذي صدّق به هذا العبد المؤمن: هو ما جاء في كتاب الله، فإن القرآن كلام الله كما سبق في صريح التنزيل، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وهذه الصفة ضل بها أقوام، وزلت فيها أقدام، وتكلموا فيها بالتأويل والتعطيل حتى قال أئمة هؤلاء بأن القرآن مخلوق، وأن كلام الله مخلوق، وكل ذلك مناقض لدليل الشريعة، ودليل الفطرة، ودليل العقل، فكيف يكون كلام الرب وهو صفةٌ من صفاته، وليس مفعولًا من مفعولاته، كيف يكون مخلوقًا، وهو صفته وفعله وعلمه سبحانه وتعالى!

فإن صفة الله، وفعل الله، وعلم الله سبحانه وتعالى لا يكون مخلوقًا، وإنما المخلوق مفعوله سبحانه وتعالى، والقرآن هو من علم الله، والقرآن هو كلام الله، وكذلك فعل الله جل وعلا، من أفعاله في ملكوته، وما يأمر به جل وعلا، سبحانه وتعالى أفعال الله وكلام الله، وعلم الله، وكذا صفات الله بريئة عن صفة المفعولات المخلوقات.

وقالوا في كلام الله: إنه مخلوق، وأن القرآن مخلوق، فإذا كان كلامه وهو صفةٌ من صفاته يكون مخلوقًا، فإن هذا ينجر على بقية الصفات، وهذا مما لا يُتصور إقراره أو القول به عند أحدٍ له مسكةٌ من إقرار بمقام الربوبية ضمنًا عن أهل القبلة، ولهذا لم يلتزم بهذه الطريقة أحد من المسلمين، أو من أهل القبلة في جملتهم، وإنما زلّت فيه بعض المقامات لما أوجبه علم الكلام الذي استعملوه، وأوجب أوجه من الضلال.

وقد عرض في زمان الإمام أحمد رحمه الله هذا الأمر، وإن كان قد تُكلم به قبله، وبعد عصر الصحابة، ولكنه زاد فيه الشأن لما اتخذه السلطان من بني العباس وهو المأمون بن هارون الرشيد لما استقضى المعتزلة، وجعلهم على رأس القضاء، وصار مقدم قضاتهم آنذاك وهو أحمد بن أبي دؤاد، يذكر هذه المسألة ويقررها ويشيعها في الناس، ثم استطال شره، واستطاع من السلطان ضعفًا في هذا الأمر، وقلة إدراكٍ لبعده حتى لان له السلطان في أن يُلزم أئمة العلم من كبار أئمة السنة بأن يقولون هذه المقالة في الناس ، فاستنكف عن ذلك الأئمة رحمهم الله، ولم يقولوا بطريقته، ولم يقل أحد منهم بما قال به.

لكن منهم من ظهر له شأن أكثر من غيره، وأخصهم في ذلك المقام الإمام المبجل، والإمام الفاضل، والإمام العابد، والإمام العالم: أبو عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله تعالى

عنه وأرضاه، وصار له في هذا شأن معروف، في دولة المـأمون، ودولة المعتصم، وهما أبناء هارون الرشيد، من سلاطين بني العباس.

وذلك أن المأمون هو أول خليفة، وأول ملك من ملوك المسلمين مال بسياسة الدولة، وسياسة السلطان عن طرق أهل السنة إلى طرق أهل البدعة.

وأما خلفاء بني أمية مع ما عرض في بعض أحوالهم من مقامات الظلم، وإن كان عرض في مقامات أخرى، فيه أحوال أخرى لهم مقامات أخرى من العدل، ووُجد فيهم الأئمة الكبار، وأخصهم في ذلك معاوية رضي الله تعالى عنهم، وهو من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم.

ووُجد فيهم في العلم والعبادة كعمر بن عبد العزيز رحمه الله، ووجد فيهم من له مقامات في الخير، وعرض منه بعض المقامات في الظلم، ووُجد فيهم من ظهر فيه ظلمٌ بيّن في مقامات معينة كحال يزيد بن معاوية مع الحسين بن علي ، وابن بنت النبي صلى الله عليه وسلم وهو حفيد رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ إنه ما قام بشأن الحسين على ما وجب وقصّر في هذا تقصيرًا بيّنًا، وقُتل الحسين في خلافته على يد قادته، إلى آخره مما هو معروف، وما صار منه في أهل المدينة، واستباحة جيش الأمويين لها، وما صار من قتل ابن الزبير، بعد يزيد بن معاوية أيضًا.

فهذه الأحوال التي وقعت من بعض بني أمية وقع فيهم أيضًا مقامات، من العدل في المقابل، ولكن المقصود؛ أنهم لم يتخذوا مع ما عرفوا من بعض هذه المقامات المنافية للعدل إلا أنهم لم يستعملوا أمر السلطان وسياسة الناس غير الطرق التي عليها أئمة السنة، والجماعة.

وهكذا في دولة بني العباس في ابتدائها، في صدرها عند أبي العباس، وأبي جعفر، وهارون الرشيد، إلى أن جاء المأمون بن هارون الرشيد، وكان مولعًا بشيء من العلم والنظر في مقالات الأولين والسالفين من الأمم، والعمل بالترجمة ما لم يستعمله من قبله،

وإن كانت الترجمة بدأت في دولة بني أمية، لكنها زادت في ترجمة المسائل الإلهية في دولة بني العباس، ولا سيما في خلافة المأمون العباسي.

فلما زاد هذا الأمر، وأشاعه في الناس، أُشرب هذه المقالة، لما كان مقدارها من المعتزلة، وغيرهم يتكلمون فيها بمقدمات من علم النظر، وعلم الكلام المولد من الفلسفة اليونانية وغير اليونانية، فمالت نفس السلطان إلى مثل هذا المقام، ولان في يد هؤلاء المبتدعة؛ الذين لم يكونوا على صوابٍ في علمهم وطريقتهم، وخالفوا ما عليه مستقر أمر المسلمين.

وأخوه جاء بعده، أخوه الملقب بالمعتصم العباسي، وكذلك ابنًا لهارون الرشيد، وكان المعتصم هو الذي قابل الإمام أحمد حينها المأمون توفي قبل ذلك في أول أمر هذه الفتنة.

ولكن المعتصم لم يكن كأخيه مولعًا بمسائل العلم والنظر في هذه المسائل على طرق أولئك المتكلمين والمتفلسفة، وكان مولعًا بمسائل العسكر، ومسائل الجند والقوة والسلاح، ولكنه لم يُسقط هذه المسألة في ابتداء أمره مع أنه كان مُجلًا للإمام أحمد في بعض الأحوال التي أظهرها.

ويعتذر في بعض المقامات بهيبة السلطان، وهيبة الدولة وما إلى ذلك، فصار له في ذلك بعض التأخر، ولم يوفق لما صار من حاله من التقصير، لم يسدد في كف هذه الفتنة، حتى جاء المتوكل فكف هذه الفتنة، وكف الله جل وعلا أمر هذا الشر، وجعل المتوكل سببًا في كفها.

الشاهد في ذلك أنه بعد ذلك ظهرت مقالات ينتسب أصحابها إلى السنة والجماعة من المتكلمين الذين وصفوا الله بصفة الكلام، ولكنهم تأولوا بعض مقامات هذه الصفة، وما يتعلق بتحقيقها، فصاروا بين هاتين الطريقتين، والتبست هذه الطريقة على بعض الفضلاء في العلم، حتى ظنوا أنها من جنس طريقة أو كلام السلف الأول، وهي ليست كذلك، وإن كانت دون مقالة المعتزلة، وأمثالهم من الغلاة الذين لا ينتحلون السنة والجماعة.

(المتن)

٣١- باب فِي الْمَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾، ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

٧٥٥٤- عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِذَا دَعَوْتُمُ اللَّهَ فَاعْزِمُوا فِي الدُّعَاءِ، وَلاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ مُسْتَكْرِهَ لَهُ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب فِي الْمَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ ":

قال البخاري رحمه الله: باب فِي الْمَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ، وأورد فيها جملةً من الحديث؛ أي جملة من الروايات، وأورد في ابتداء هذا التبويب ما جاء في كتاب الله من ذكر مشيئة الرب وإرادته.

قال رحمه الله: باب فِي الْمَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ؛ أي في مشيئة الله وإرادته، والذي اتفق عليه المسلمون هو الإثبات لمشيئة الله وإرادته، وهذا معلومٌ في الفطرة، والشريعة، وكذلكم دليل العقل، وأن الله سبحانه وتعالى له المشيئة الشاملة، والإرادة التامة، وأن الله سبحانه وتعالى لا يخرج شيءٌ عن مشيئته وإرادته، ولكن عرض القول في أفعال العباد.

ولذلك قال الله جل وعلا: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾ [التكوير: ٢٩]، وهذا برهانٌ صريح كما هو متحققٌ بدليل الفطرة، والعقل؛ أن الله جل وعلا محيطٌ بأفعال عباده، ومشيئتهم، فالعباد لهم مشيئة ولكنها تحت هيمنة مشيئة الله جل وعلا، ولا يخرج شيءٌ من أمر العباد عن مشيئة الرب سبحانه وتعالى.

وضلّ في هذا أقوام منهم؛ من نفى مشيئة العبد، وجعله مجبورًا، أو جعله كاسبًا وهذا الاسم له أصل في الشريعة، ولكنه قصر حال العبد على واحدٍ من الأسماء التي جاء بها النص وهو الكسب؛ لأن الله يقول: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لكنك ترى أن الله جل وعلا في كتابه يذكر من حال العبد غير صفة الكسب، وفعلُ العبد وهو إرادة العبد ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، إلى غير ذلك من التصريح بإرادة العبد ومشيئة العبد وفعل العبد.

فليس للعبد في كتاب الله حالٌ واحدة وهي الكسب فقط حتى يُقصر القول على الكسب وحده، فهذا القصر من هذا الوجه مخالفٌ لما جاء في كتاب الله، ثم هو مخالف من جهة بيان المقصود فيه، فإن المقصود فيه فُسر على معنى يخالف الجبر في حقيقته، وهذا مخالف للمقصود من الكسب الذي ذُكر في القرآن، فإنه كسبه أي فعله وليس أنه مجبورٌ عليه من هذا التقدير، بل هذا منافٍ للشريعة ومنافٍ للغة، كيف يكون كسبًا ومع ذلك يكون حقيقته أنه جبرٌ؟ فإن هذا ينافي كلمة الكسب لغةً وشرعًا، فضلًا عما ورد مما يصرح بذلك من ذكر الإرادة والفعل والمشيئة بحق، العبد كما هو صريح في كلام الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

ومنهم مَن غلا في مشيئة العبد حتى جعل فعل العبد ومشيئة العبد، حتى جعل أفعال العباد ومشيئة العباد لأفعالهم محضة مستقلة، لا مشيئة أو أن الله سبحانه وتعالى فيما يذكره أصحاب هذه الطريقة، لا تدخل أفعال العباد ومشيئتهم في مشيئة الله؛ أي في هيمنة مشيئة الله، وهذا قولٌ باطل، ومخالف للعقل والفطرة والشريعة.

وقد كانت العرب في جاهليتها تعرف أن مشيئتها تابعة لمشيئة الله وإدراك الإنسان لمشيئته معلوم بدليل العقل والحس والفطرة، فإنه ماهية قائمة مدركة عند كل عاقلٍ. ولذلك نفيها متكلف على العقل والحس، متحكم على النظر والمجادلة في الضروريات.

وإذا كان نفي مشيئة العبد والقول بجبره من نفي الضروريات، إذا كان نفي مشيئة العبد والقول بجبره من القول فيما ينافي المعلوم بالضرورة عقلًا وشرعًا وفطرةً وحسًّا، فكذلك القول بنفوذ مشيئة العبد نفوذًا مطلقًا، هذا كذلك منافٍ للعلوم الضرورية في العقل والفطرة والحس والشرع.

وكان كما ذكرتُ أن الجاهليين في جاهليتهم من العرب يدركون أن مشيئتهم تابعة لمشيئة الله، وأنتَ إذا قرأت في شعرهم كمعلقة طرفة بن العبد، وجدتَ أنه يذكر قصوره في مشيئته، وهذه حقيقة كانت مستقرة في نفوسهم، ومن ذلك قوله:

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بنَ خَالِدٍ *** وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْروَ بنَ مَرْثَدِ.

فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيْرٍ وَزَارَنِي *** بَنُونَ كِرَامٌ سَادَةٌ لِمُسَوَّدِ.

الشاهد هنا أن العرب في جاهليتها تعلم أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، فهو يقول: "فَلَوْ شَاءَ رَبِّي"، أو ما يذكر من حاله من النقص، ويذكر أن مشيئته تنقطع، وأنه إذا شاء ولم يشأ الله لم يقع ما شاءه العبد، بل وقع ما شاء الله جل وعلا.

ومقدم هذه الأبيات يذكر فيها حاله وأن أصابه شيء من التشتت في حاله، حتى قلاه مَن قلاه، وحتى فارقه مَن فارقه، ولذلك يقول:

فَمَا لِي أَرَانِي وَابْنَ عَمِّي مَالِكاً *** مَتَى أَدْنُ مِنْهُ يَنْأَ عَنِّي ويَبْعُدِ.

يَلُوْمُ وَمَا أَدْرِي عَلامَ يَلُوْمُنِي *** كَمَا لامَنِي فِي الحَيِّ قُرْطُ بْنُ مَعْبَدِ.

ثم يقول:

رَأَيْتُ بَنِي غَبْرَاءَ لاَ يُنْكِرُونَنِي *** وَلاَ أَهْلُ هَذَاكَ الطِّرَافِ المُمَدَّدِ.

فهو يذكر شَتات الحال، ثم يعزو أنه قد بذل وسعه في بعض حاله، ولكن لم يشأ الله أن تصير حاله إلى ما صارت عليه، فيقول:

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بنَ خَالِدٍ *** وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْروَ بنَ مَرْثَدِ.

فهذا الجاهلي أخبر بما لديه من أصل الفطرة التي بقيت لديه من بقية فطرته، فهذا يدل على أن هذا قد استقر عقلًا، وقد استقر فطرةً، فلما نازعت تلك الطوائف مما جاءت به من تلك الفلسفات التي كان أربابها ليسوا على دين الأنبياء ولا حتى على دين الأنبياء المحرفة عن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لم يكونوا على دين الأنبياء التي أُدخل عليها من قبل الناس التحريف، وإنما كانوا على مللٍ من ملل الجاهلية المحضة، وهي شرٌّ من جاهلية العرب في موارد الربوبية ومسائل الربوبية.

ولذلكم وقع فيهم هذه الأنواع من الضلالات، والمعتبر عقلًا وشرعًا وفطرةً أن الله جل وعلا له المشيئة الشاملة والإرادة التامة، وما من شيء إلا بمشيئة الرب، لكن مشيئة الرب وإرادته جل وعلا لا تستلزم المحبة ولابد، ولهذا فإن الإرادة تقع ويُراد بها ما يحبه سبحانه وتعالى، وتقع الإرادة ويُراد بها التقدير والتكوين ولا تستلزم محبة الرب سبحانه وتعالى، كما سماها بعض أهل العلم بالإرادة الشرعية والإرادة الكونية القدرية.

فقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ما أراده هنا قد أحبه سبحانه وتعالى، وما يريده في مثل قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فإرادة الضلال هنا لا تستلزم المحبة، بل إن هذا مما لا يحبه الله وهو ضلال العباد، لكنه وقع بإرادته فلا يخرج شيء عن إرادة الرب جل وعلا.

ومعلوم أن الحكمة وأن الحق هو في جمعِ الأدلة الواردة، وما يقتضيه موجب الدليل من اجتماع الحق فيه، وأما تقسيم الأدلة فهذا مخالف لطرق الاستدلال الصحيحة، ومخالف للحقائق العقلية والفطرية السابقة المعلومة ضرورةً.

قال الله جل وعلا في أول آيةٍ ذكرها البخاري، قال: وقول الله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ومع أن الناس أي الملوك يبتغون من أمرِ السلطان ما يبتغون

لكن الله هو الذي يصير الأحوال وهو الذي يؤتي الملك مَن يشاء، مع سعي مَن يسعى إليه لكن الله يؤتيه مَن يشاء.

وكذلك قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾ [التكوير: ٢٩]، هو دليل على أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله من حيث الوجود، وإن كانت ليست تابعة من حيث التشريع ، فقد يشاء العبد الضلالة والشر والمعصية إلى آخره.

قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، هذا مما شرع الله لعباده، ألا يقولوا فيما يُستقبل من أمرهم وهي أفعالهم: إني فاعلٌ ذلك غدًا إلا أن يقيدوا ذلك بمشيئة الله، قال الله جل وعلا: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٤]، وهذا فيه فضلُ تحقيق التوحيد، وأن من تحقيق التوحيد أن يكون العبد حتى في فعله مستمسكًا بأمر الله سبحانه وتعالى وتدبيره، فلا يصير إلى أسباب نفسه، ولا إلى فعله، ولا إلى قدرته، مع أن هذه الأسباب له حقيقتها، وتلك القدرة من العبد لها حقيقتها، لكنها حقائق قاصرة.

ومما يُذكر في مقام هذه الآية الشريفة من قوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، وهو تنبيه يحسن التأكيد عليه، في حال الناس اليوم، فإنك ترى أن الله جل وعلا في هذه الآية أمر العباد فيما هو من قريب فعلهم ومقدورهم أن يقيدوه بمشيئة الله.

أما أنه من قريب فعلهم فهو دل عليه قوله: ﴿غَدًا﴾، وأما أنه قريب فعلهم؛ فلأن العبد يجزم به ويعلم قربه، فدائمًا الأشياء القريبة هي الأشياء اليسيرة، بخلاف الأشياء الكبيرة، فهي تحتاج إلى زمنٍ لإقامتها، فإنما قال العبد إنها غدًا، أو يقول مَن يقول من العباد إني أفعل ذلك غدًا لكونه يسيرًا.

وهو فعلٌ من العباد ولذلك قال الله: ﴿إني فاعلٌ ذلك﴾، فإذا تحقق هذا المعنى وهو أن ربنا جل وعلا قد أمر العباد فيما هو من قريب فعلهم ومقدورهم أن يقيدوه بمشيئة الله وأن تركَ ذلك ينافي تحقيق التوحيد، إذا أعرض عنه العبد، أو تركه.

ومن المشروع في التوحيد أن يحققه فيقرن أفعاله بمشيئة الله، وبين ذلك وذلك مقامات يتفاوت أربابها ولكن المقصود هنا في التقرير مع تقرير هذا المعنى الذي هو الأول في الآية إلا أنه يتضمن الدلالة على معنى آخر، وهو أن الله جل وعلا قد أمر العباد فيما هو من قريب فعلهم أن يقيدوه، ومقدورهم أن يقيدوه بمشيئة الله، فكيف إذا كان الشيء ليس من فعلهم بل هو من فعلِ الله جل وعلا.

وأقصد بذلك التنبيه على أمرٍ كثر فيه التساهل اليوم، وهو ما يتعلق بمواسم الأمطار والرياح وما يكون من حركة السحب وحركة الرياح، وما هي درجات الحرارة وغير ذلك، وهذه مسائل يدخلها الحساب والقياس، هذه مقدمة معلومة ليست مجهولة لكن كونها يدخلها القياس والحساب فيها مقامات:

المقام الأول: أن القياس والحساب يدخلها إلى قدرٍ وليس إلى كل قدر، يُقدَّر فيها، فقد يقع من البعض التجاوز للقدر المناسب للحساب أساسًا.

والثاني: أنه حتى في القدر الذي يدخله القياس والحساب هو أولى في مقام التذكير والتأكيد مما هو من محض فعل العبد، فإن هذه وإن دخلها شيء من مقام العلم بالحساب لكنه علمٌ ظني، يدخله التأخر ويدخله الاختلاف ويدخله النقص في الإدراك.. إلى غير ذلك.

فصرنا نسمع البعض من المسلمين هداه الله يتساهل في هذا الأمر، فيقول: اليوم الأربعاء يجي مطر، والثلاثاء ما راح يصير مطر، السبت يكون كذا، الأحد يكون كذا.. ولا يذكر مع ذلك مسألة المشيئة.

فهذا يقع بين خطأ من جهتين: إن كان القول قد جاوز الحساب المعروف والذي هو من مجريات السنن الكونية، فمَن زاد عن قدر هذا الحساب فقد دخل في مقامٍ من الرجم بالغيب، وأما مَن راعى مقام الحساب فيكون خطأه من جهة القطع، وخطأه من جهة تعليق الأمر بعدم ذكر مشيئة الله.

وبعض الناس لجهله قد يزين له الشيطان المجادلة بالباطل، فإذا ذُكر بهذا قال: أكيد أنه يقصد إذا قال ذلك أكيد إنه يقصد إن شاء الله، وأنه يؤمن بمشيئة الله.

ونقول: هذا صحيح، ما من مسلمٍ إلا وهو يؤمن بمشيئة الله، ولكن الإيمان قولٌ وعملٌ واعتقاد، لا يكفي أن تضمر المعنى في نفسك، هذا إن كان صادقًا أنه مستصحبٌ لذكره، وليس مستصحبًا لحاله، فبعض الناس عنده استصحاب الحال، وهذه نعلم يقينًا أن كل مسلم يستصحب الحال، الحال أن كل شيء بمشيئة الله لكن استصحاب الذكر المعين هذا مقام، استصحاب الذكر باللسان هذا المقام الذي شُرع، واللهُ قال لعبده وهو تشريعٌ عام، لسائر المؤمنين: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾ [الكهف: ٢٣]، الخطاب هنا في مسألة القول، وإلا الاعتقاد؟ هذا مقام بدهي.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾ [الكهف: ٢٣] لشيءٍ على الإطلاق ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣)﴾ [الكهف: ٢٣]، هذا مع أنه من مقدور العباد، فكيف بما هو من الأفعال ليس من مقدورهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، خمسٌ لا يعلمهن إلا الله.

اللي يشاهدون السحب، وهناك أنظمة علمية للقياس بأن حركة السحب بسرعة كذا، وأن ثقل البخار فيها كذا، وأنه إذا حصلت نسبة الحرارة مع هذه الرطوبة والبرودة يكون كذا، هذه مقاييس لها قدر من الواقع العلمي، فلو أن الناس يقفون إلى درجتها لا أقول: لكان الأمر صحيحًا كعبارة دقيقة، ولكن لكان الأمر أكثر تعقلًا، وإلا مسألة الصحة هذه

مسألة لها منطق آخر مختلف، هل إغراق الناس بمثل هذه المعلومات وكأن الكون يمشي على نظام، منفك عن مسألة الإرادة الربانية دون إدخال مسألة التدبير الإلهي وكأنها نظام طبيعي، وهذا تأثر من بعض أحوال غير المسلمين.

الواجب على المسلم أنه فيما كان من الدرجة العلمية المنضبطة إذا سار فيه لا يجاوز هذه الدرجة أولًا، ثم ما يخبر به من الدرجة العلمية؛ أي بموجب أو مقتضى الدرجة العلمية يخبر به ويقرنه بمشيئة الله وأنه ليس قطعًا.

لا قطع في هذه المسائل؛ لأن الذي يمضيها ويجريها هو اللهُ، وأنتَ ترى أن ذلك الأعرابي لما سأل النبي أن يستسقي، واستسقى رسول الله ربه سبحانه وتعالى، النبي لا ينزل الغيث، وإنما سأل الله؛ لأن الذي ينزل الغيث ليس الأنبياء، ولا يعلمه الأنبياء، وإنما ينزل الغيث هو رب العالمين سبحانه وتعالى.

فلم يكن في السماء قزعة من سحاب، ثم أجرى الله السحاب، فالله هو الذي يجري الرياح، ولهذا يخاطب الله العباد في هذا الأمر، في قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ﴾ [الشورى: ٣٣] في أمر الفلك في البحر، السفن، يخاطب الله العباد بقوله.. طبعًا الرياح تجري بأمره، قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣].

فالله هو الذي يجريه، والله ما ذكر أمر الرياح وأمر السحاب إلا مضافًا إلى محضِ فعله سبحانه وتعالى، فهذا مقام استمرأه مع الأسف كثير من الناس، صاروا يرسلون في الجوالات ونحوها وخاصة في مواسم الرحلات ونحو ذلك، لا خل الطلعة بعدين، بعد يومين، بكرة فيه غبار، اللي بعده فيه مطر، هذا أمر قد يكون، وله كما قلتُ بعض.. بعض الناس يقول: لا، العلم اكتشف هذا، أنتم ما عرفتم.

لا، العلم له قدرٌ من الحدود في هذه المسألة، له قدرٌ من الإدراك والحدود في هذه المسألة، ومعلوم طرق القياس في مثل هذا، نظامها العلمي معروف، لكن الذي يُعتب فيه

أو يُقال ليس من باب العتب؛ لأن هذا دين، الذي يُبين الخطأ فيه هو إما تجاوز درجة العلم المعتبرة عند أصحاب العلم في هذا، أيًّا كان أصحاب العلم؛ لأن تجاوز درجة العلم في هذا يدخل الإنسان في الرجم بالغيب، وإما البعض يقتصر على المعيار العلمي الدقيق في طرق القياس هذه والحساب ولكنه لا يبين ذلك بالمشيئة ذكرًا وإن كان مستصحبًا لها حالًا.

لكن الله شرع للعباد أن يقولوها، فمَن أراد أن يقول هذا الأمر لابد له أن يقول: إن شاء الله، وبمشيئة الله، وإذا أراد الله، وأما إخلاء اللسان من هذا، ثم إذا رُوجع فيه بعض الناس مع الأسف قال: لا، أكيد المسلم يقصد، أكيد ما نقصد.

وهذا من ألاعيب الشيطان بألسنة بعض الناس، حتى صار لمثل هذه الأمور ليس لها تلك القوة في نفوس بعض الصغار والنشيء؛ لأنهم تعودوا كأنها أمور تُؤخذ بنظام على الطبيعة فحسب، اللهُ جعل هذا الكون يجري على سنن، ما في شكٍّ أن الكون أجراه الله على أنظمة وسنن، والعلم يكتشف بعض هذه الأنظمة وبعض هذه السنن، ويتدرج في الاكتشاف مثل ما اكتشف نظام وقانون الجاذبية واكتشف أنظمة متعددة، وما الآن عالم الاتصالات الذي نشهده الآن، وأن القريب يسمع البعيد ويحادث البعيد الأبعد عنه الذي كان السابقون لا يتصورون بلوغه.

هذا ليس أن البشر هم صنعوا هذا، البشر اكتشفوا النظام أو جزء من النظام الكوني الذي يصنع أو جعل الله فيه هذا الانتظام في هذا الأمر، وإلا الموجات الصوتية ونحوها، البشر ما يصنعونها.

البعض يظن أنه أيضًا أن البشر هم اللي صنعوها، لا، هم صنعوا ترتيب الاستفادة من هذه الحقائق المستودعة في الكون.

الشاهد في ذلك أن المسلم يجب أن يقف متدبرًا هذه الآية، وهي أن الله أمر العباد فيما هو من قريب فعلهم ومقدورهم أن يقولوا: إن شاء الله، فقال الله لعبده: ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ**

لِشَيْءٍ ﴾ [الكهف: ٢٣] لشيءٍ، أي شيء، حتى لو تقابل صاحبك غدًا، أو تعطيه أمرًا يسيرًا مؤكدًا أنه بيدك، لكنه يبقى أنه ليس مؤكدًا في الحقيقة الكونية؛ لأنك قد تموت قبل أن تعطيه، قد يموت قبل أن يأخذ منك، وقد يحصل من العوائق ما يحصل، فما شيءٌ إلا والله جل وعلا محيط به.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، ولهذا لما وقع الكسوف في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، كسفت الشمس، قال النبي: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموتِ أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وصلوا وتصدقوا**» إلى آخره، مع أن الكسوف يقع بنوعٍ من الحساب، لكن كونه يقع بنوعٍ من الحساب لا ينفي كونه قد أجراه الله تخويفًا للعباد.

(شرحٌ آخر لنفس المتن السابق)

الحمد لله والصلاة والسلام على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام البخاري رحمه الله: باب فِي الْمَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ؛ أي مشيئة الرب وإرادته، والإيمان بعموم مشيئة الله وإرادته، وأن الله جل وعلا ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه سبحانه وتعالى يعذب عن مشيئته وعن علمه شيء، وكل شيء فهو بعلم الله، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

فهذا مقامات توحيد الله سبحانه.

والكتاب سماه الإمام البخاري رحمه الله: كتاب التوحيد، فهذا قوله: بابٌ في المشيئة والإرادة؛ أي فيما جاء من كتاب الله، وما جاء في السنة، فذكر فيه جملة من الرواية التي أوردها في صحيحه.

وقوله جل وعلا: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾؛ هو من أدلة أهل السنة والجماعة على مشيئة العباد، ومن أدلتهم على أن مشيئة العباد تابعة لمشيئة الله، وهم وسطٌ في ذلك، بين الجبرية الذين جعلوا العبد مجبورًا على فعله، ولم يجعلوا للعبد مشيئةً، ويقاربهم الكسبية

القائلون بالكسب؛ بأن العبد كاسب، ومعنى كونه كاسبًا على طريقتهم، وإلا فالعبد في الشريعة كاسب، ولكنه لا يختص بالكسب.

الله يقول: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولكن لم يُضف إلى النفس، إلى الآدمي الكسب، فتخصيص ذلك بالكسب فهذا قصرٌ عن خطاب الشريعة والخطاب القرآني من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن تفسير الكسب أيضًا خطأ مجانب لمقصود الشريعة من الكسب المضاف إلى العبد، وإلى النفس البشرية.

فإن الخطأ يكون من جهتين؛ من جهة القصر، ومن جهة تفسير المعنى، وهو مقارب لطريقة الجبرية، وإن قال به كثيرٌ من المنتسبين للسنة والجماعة، من المتكلمين، ومن تأثر بطريقتهم من الفقهاء المتأخرين، ولكنه قولٌ مخالف لإجماع السلف، ومخالف لصريح القرآن، وليس من أقوال أئمة السنة في شيء.

وإنما الذي عليه أئمة السنة والجماعة وهو إجماع الصحابة، وهو صريحٌ في كتاب الله؛ أن العبد له مشيئة تابعة لمشيئة الله، وهذا صريح في قوله الله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾ [التكوير: ٢٩].

فالعباد لهم مشيئة، والله يقول في عباده: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، ولكن مشيئتهم وإرادتهم لا تخرج عن مُلك الله، وتدبيره ومشيئته سبحانه وتعالى.

وجماع ذلك في قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾ [التكوير: ٢٩].

وقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وهذا أيضًا دليل على قصور مشيئتهم، وقصور إرادتهم، فإن العبد إذا قال: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ

﴿غَدًا﴾؛ هو إخبارٌ عن إرادته الفعل، أليس كذلك؟ وليس إخبارًا عن الفعل؛ لأنه يكون في الغد، فلم يقع الفعل بعد من جهة الزمان.

فقال الله جل وعلا في كتابه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

مع أن ما يقول العبد فيه أنه فاعله غدًا هو من مقدور العبد، كما لو قال: أسافر غدًا، هو من مقدور العبد، ولكنه في مقدوره مشيئته ليست تامة؛ لأن العبد لا صفة له تامة، بخلاف الخالق سبحانه وتعالى فصفاته صفات الكمال، أما العبد المخلوق، فجميع صفاته يعتريها النقص، فعلمهم يعتريه النقص، علمٌ مكتسب، إلا من اصطفاه الله بالنبوة والرسالة، وإلا العلماء علمه مكتسب، يكتسبون العلم، ويتعلمون العلم، ويعتريه ويدخله النسيان، ويدخله الاختلاط أحيانًا، والنقص وما إلى ذلك.

فصفات العباد قاصرة، والخالق سبحانه وتعالى له صفات الكمال، والله يقول: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾؛ فيما هو من مقدور العباد، وإذا كان الله أمر العباد بذلك فيما هو من مقدورهم، فكيف إذا كان الشيء ليس من مقدورهم.

ومما تساهل فيه الناس ما يتتبعون فيه بعض الجهات الأرصاد ونحوها من الإخبار عن وقوع الأمطار، وأحوال السماء من جهة ورود المطر، أو ورود الرياح، وما إلى ذلك.

فهذا أمرٌ فيه قدرٌ من الحساب الذي يمكن تقديره، ولكن هذا الحساب قابل للزيادة والنقصان، ولكن فيه قدرٌ حسابي معروف، ولكنه قابل للزيادة والنقصان، أو يكون من الرصد، من شيء سائر، فيكون من نوع الحساب السابق.

ولكن على كل الأحوال فأمر هذا إلى الله سبحانه وتعالى، فهو الذي بيده ذلك، وهو الذي يرسل الرياح، وهو الذي عنده علم الساعة، كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ

﴿عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]، فما يكون من أمر الغيث والمطر، وحركة الرياح هذا من تدبير الله وحده لا شريك له.

فإذا كان الله جل وعلا قد أمر العباد فيما هو من مقدورهم أن يقولوا إن شاء الله فمن باب أولى يجب عليه من يقول ذلك فيما هو ليس من مقدورهم.

قال الله جل وعلا: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾، مع أن الرغبة في الملك مشيئة للعباد، الذين يرغبون الملك، أو أصحاب السلطان لكن الله سبحانه وتعالى بيّن أن من يصير إليه الملك فهو بمشيئة الله، مع أن حال السلطان في الأصل حال القوة، أليس كذلك؟

ومع ذلك فهذا التمكين الذي يمكن لأصحاب الولاية أو أصحاب السلطان، هذا التمكين هو بمشيئة الله سبحانه وتعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

وهذا يدل على تأخر مشيئة العبد، وأن المشيئة النافذة التامة هي مشيئة الخالق وحده لا شريك له، وإذا كان هذا في حق النبي عليه الصلاة والسلام مع ما أتاه الله من القبول، والاستجابة لدعوته، وغير ذلك، واستجابة الله لدعاء نبيه، إلا أن الله جل وعلا شاء أن أبا طالب لا يسلم، شاء الله ذلك.

وأنزل الله سبحانه وتعالى في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وإلا فالنبي دعاه وأحب إسلامه، وجاء في الصحيحين حديث سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال له النبي: يا عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله، فقالها أبو طالب، ثم قال له أبو جهل: أترغب عن ملة عبد المطلب، فتركها، وقال: هو على ملة عبد المطلب، ولم يزل رسول الله يعرضها له، ويعيد له تلك المقالة، حتى كان آخر ما

قال أبو طالب: هو على ملة عبد المطلب، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: لأستغفرن لك ما لم أنهى عنك، فأنزل الله جل وعلا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فالهداية بمشيئة الله سبحانه وتعالى وحده.

وقول الإمام البخاري رحمه الله: باب فِي الْمَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ.

وإرادة الله سبحانه وتعالى تأتي على معنى الأمر والمحبة، فتضمن هذا، وتكون إرادته كما يسميها كثيرٌ من أهل العلم بالإرادة الشرعية، كقول الله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

وتأتي الإرادة، ويراد بها الإرادة العامة على معنى المشيئة العامة، وهنا تكون إرادته سبحانه وتعالى بمعنى مشيئته العامة الشاملة.

ومن هنا تتعلق الإرادة العامة بسائر مفعولات العباد، وأما المشيئة الشرعية فإنها متعلقة بالاستجابة.

(المتن)

٧٥٥٤- عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِذَا دَعَوْتُمُ اللَّهَ فَاعْزِمُوا فِي الدُّعَاءِ، وَلاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ مُسْتَكْرِهَ لَهُ».

(الشرح)

شرحُ حديث أنس: «إِذَا دَعَوْتُمُ اللَّهَ فَاعْزِمُوا فِي الدُّعَاءِ»:

هكذا جاء في حديث أنس، «**فَإِنَّ اللَّهَ لاَ مُسْتَكْرِهَ لَهُ**»، ولذلك لا يُعلق الدعاء؛ دعاء الطلب في المسألة لا يُعلق بالمشيئة ليكون ذلك عزمًا من العبد، والله كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام هو الكريم جل وعلا، فإن الله لا مستكره له.

(المتن)

٧٥٥٥- عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ، أَنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ -عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ- أَخْبَرَهُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةً فَقَالَ لَهُمْ: «أَلاَ تُصَلُّونَ؟». قَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهْوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ: «﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾».

(الشرح)

شرحُ حديث علي بن أبي طالب أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ لَيْلَةً:

وهذا الحديث وفيه قول علي رضي الله عنه: إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فقول علي هذا من حيث التجريد هو كذلك، نفوس العباد بيد الله سبحانه وتعالى، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يدبر أمر العباد في يقظتهم وفي نومهم، وهم بمشيئة الله سبحانه وتعالى، وهو الميسر لعباده: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨)﴾ [الأعلى: ٨].

ولكن لما وقع ذلك جوابًا على قول النبي لعلي وفاطمة رضي الله عنهم: «**أَلاَ تُصَلُّونَ؟**»، لم يكن هذا الجواب كما أحب النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك قرأ عليه الصلاة والسلام: «﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾».

ولكن يوقف إلى هذا القدر؛ بمعنى لا يُظن أن علي رضي الله عنه، كان يرى تعطيل السبب، وهو من أئمة الصحابة، ومن سادات المسلمين، وفقهائهم، ولكن الذي حمله على هذا القول فيما يظهر والله أعلم، هو حياء علي رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم، فلما بلغ به الحياء من رسول الله هذا المبلغ أجاب بهذا الجواب، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لئلا يُؤخذ عن هذا الجواب معنى ليس مقصودًا في نفس علي، ولا مقصودًا

في الشريعة من حيث الأصل، فقال عليه الصلاة والسلام وتلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾، فهو يعرف مقام علي هنا، وأنه فعل ذلك حياء من النبي صلى الله عليه وسلم، وليس تقريرًا لما في نفسه على الإطلاق وفي سائر الأحوال فإن هذا المعنى من قدر الله، وأن الأسباب من قدر الله، هذا المعنى لا يخفى على آحاد المسلمين، فضلاً عن إمام من كبار أئمة الدين، وهو علي، أو عن أفضل نساء المؤمنين ونساء العالمين، وهي فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ورضي الله عنهما.

(المتن)

٧٥٥٦- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضى الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرْعِ، يَفِيءُ وَرَقُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ تُكَفِّئُهَا، فَإِذَا سَكَنَتِ اعْتَدَلَتْ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكَفَّأُ بِالْبَلاَءِ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرْعِ»:

وهذا حديث أبي هريرة، وفيه أمر مشيئة الرب سبحانه وتعالى، وإنما يكون للمنافق أو يكون للمؤمن، فإن ذلك كله بمشيئة الله سبحانه وتعالى، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]؛ أي النعم والمصائب، ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وفي هذا الحديث من الفقه؛ أن أمر المؤمن يعرض له البلاء، وأن المنافق قد يُملى له في نفاقه أو الكافر في كفره، والله جل وعلا إذا أملى للكافر في كفره، أو المنافق في نفاقه، فهو كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، والمؤمن غير قادر البلاء بفعله، ولكنه إذا أُبتلي فإنه يصبر على ما يقدره الله من البلاء، والبلاء أنواع، والبلاء غير العقوبة، وكثيرٌ من الناس اختلط عليه البلاء بالعقوبة.

والله سبحانه وتعالى يبتلي المؤمنين، وبلاءه إياهم هو من رفع درجاتهم، بخلاف العقوبة، فإنها موردٌ آخر.

(المتن)

٧٥٥٧- عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهْوَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ، كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُعْطِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ، فَعَمِلُوا بِهَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ، فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صَلاَةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيتُمُ الْقُرْآنَ فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأُعْطِيتُمْ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، قَالَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَقَلُّ عَمَلاً وَأَكْثَرُ أَجْرًا. قَالَ هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لاَ. فَقَالَ فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ».

(الشرح)

شرحُ حديث عبد الله بن عمر: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ»:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمدٍ وآله وأصحابه.

هذا ضمن قول الإمام البخاري رحمه الله: باب فِي الْمَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ، وتقدم القول في ذلك، وهذا حديث عبد الله بن عمر: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهْوَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ: **«إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ، كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ»**، ثم ذكر أهل التوراة والإنجيل، ثم أوتيت هذه الأمة بالقرآن، وفيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: **«فقال الله: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»**.

وهذا هو الحرف الصريح في المناسبة، وإن كان الحديث بعموم جملة يدل على مقصود المصنف من جهة ذكر مشيئة الرب وإرادته في أفعاله في عباده، وما يؤتيه الله من الفضل بمقتضى المشيئة والإرادة، وما يُقدره الله لخلقه.

(المتن)

٧٥٥٨- عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي رَهْطٍ فَقَالَ: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلاَ تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأُخِذَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهْوَ لَهُ كَفَّارَةٌ وَطَهُورٌ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَذَلِكَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ».

(الشرح)

شرح حديث عبادة بن الصامت: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا»:

هذا حديث عبادة بن الصامت، قال: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وهذه المبايعة في الدين، وهي غير مبايعة ولي الأمر بالحكم والسلطان، هذه المبايعة في الدين خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، فهو الذي يبايع الناس في دينهم؛ في الإسلام وفي إقامة شعائره، كما جاء في هذا الحديث؛ قال: بايعت رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي رَهْطٍ فَقَالَ: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا»، إلى آخره.

فهذه المبايعة في الدين خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

والشاهد في ذلك، أو مناسبة الحديث؛ حديث عبادة للباب قوله صلى الله عليه وسلم: «وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ»؛ أي من أتى شيئًا من هذه المعاصي، «فَذَلِكَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ».

وهذا متفقٌ مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

(المتن)

٧٥٥٩- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- كَانَ لَهُ سِتُّونَ امْرَأَةً فَقَالَ: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى نِسَائِي، فَلْتَحْمِلْنَ كُلُّ امْرَأَةٍ وَلْتَلِدْنَ فَارِسًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَطَافَ عَلَى

نِسَائِهِ، فَمَا وَلَدَتْ مِنْهُنَّ إِلاَّ امْرَأَةٌ وَلَدَتْ شِقَّ غُلاَمٍ. قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَوْ كَانَ سُلَيْمَانُ اسْتَثْنَى لَحَمَلَتْ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ، فَوَلَدَتْ فَارِسًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- كَانَ لَهُ سِتُّونَ امْرَأَةً:

نسي-عليه الصلاة والسلام، ولم يقل: إن شاء الله، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لَوْ كَانَ سُلَيْمَانُ اسْتَثْنَى**»؛ أي قال: إن شاء الله، كما جاء في الرواية الأخرى في الصحيح، فقال له صاحبه الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل ونسي، فلم تأت واحدة منهن إلا واحدة جاءت بشق غلام.

وهذا يدل على مشروعية تعليق الأمور بمشيئة الله، في سائر الأمور، سواء كان من مقدور البشر، أو ليس من مقدور البشر، كل ذلك يقال فيه: إن شاء الله، وينبغي أن يُعلّم الصبيان ذلك، وأن يكون هذا من السنن التي تجري على الألسنة أن يقال ذلك، كما أمر الله عباده بذلك في قوله: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

وهذا أثر مشيئة الله سبحانه وتعالى، وهذا يدلك على أن الأسباب التي أمضاها الله سبحانه وتعالى، إنما يمضي أثرها تبعًا لمشيئة الله سبحانه وتعالى، وإلا قد يوجد السبب، ولا يكون هذا السبب من حيث هو مقتضيًا وجود المسبب، نعم.

(المتن)

٧٥٦٠- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضى الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ عَلَى أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ فَقَالَ: «لاَ بَأْسَ عَلَيْكَ طَهُورٌ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ». قَالَ: قَالَ: الأَعْرَابِيُّ طَهُورٌ، بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ، تُزِيرُهُ الْقُبُورَ. قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «فَنَعَمْ إِذًا».

(الشرح)

شرحُ حديث ابن عباس: «لاَ بَأْسَ عَلَيْكَ طَهُورٌ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ»:

هذا حديث عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، وفيه قصة زيارة النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الأعرابي، وجاء في حديث أنس في الباب نفسه، الذي تقدم معنا، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: **«ولا يقولن أحدكم إن شئت فأعطني، فإن الله لا مستكره له»**.

فهذا النهي الذي جاء في عدم تعليق المسألة على المشيئة إذا كان على مقام الدعاء، فإنه يدعو الله حزمًا، ولا يُعلّق ذلك على المشيئة باعتبارها مسألةً لله سبحانه وتعالى.

وأما ما جاء في حديث ابن عباس، وأن النبي قال للأعرابي: **«لاَ بَأْسَ عَلَيْكَ طَهُورٌ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ»**، باعتبار العاقبة، وليس المشيئة هنا ذُكرت باعتبار المسألة، فإنما باعتبار العاقبة والإجابة بشأن هذا الأعرابي، وأما باعتبار المسألة فإن المسألة لا تُعلّق المسألة بالاستثناء، وهذا ما جاء في حديث أنس.

فهما حديثان ليس بينهما تعارض، بل هذا واقع على نفس المعنى الذي وقع عليه السابق، فهذا باعتبار العاقبة، وهنا قال النبي للأعرابي: **«لاَ بَأْسَ عَلَيْكَ طَهُورٌ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ»**، طهورٌ؛ أي :عاقبته إن شاء الله، فلما كان عليه الصلاة والسلام يذكر له العاقبة، قال: **«إن شاء الله»**.

وما نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام، هو في أصل المسألة، وأصل المسألة سابق لأمر العاقبة.

فهذا هو درء الإشكال بين هذه الرواية؛ رواية أنس، ورواية ابن عباس، لمن بدأ له إشكال، وإلا فالأصل لا يعني أن هذا الإشكال قائم ولابد، والإشكال من الأصل لم يكن، لكن من عرض له الإشكال، فيقال له هذا الجواب، أو نحوه.

بعض أهل العلم أجابوا بإجابات، لكن بعضها فيه نظر، لكن هذا فيما يظهر من الحديث أنه ليس محل إشكال في أصله؛ لأن هذا إنما هو في أصل المسألة، والمؤمن إذا طلب الله وسأل الله فإنه يسأله ولا يُعلّق ذلك بالمشيئة، لا يقول: اللّهم اغفر لي إن شئت، اللّهم

ارحمني إن شئت، اللّهم احفظني إن شئت، وإنما يقول: اللّهم اغفر لي، واللّهم ارحمني إلى آخر الكلام.

وأما إذا أخبر عن عاقبة ولو ولت هذه العاقبة الدعاء، أو كانت بأثره، فإن هذه العاقبة تُذكر فيها المشيئة .

مثلًا؛ إذا قيل: حجٌ مقبول، فإذا كان على سبيل أنه يدعو الله أن يتقبل منه، فيقول: اللّهم اجعله حجًا مقبولًا، أو حجًا مبرورًا، وأما إذا كان يخبر عن العاقبة، أن من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته، والحج المبرور ليس له جزاءً ..، فقيل له حجٌ مبرور، وقال: إن شاء الله باعتبار العاقبة فهذا على معنى قول النبي طهور إن شاء الله.

ففرقٌ بين هذا المورد وهذا المورد، هذا وقع على محل، وهذا وقع على محل.

(المتن)

٧٥٦١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ أَبِيهِ، حِينَ نَامُوا عَنِ الصَّلاَةِ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا حِينَ شَاءَ». فَقَضَوْا حَوَائِجَهُمْ وَتَوَضَّئُوا إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَابْيَضَّتْ فَقَامَ فَصَلَّى.

(الشرح)

شرحُ حديث أبي قتادة: «إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ»:

وهذا حديث أَبِي قَتَادَةَ، جاء في سياق طويل، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة عرض لهم النوم، فناموا عن صلاة الفجر، وهم في سفر، وبيّن النبي صلى الله عليه وسلم أمرين في ذلك؛ بيّن الأمر المتعلق بالإيمان، وأن الله سبحانه وتعالى قبض أرواحهم إن شاء ردها، وإن شاء أمسكها.

وبيّن في ذلك الحديث؛ في حديث أبي قتادة في سياقه المفصل، وهو في الصحيح أيضًا، بيّن عليه الصلاة والسلام، كما في رواية مسلم وغيره، بيّن أن هذا ليس من التفريط، وقال:

إنه ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من يصلي الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى، فالنوم من حيث هو لا تفريط فيه.

ولكن تُستدعى الأسباب التي تدرء أن الإنسان لا يجعل النوم عادة له، فإذا أصبح النوم عادة له عن الصلاة، فهذا محلٌ آخر.

(المتن)

٧٥٦٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ فِي قَسَمٍ يُقْسِمُ بِهِ، فَقَالَ: الْيَهُودِيُّ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَطَمَ الْيَهُودِيَّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى»:

هذا الحديث يدل على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من العدل في الشأن، وهو مصداق قول الله جل وعلا: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وترى هذا اليهودي لما لطمه هذا الرجل، ذهب للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لما يعرف عند النبي من العدل والإنصاف.

فهذا العدل والإنصاف في مقام الرسول عليه الصلاة والسلام كان يعرفه حتى اليهود، فكان مستفيضًا في العالمين، ولذلك عرفه اليهود، وعرفه مشركو العرب من قبل في مكة، وهكذا.

فقال النبي: **«لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى»**، مع أن النبي صلى الله عليه و سلم هو أفضل الرسل، وهو سيد ولد آدم كما جاء في الصحيح، وهذا الأمر متفق عليه، هذا أمرٌ متفقٌ

عليه؛ أن النبي هو خير المرسلين، ولكن قوله عليه الصلاة والسلام: **«لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى»**، هذا باعتبار أن التخيير؛ يعني ابتغاء المعنى الذي في أصله صحيح لا يكون من حيث الإيراد صحيحًا، فإذا قلت أن النبي هو أفضل الرسل فهذا قولٌ صحيح، وأما أخذ المعنى، وقطعه عن سياقه، وجعل ذلك على سبيل الممانعة، أو على سبيل المغالبة، فهذا الاستعمال من حيث الطريقة هو الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الحق يورد بحسب سياقه.

ولذلك كان ابن عباس يقول: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذب الله ورسوله؟ ويقول ابن تيمية عند هذه الكلمة: إذا كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول هذا فيما كان من قول الله ورسوله، فمن بابٍ أولى فيما إذا كان القول ليس من قول الله ورسوله، حتى ولو كان من الحق الذي يقوله أهل العلم.

فإذن السياسة الشرعية في الحديث فهو عليه الصلاة والسلام قال بحضرة أصحابه: **«أنا سيد ولد آدم، وهل تدرون بما ذاك»**، ثم بيّن أن الشفاعة العظمى تكون له، أليس كذلك؟

وهذا الأمر مستفيض من حيث الدليل، ولكن لما وقعت هذه الواقعة المعينة، فهذا الاستعمال لم يكن الاستعمال الذي تريده الشريعة؛ لتفضيل النبي، (هذا الذي هو على..) أو منتسب إلى ديانة موسى، فتقول له: إن محمد أفضل من موسى، أو تأتي لمن ينتسب إلى ديانة عيسى، وتقول: محمد أفضل من عيسى، بل الذي جاء في القرآن: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فالمقصود مقام نفي التفريق لا ينفي أن النبي هو أفضل الرسل، وهما أمران شرعيان؛ الأمر الأول: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾، والأمر الشرعي الثاني: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وهذا يصدق هذا، لا ينافيه.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] باعتبار المبدأ، والصفة، وقوله: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ في الإيمان بهم جميعًا من جهة، وفي ترك المغالبة في هذا الشأن من جهة، وهذا المعنى من الحق لا يغالب به، بحيث يؤثر على نفوس بعض الناس وقد يمنعه أو يباعده عن الاهتداء.

وهذا من معنى الحكمة الشرعية، وهي التي جاءت في مثل قول ابن عباس، وكبار الفقهاء من الصحابة على هذا المعنى، كقول ابن مسعود: ما أنت محدث قوم حديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة، ومثل ما في كلمة ابن عباس: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذب الله ورسوله.

وهذا يدلك على أن المعنى من الحق قد يُخبر في سياقه، ولهذا الشريعة لها قواعد ولها أحكام، ولها موارد، وهذه الحكمة الشرعية التي يؤتيها الله سبحانه وتعالى، ويسدد إليها من يشاء من عباده ممن يبلغون أمرها.

الشاهد في الحديث أن النبي ذكر موسى عليه الصلاة والسلام، وذكر الصعق، فقال عليه الصلاة والسلام: **«فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ»**، وهذا فيه دليل على أن النبي لا يعلم الغيب، وفيه دليل على أن أمر موسى في هذا الأمر الله أعلم به؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«فلا أدري»**.

(المتن)

٧٥٦٣- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضى الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «الْمَدِينَةُ يَأْتِيهَا الدَّجَّالُ فَيَجِدُ الْمَلاَئِكَةَ يَحْرُسُونَهَا فَلاَ يَقْرَبُهَا الدَّجَّالُ وَلاَ الطَّاعُونُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

(الشرح)

شرحُ حديث أنس: «الْمَدِينَةُ يَأْتِيهَا الدَّجَّالُ فَيَجِدُ الْمَلاَئِكَةَ»:

أيضًا هذا قول النبي في المدينة، على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال، فقال عليه الصلاة والسلام: **«فَلاَ يَقْرَبُهَا الدَّجَّالُ وَلاَ الطَّاعُونُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»**.

وقوله: « **إِنْ شَاءَ اللَّهُ** »؛ هذا كما سبق باعتبار العاقبة التي يُخبر بها النبي، فأُخبر بهذا الأمر، ثم بيّن أن عدم مجيء الدجال أو دخول الدجال والطاعون المدينة هو بمشيئة الله.

وفيه أن الخبر الصادق المقطوع به يُذكر معه مشيئة الله، حتى ولو كان الخبر صادقًا مقطوعًا به؛ لأن هذا خبرٌ صادق قد قُطع به، ولكن لأن ما يقع بأمر الله، فكونه مقطوعًا به لا يدل على التردد إذا ذُكرت المشيئة، ومنه هذا الحديث.

ومنه في القرآن: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ**﴾ [الفتح: ٢٧]، وهذا مع أنه مقطوع به.

(المتن)

٧٥٦٤- عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ، فَأُرِيدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ»:

هذا الحديث جاء على روايتين في ذكر المشيئة في الصحيح، رواية التي ذكرها المصنف، ورواية أخرى أيضًا؛ لأن الحديث متفقٌ عليه.

الرواية الأخرى: أن النبي قال في حديث أبي هريرة: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**».

فذُكرت المشيئة ليس باختبائها ولا في هذه الرواية: «**فَأُرِيدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَخْتَبِيَ**»، وفي تلك الرواية: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دَعْوَتِي**»، ما ذُكرت المشيئة هنا، قال: «**وإني اختبأت دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، ذُكرت المشيئة آخر الحديث، قال: «**فهي نائلةٌ إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**».

فكلا الروايتين ذُكرت المشيئة، هذه الرواية ذُكرت المشيئة في صدر الحديث، وتلك في آخره، وهذه في محل، وتلك في محل.

(المتن)

٧٥٦٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ فَنَزَعْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَنْزِعَ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا عُمَرُ فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ حَوْلَهُ بِعَطَنٍ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ»:

هذا الحديث حديث سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهي رؤيا منام رآها النبي، ورؤيا الأنبياء حق، وهذا ليس من تفضيل عمر على أبي بكر، فإن هذا قد استقر أمره، واستفاض دليل؛ أن أبا بكر قد سبق غيره، رضي الله عنهم جميعًا.

وإنما هذا والله أعلم في بعض شأنه، إما في شأن الخلافة، أو في شأن آخر، فإن الأحوال قد يكون لبعض الصالحين من الشأن في باب ما يساق فيه له من الخير، ولكن لا يكون هذا باعتبار الجملة.

وبعضهم قال: إن هذا في شأن الخلافة، وهذا الله أعلم به؛ لأن هنا الأمر دخل ليس في باب الحديث، وإنما دخل في تأويل الرؤيا، فهذا باب آخر، فأصبح الآن بحث في دلالة الروايات، هذا دخل في تأويل الرؤيا.

وإذا نظرت إلى أمر الخلافة فخلافة أبي بكر وقعت على حال، وحصل فيها أمر المرتدين وما إلى ذلك، وخلافة عمر رضي الله عنه وقعت على حال، والله أعلم بما كان لهذا، وما كان لهذا عند الله.

لكن من حيث الفضل، هذه المسألة قد استقرت.

والشاهد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«فَنَزَعْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَنْزِعَ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ»**، وهذا قالوا قصر مدة خلافة أبي بكر، أو ما إلى ذلك، الله أعلم بذلك.

(المتن)

٧٥٦٦- عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَتَاهُ السَّائِلُ -وَرُبَّمَا قَالَ جَاءَهُ السَّائِلُ- أَوْ صَاحِبُ الْحَاجَةِ قَالَ: «اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا شَاءَ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي موسى الأشعري: «اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا»:

الشفاعة؛ شفاعة المسلم للمسلم، الشفاعة في الأمور التي تناسب الشفاعة هي عملٌ صالح، ولهذا رُتب عليها الأجر من حديث أبي موسى: **«اشفعوا تؤجروا»**.

وإن كانت هذه الشفاعة لا تعني أن هذه الأسباب هي التي توجب وصول أو تحقق المسبب، وهذا معنى قول النبي: **«وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا شَاءَ»**؛ أن الله هو الذي يقضي، فتحقق المسببات ليس بأمر الأنبياء، وليس بأمر أحد من عباد الله، وإنما هو بمحض أمر الله سبحانه وتعالى.

(المتن)

٧٥٦٧- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ، وَلْيَعْزِمْ مَسْأَلَتَهُ، إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لاَ مُكْرِهَ لَهُ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ»:

هذا حديث أبو هريرة، وهو على معنى حديث أنس السابق؛ وهو أن إقبال العبد على ربه يسأل ربه المغفرة أو الرحمة أو غير ذلك، فإنه لا يقطع هذا الأمر بالاستثناء، وإنما يعزم المسألة، فإذا ذكر أمر الوقوع والعاقبة والمفعولات البشرية التي يريد أن يفعلها، فهذا هو الذي تُذكر فيه مشيئة الله، وأما إذا دعا ربه وسأل ربه، فإنه يسأل ربه على العزم، ولا يكون في مسألة العبد لربه، لا يكون فيها الاستثناء الذي هو أن يقول: اللّٰهم ارحمني إن شئت.

(المتن)

٧٥٦٨- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضى الله عنهما- أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ وَالْحُرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ فِي صَاحِبِ مُوسَى أَهُوَ خَضِرٌ، فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ الأَنْصَارِيُّ، فَدَعَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَى الَّذِي سَأَلَ السَّبِيلَ إِلَى لُقِيِّهِ، هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَذْكُرُ شَأْنَهُ، قَالَ: نَعَمْ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «بَيْنَا مُوسَى فِي مَلإٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ فَقَالَ مُوسَى: لاَ، فَأُوحِيَ إِلَى مُوسَى بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ. فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَى لُقِيِّهِ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ. فَكَانَ مُوسَى يَتْبَعُ أَثَرَ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ فَقَالَ فَتَى مُوسَى لِمُوسَى: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، قَالَ مُوسَى ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا خَضِرًا، وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ اللَّهُ».

(الشرح)

حديث ابن عباس أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ وَالْحُرُّ بْنُ قَيْس بْن حِصْنِ الْفَزَارِيُّ فِى صَاحِبِ مُوسَى:

هذا في حديث أبي بن كعب الأنصاري، وابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وفي من أمر الخضر صاحب موسى، ما ذُكر في هذا الحديث، وأمر الخضر ذُكر مفصلًا في القرآن، وهو رجل صالح من الصالحين.

وما جاء في الحديث أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى موسى أن عبدًا من عبادي في مجمع البحرين هو أعلم منك، فهذا المقصود منه؛ أنه أعلم ببعض الأمر، ولذلك قال الخضر لما لقيه موسى: إنك على علم من علم الله، وأنا على علم من علم الله لا تعلمه.

فالعلم الذي خص به الخضر، أو كان عند الخضر ولم يكن عند موسى هو ما كان من أمر السفينة، وما كان من أمر الغلام، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي بن كعب، قال: «**إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافرًا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرا**».

فالله سبحانه وتعالى صيّر عند الخضر فيه من العلم ما ليس عند موسى في أمر السفينة، وفي أمر الغلام، وفي أمر الجدار، لذلك لم يكن على ظاهر الحال.

ولكن هذا العلم الذي صار للخضر في هذه المقامات الثلاث لا يوازي العلم الذي اصطفى الله به عبده، وكليمه موسى عليه الصلاة والسلام.

ومن هنا لم يختلفوا في أن موسى والأنبياء خيرٌ من الخضر، وأعلم بالله، وهذا هو حد أمر الخضر؛ أنه عبدٌ من عباد الله الصالحين، وليس من الأنبياء، وإنما هو رجلٌ صالح أتاه الله علمًا، وتكلم من تكلّم في نبوة الخضر، ولكن هذا المعتبر أنه من عباد الله الصالحين، وأتاه الله علمًا، كما هو صريح القرآن، قال: ﴿ **فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥)** ﴾ [الكهف: ٦٥]، فهو علمٌ مقطوع عن السبب من هذا الوجه.

فمن هنا لم يعرفه موسى، أو لم يعلمه موسى عليه الصلاة والسلام، لكن لا يدل على أنه أفضل، أو أعلم.

وأما ما بُني على أمر الخضر من الخرافات عند كثيرٍ من الصوفية، فهذا من الضلالات التي لا أصل لها في دين المرسلين جميعًا؛ كقول من يقول: إن الخضر ومن هو على طريقته هم أهل الحقيقة، وأولئك أهل الشريعة، أو هؤلاء هم أهل الباطن، وأولئك أهل الظاهر، فإن كل هذا من الضلالات، ويلزم عليه من اللوازم الباطلة ما لا يُحصى.

ومن أخص الباطل الذي يلزم عليه أن يكون هؤلاء الذين يسمون بأهل الحقيقة أو نحو ذلك أن يكون هؤلاء، أو أن تكون طريقتهم أفضل من طريقة أئمة الرسل وأولي العزم من الرسل.

فإذا كان موسى ليس من أهل الحقيقة، وغيره هو من أهل الحقيقة، وإذا كانت الحقيقة لا تتلقى من النبوة، وإنما تتلقى من بعض الصالحين، فهذا لا شك أنه من أوجه الضلال، فقد بُني على أمر الخضر من الخرافات ما بُني، حتى تكلم بعض هؤلاء في بقاء الخضر، وفي أنه لقي الخضر، وفي أنه قابل الخضر، وجاءه الخضر، وأخبره الخضر، وكل هذا من الباطل الذي لا ينبغي، أو لا يحتاج إلى رد من جهة سقوطه.

فالخضر رجلٌ من الصالحين، وعبدٌ من عباد الله، تفضل الله عليه بالرحمة، وتفضل الله عليه بالعلم، كما في صريح القرآن، وهو على علم من علم الله، وموسى على علم من علم، ولكن العلم الذي كان عند موسى أبلغ من العلم الذي كان عند الخضر.

ولذلك المقام الذي ذُكر فيه التفضيل في العلم؛ هي مقامات ثلاثة في القرآن: أمر السفينة، وأمر الغلام، وأمر الجدار، وأنت تعلم أن هذه الأمور الثلاثة فواتها ليس كفوات أصول العلم الإلهي، والشرائع التي عليها مدار عبادة الناس، وما إلى ذلك.

فهو علمٌ دون علم الأنبياء ولا شك، ولكن هذا من حكمة الله مع عبده عليه الصلاة والسلام، ونبيه موسى.

فأمر الخضر قد انتهى وهو رجلٌ صالح، وحتى ما ذُكر في شأنه ليس محل للاقتداء، عندما ذُكر في شأنه؛ لأنه أمرٌ اختص بشأنه؛ يعني لا يصح لأحد أن يقتل أحدًا بحجة أنه

رأى منامًا، أو فعل كذا، أو كذا، أو أنه من أهل الحقيقة، أو أن يخرق سفينة أو نحو ذلك، فالأصل في خرق السفينة أنه لا يصح.

ولهذا موسى لما أنكر خرق السفينة، ما أنكره تخرصاً، أنكره بناء على الشريعة التي عنده، ولما أنكر قتل الغلام ما أنكره تخرصاً، وإنما أنكره بناءً على أن الأصل أنه لا يصح قتله، وحصل هذا الأمر الذي لا يمكن لبشرٍ أن يقول على نفس الطريقة.

فهذا لم يكن في مسائل من الاختصاص الخضر.عن موسى بمقامات من التعبد أو ما إلى ذلك، وإن كان من أئمة العلم، وأئمة الدين الصالحين أي : الخضر. لكن لا يصل رتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(المتن)

٧٥٦٩- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «نَنْزِلُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِخَيْفِ بَنِي كِنَانَةَ حَيْثُ تَقَاسَمُوا عَلَى الْكُفْرِ». يُرِيدُ الْمُحَصَّبَ.

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «نَنْزِلُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِخَيْفِ بَنِي كِنَانَةَ»:

هذا فيه ذكر المشيئة، النبي قال: « **نَنْزِلُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ** »

(المتن)

٧٥٧٠- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ حَاصَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَهْلَ الطَّائِفِ فَلَمْ يَفْتَحْهَا فَقَالَ: «إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: نَقْفُلُ وَلَمْ نَفْتَحْ. قَالَ: «فَاغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ». فَغَدَوْا فَأَصَابَتْهُمْ جِرَاحَاتٌ. قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، فَكَأَنَّ ذَلِكَ أَعْجَبَهُمْ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم.

(الشرح)

شرحُ حديث ابن عمر: «إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»:

نعم، هذا حديث ابن عمر، وهو حديث متفقٌ عليه، وفيه حصار النبي للطائف، فلم يفتحها، فقال: «**إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ**»؛ أي راجعون غدًا إن شاء الله، فهذا الشاهد فيه؛ أن النبي مع أنه يخبر عما جزم به، وعما هو قريب من شأنه، ومع ذلك قال: إن شاء الله؛ لأن هذا الأمر لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى، وقد يكون، وقد لا يكون.

فقال: «**إن شاء الله**»، عليه الصلاة والسلام، فهذا من سننه التي يُقتدى به عليه الصلاة والسلام فيها.

وفيها أن من المسلمين من قال: نرجع ولم نفتتح، كما في بعض الرواية في الصحيح، وهنا قال: نقفل ولم نفتتح الطائف، فقال النبي: «**فَاغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ**»، إنما أخذهم بالرفق، وهذا من الدليل على أن ما صار من أمر الجهاد في فعل النبي صلى الله عليه وسلم، هو الرفق، يريد به ما لا يراد به هذا المعنى الذي هو؛ أنه لابد أن يقع لهم ما أرادوا.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**فَاغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ**»، فَغَدَوْا فَأَصَابَتْهُمْ جِرَاحَاتٌ، فلما تعرضوا للجراح، فقال: «**إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ**»، أقر، لم يقل أحدٌ منهم: نرجع ولم نفتتح، أو نقفل ولم نفتح، تبسم النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا من رفق النبي صلى الله عليه وسلم، ورحمته بالمؤمنين، كما أخبر الله جل وعلا: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة: ١٢٨].

(المتن)

٣٢- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

وَلَمْ يَقُلْ مَاذَا خَلَقَ رَبُّكُمْ، وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾.

وَقَالَ مَسْرُوقٌ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ شَيْئًا، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَسَكَنَ الصَّوْتُ عَرَفُوا أَنَّهُ الْحَقُّ وَنَادَوْا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا الْحَقَّ. وَيُذْكَرُ

عَنْ جَابِرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُنَيْسٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ».

٧٥٧١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ -قَالَ عَلِيٌّ وَقَالَ غَيْرُهُ صَفْوَانٍ- يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ».

٧٥٧٢- قَالَ عَلِيٌّ وَحَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَمْرٌو، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، بِهَذَا. قَالَ سُفْيَانُ قَالَ عَمْرٌو سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ. قَالَ عَلِيٌّ قُلْتُ لِسُفْيَانَ قَالَ سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ، قَالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ نَعَمْ. قُلْتُ لِسُفْيَانَ إِنَّ إِنْسَانًا رَوَى عَنْ عَمْرٍو عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَرْفَعُهُ أَنَّهُ قَرَأَ فُزِّعَ. قَالَ سُفْيَانُ هَكَذَا قَرَأَ عَمْرٌو فَلاَ أَدْرِي سَمِعَهُ هَكَذَا أَمْ لاَ، قَالَ سُفْيَانُ وَهْىَ قِرَاءَتُنَا.

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ":

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ وآله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام البخاري رحمه الله: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿**وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ..**﴾. الآية.

ثم أورد في هذا حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ**».

هذا التبويب الذي ذكره البخاري فيه ذكرُ صفات الله سبحانه وتعالى، وهي من مقامات توحيده.

ومن صفات الله صفة الكلام، فالله سبحانه وتعالى لما جاء في القرآن مستفيضًا وفي السنة كذلك، ودلَّ على ذلك مفصَّل الأدلة الصريحة والإجماع على أن الله سبحانه وتعالى يُوصف بهذه الصفات.

قال الله جل وعلا: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] في قصة آدم، والآيات الدالة على كلام الله سبحانه وتعالى في القرآن جاءت متنوعة الدلالة؛ منها ما يكون بذكر القول، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ومنها نداءُ الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾ [الشعراء: ١٠].

فهذا دليل على أن الله يتصف بصفة الكلام، وكذلكم ذكر كلام الله لاسم الكلام نفسه أو فعل، لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وكذلك الخطاب: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج: ١]، ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، فإن النداء والخطاب يكون من المتكلم، إلى غير ذلك من الأوجه المتنوعة لغةً، المستفيضة في القرآن، وكذلك ما جاء في كلام النبي صلى الله عليه وسلم الدال على اتصاف الله جل وعلا بهذه الصفة من الكمال.

بل إن انتفاءها هو من صفات النقص، ولهذا لما عبدت بنو إسرائيل العجل، واتخذوا العجل من بعد موسى، قال الله جل وعلا في اتخاذهم العجل من بعد موسى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فجعل الله سبحانه وتعالى من آيات بطلانه؛ بطلان عبوديته وألوهية العجل، من آيات

ذلك أنه ليس محلًا لهذا المعنى والصفة باعتباره لا يتكلم، ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فدل على أن الكلام من صفات الكمال، وإن كان ما يتصف به الله جل وعلا من صفة الكلام ليس هو مثل صفة المخلوق، طردًا للقاعدة الشرعية العقلية الفطرية المذكورة في قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

فهذه قاعدة شرعية نزل القرآن بها، وهي قاعدة عقلية .فالعقول شاهدة بها، وهي قاعدة فطرية فإن الله فطر الناس على اختصاصه جل وعلا عن خلقه، هذا أمرٌ معلوم عقلًا وشرعًا وفطرةً، أن ربنا جل ذكره ليس كمثله شيء في صفاته، ولكن نفي التشبيه والتنزيه لا يعني تعطيل الصفة، بل الله متصف بهذه الصفات اتصافًا يليق بجلال الله سبحانه وتعالى على ما ورد في كلام الله ورسوله.

وكلام الله يُسمِعه اللهُ سبحانه وتعالى مَن شاء، كما في تكليمه لعبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام.

والقرآن كلام الله منزّل غير مخلوق، كما اتفق على ذلك أئمة السنة والجماعة من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم وكما جاء صريحًا في قول الله: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [التوبة: ٦]، وكما جاء في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر هذا في كلام الله سبحانه وتعالى.

وقوله: جل وعلا: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، أنتَ ترى الشفاعة تُذكر في القرآن منفيةً وتُذكر مثبتةً،و مقام الإثبات غير مقام النفي، الشفاعة المثبتة هي شفاعة عباد الله الصالحين من الأنبياء والمرسلين والصالحين من خلق الله ومَن شاء الله لهم الشفاعة وأذن سبحانه وتعالى لهم، ورضي عمن شفعوا له، واللهُ جل وعلا نفى شفاعة الجاهلية التي كان العرب والمشركون من قبل دين الإسلام يجعلونها لآلهتهم، فنفيت

شفاعة الجاهلية التي كانت العرب تزعمها لأصنامها أو غير العرب من الأمم الذين يدعون الشفاعةَ على غير ما جاء في حكمِ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا الحديث: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ**»، فالله سبحانه وتعالى وهو جل وعلا العلي الأعلى، الملائكة خاضعون له؛ لأنهم عباد الله، وكما وصفهم الله سبحانه وتعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهم عبادٌ، وهم من خلق الله الذين اختصهم الله بأمره وعبادته، ما يأمرهم الله به من الأمر، وهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمرون.

ثم ذكر البخاري بعد ذلك حديث أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**ما أذن الله لي شيءٍ ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن**»، وقال صاحب له يريد أن يجهر به. هذا حديثٌ متفقٌ عليه، وهو حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر هذه الصفة من صفات الله سبحانه وتعالى، وفيه فضل القرآن وفضل التغني القرآن.

والمقصود بالتغني: هو تحسين الصوت، على وجهٍ من الاقتصاد من جهة ضبط الكلام والنطق على ما تقتضيه فصاحة العرب، وتحسين الصوت على قدرٍ من الاقتصاد الذي لا يدخله مبالغة تُخرج السياق أو النطق عن صفة نطق العرب إلى نطق العجم، فهذا مما ينبغي أن يتوسط فيه، كما ذكر ذلك أهل العلم من الفقهاء.

(المتن)

٧٥٧٤- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رضى الله عنه- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «يَقُولُ اللَّهُ يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادَى بِصَوْتٍ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي سعيد الخدري: «يَقُولُ اللَّهُ يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ»:

هذا حديث أبي سعيد وهو متفقٌ عليه، وبعث النار من ذرية آدم، ولكن كما جاء في تمام الحديث: «**من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة**».

فاشتد ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا ومنكم رجل.

أي أن هذه الغلبة تتم في كثير من حالها أو في أغلب حالها تتم في هؤلاء، وهم قوم من الكفار ولكنهم كثير العدد.

والشاهد في حديث أبي سعيد هو قوله: «**يقول الله: يا آدم**» هذا دليل على إثبات صفة الكلام.

وكذلك ما جاء في الحديث الذي قبله، «**ما أذن الله لشيءٍ ما أذن لنبي**». نعم.

(المتن)

٧٥٧٥- عَنْ عَائِشَةَ -رضى الله عنها- قَالَتْ مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَلَقَدْ أَمَرَهُ رَبُّهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ.

(الشرح)

شرحُ حديث عائشة: مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ:

أرادت رضي الله عنها غيرة النساء بعضهن من بعض، فإنهن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وبشّر الله خديجة ببيتٍ في الجنة، وهذا يدل على إثبات هذه الصفة، وقد أمره ربه، فالأمر من الله لنبيه هذا يدل على أن الله جل ذكره متصف بصفة الكلام، فأمر الله ونهي الله ونداؤه وإخباره سبحانه وتعالى وإنباؤه وقوله، كل ذلك من الأدلة المستفيضة على إثبات صفة الكلام.

فتنوع ذلك يمنع تأويل ذلك، مع أنه يمتنع في آحاد السياق، فباجتماع السياق وتنوعه من بابٍ أولى.

والفضل بين عائشة وخديجة كما هو معروف محل خلاف بين العلماء، ولكن قد اتفق علماء السنة على أن أفضل نساء المسلمين ثلاث:و هن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم، وخديجة وعائشة رضي الله عنهن، فهؤلاء الثلاث هن أفضل النساء إجماعًا.

ثم قال بعضهم: بأن فاطمة أفضل، وقال بعضهم: بأن خديجة أفضل، وقال بعضهم: بأن عائشة أفضل، وقال بعضهم بأن خديجة في أول الإسلام، وعائشة في تمام الأمر والعلم.. كل ذلك أقوال قيلت من بعض أهل العلم، وإذا المسألة اقتضت ترجيحًا في هذا، فالأظهر والله أعلم أن فاطمة أفضل لما جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها كلمةً في الفضل لم تُقل لمثلها أو لغيرها: **«أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين»**، وفي رواية: **«سيدة نساء هذه الأمة»**.

فالتعبير بسيدة النساء مثل ما جاء في قول النبي: **«أنا سيد ولد آدم»**، فدلت كلمته: **«أنا سيد ولد آدم»** على أنه أفضل ولد آدم، وهذا من الأدلة على أن النبي هو أفضل ولد آدم، وهي أدلة كثيرة في القرآن والسنة، لكن منها قوله: **«أنا سيد ولد آدم»**، ولما قالها أتبعها بالتفصيل الذي فيه الشفاعة العظمى، أتبعها بالتفصيل في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أُتي النبي يومًا بلحم، فرُفع إليه الذراع وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة ثم قال: **«أنا سيد ولد آدم»**، وفي رواية؛ لأن الحديث حديث الشفاعة جاء من وجوه في الصحيحين وغيرهما في بعض رواياته: **«أنا سيد الناس يوم القيامة»**. فهذا دل على فضله.

فقال: قال النبي في عائشة: **«فضل عائشة على النساء كفضل الثريد»**، هذا ليس بقوة -والله تعالى أعلم- أمر الثريد، وتشبيه الطعام، ليس بقوة: **«أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين»**، فهذه الأحرف بالتصريح في الفضل على معنى الرتبة الأولى أدل من الذي ورد في حقها، مع أن الذي ورد في حق عائشة يقتضي لا شك، فضلًا ومقامًا لأم المؤمنين عائشة كما يقتضي فضلًا ومقامًا لأم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها.

وقد قالت عائشة بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين، هلكت من الدار، وأبدلك الله خيرًا منها، هذا جاء في الصحيح لما استأذنت هالة بن خويلد على النبي، فقال النبي: اللّهم هالة بنت خويلد، فغارت عائشة رضي الله عنها، وقالت له الرسول عليه الصلاة والسلام: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين، هلكت من الدار؛ أي ماتت، وأبدلك الله خيرًا منها.

فبعض الناس الذين يتتبعون طرق الاستدلال الميتة في مثل هذه المورد، يقول: إن النبي أقرها، قالت: هلكت من الدار فأبدلك الله خيرًا منها، هذا استدلال ميت في الحقيقة، هذا استدلال ضعيف؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام ترك لها الكلام؛ لأن عائشة ما كانت تقرر علمًا، أو تقرر معنًا تنتظر أن النبي يقر

هذا الكلام كله غيرة قالته عائشة رضي الله عنها، وإلا كان له سبب باعث غير غيرة التي كانت عند النساء، أو بين النساء، رضي الله عن أمهات المؤمنين، قالته غيرة، وهذا طبيعة المرأة.

ومن فقه عائشة رضي الله تعالى عنها أنها ما زالت على أمر الغيرة في هذا الأمر، وذكرت ما ذكرته من هذا، ثم هي قالت: فأبدلك الله خيرًا منها، باعتبار خيرية الديانة، ولا خيرية المرأة لزوجها، وظاهر السياق: أنه خيرية المرأة لزوجها، وليست تتكلم رضي الله عنها وهي أفقه من أنها تذكر مسألة خيرية الديانة، وتزكي نفسها، والله يقول: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) ﴾ [النجم: ٣٢].

فعائشة إنما تذكر خيرية المرأة لزوجها، ثم إنه لا يسمى هذا من باب الإقرار؛ لأن النبي سكوته هنا سكوت الحلم، وسكوت الحكمة، لا يريد أن يأخذ نفس عائشة مأخذًا آخر، ولا يدل على أن النبي أقر هذا الكلام، بمعنى صدّقه وقبله وصار سنة تقريرية كما قد يفهم البعض، وأن النبي أقر هذا.

أولًا المقام ليس بمقام ، وتفضيل الديانة، ثانيًا: أن هذا لا يعتبر تقريرًا أو إقرارًا، وقد ورد في بعض روايات الحديث في مسند الإمام أحمد أن النبي قال لعائشة: **«ما أبدلني الله خيرًا منها»**، وهذه الرواية تكلَّم فيها بعضهم، سواء إذا قلنا بها، انتهى طريق استدلال هذا المتكلم، وإن لم يكن فمن الأصل أن هذا ليس مناسبًا، يعني لا يقال؛ الحديث يدل على أن عائشة خير من خديجة؛ لأن النبي أقر عائشة على الكلمة، لا، هذا بعيد.

ولكن لكل واحدة من هؤلاء الثلاث من الفضائل في الإسلام، ومن الثناء ورد لهن فضل في السنة محفوظ في الصحاح وغيرها، ولكن يبقى بعض الأمر ليس من الأمور التي تشكل بحمد الله، وإنما يقال: أفضل نساء المسلمين: فاطمة وخديجة وعائشة.

أما أيتهن أفضل؟ فهذه مسألة لا يضلل فيها المخالف كما يقول أهل العلم، والمسألة فيها سعة، ولكن إن حُمل في الأمر ترجيح، فكأن ما جاء في فاطمة رضي الله عنها أبلغ مما جاء في غيرها، خاصة أنها بنت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

(المتن)

٣٣- باب كَلَامِ الرَّبِّ مَعَ جِبْرِيلَ وَنِدَاءِ اللَّهِ الْمَلَائِكَةَ.

وَقَالَ مَعْمَرٌ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ ﴾؛ أَيْ يُلْقَى عَلَيْكَ، وَتَلَقَّاهُ أَنْتَ؛ أَيْ تَأْخُذُهُ عَنْهُمْ، وَمِثْلُهُ ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾.

٧٥٧٦- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضى الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: "باب كَلَامِ الرَّبِّ مَعَ جِبْرِيلَ وَنِدَاءِ اللَّهِ الْمَلَائِكَةَ":

قال البخاري رحمه الله: باب كَلَامِ الرَّبِّ مَعَ جِبْرِيلَ وَنِدَاءِ اللَّهِ الْمَلَائِكَةَ.

وهذا الذي ذكره البخاري دلّت عليه الآيات، ودلّ عليه الأحاديث، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾، وقول الله لنبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ يدل على أن القرآن الذي ينزل به جبريل، على أنه ليس كلام جبريل.

هذه الآية من جهة اللغة دليلٌ صريح على أن الكلام ليس كلام جبريل، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾، وهو يلقاه من حكيم عليم، وهو ربه سبحانه وتعالى.

وبعده، وذكر بعد الآية كما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ: **«إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ»** .. الحديث.

وهذا الدليل فيه قوله: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ، والنداء يكون ممن يوصف بصفة الكلام، ومثله ما جاء في حديث آخر، **«فيسألهم وهو أعلم بهم»**.

حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة: **«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الْعَصْرِ وَصَلاَةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ»**؛ أي ربهم سبحانه وتعالى، **«وَهْوَ أَعْلَمُ -بهم- كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»**.

وهذا يدل على فضل هاتين الصلاتين.

(المتن)

٧٥٧٨- عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ». قُلْتُ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى، قَالَ: «وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي ذر: «أَتَانِي جبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ»:

وجه الدلالة من حديث أبي ذر، قول النبي صلى الله عليه وسلم: **«أَتَانِي جِبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي»**، وهو إنما كان جبريل ناقلًا، كان رسولًا، ولم يكن منشئًا، وإنما جاء مبشرًا، قال:

«أَتَانِي جِبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى»، وهذا جاء من حديث أبي ذر، وهو حديثٌ متفقٌ عليه.

والمقصود أنه دخل الجنة باعتبار أنه لا يُخلد في النار إلا الكفار، ومن يقضي الله له برحمته وعفوه، ويدخل الجنة في أول أمره، ومن شاء الله أن يعذبه عذبه، ولكن لا يُخلد في النار، كما هو صريح في النصوص وإجماع أهل السنة إلا من كفر بالله.

(المتن)

٣٤- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾.

قَالَ مُجَاهِدٌ ﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالأَرْضِ السَّابِعَةِ.

(الشرح)

شرحُ قولِ المصنف: " باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾":

أنزل الله القرآن بعلمه، وهو من علم الله، وهو كلام الله سبحانه وتعالى.

(المتن)

٧٥٧٩- عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يَا فُلاَنُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلِ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ أَجْرًا».

(الشرح)

شرحُ حديث البراء بن عازب: «يَا فُلاَنُ، إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ»:

هذا حديث البراء بن عازب، وفيه أن النبي قال: **«يَا فُلاَنُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلِ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي**

إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ»، وهو كتاب الله أنزله الله، وهذا دليل على صفة الكلام، وأن الله متصفٌ بهذه الصفة، ويدل على هذه الصفة بهذا الحديث حروفٌ أخرى، لكن هذا من أخصها دلالة.

وقول النبي: «**فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ**»، هذا دليل على أن الفطرة هي التوحيد والإسلام، وأن الفطرة تلاقي الشريعة.

(المتن)

٧٥٨٠- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ الأَحْزَابِ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ وَزَلْزِلْ بِهِمْ».

(الشرح)

شرحُ حديث عبد الله بن أبي أوفى: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ»:

هذا حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه، في يوم الأحزاب، والشاهد في قوله عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ**»، والكتاب أنزله الله سبحانه وتعالى ليس مخلوقًا، بل هو منزل من عند الله، وقد تكلم سبحانه وتعالى به، كلامًا يختص بالخالق وحده، ليس ككلام البشر، وهذا يقال في سائر صفاته، ولكن نفي التشبيه ليس معناه التعطيل لصفات الله جل وعلا.

(المتن)

٧٥٨٢- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ قَالَ: أُنْزِلَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُتَوَارٍ بِمَكَّةَ، فَكَانَ إِذَا رَفَعَ صَوْتَهُ سَمِعَ الْمُشْرِكُونَ فَسَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾، لاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ حَتَّى يَسْمَعَ الْمُشْرِكُونَ، وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا عَنْ أَصْحَابِكَ فَلاَ تُسْمِعُهُمْ، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾، أَسْمِعْهُمْ وَلاَ تَجْهَرْ حَتَّى يَأْخُذُوا عَنْكَ الْقُرْآنَ.

(الشرح)

شرحُ حديث ابن عباس: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ قَالَ: أُنْزِلَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ:

نعم، هذا في قول الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾ [الإسراء: ١١٠]، وهذا أُمر به النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدرء في صلاته بالقرآن، وسمى الله سبحانه وتعالى ذلك صلاةً، مثل ما جاء في الحديث: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل**».

وهذا أيضًا من الأدلة الدالة على أن هذا ليس كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال الله له: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾ [الإسراء: ١١٠].

(المتن)

٣٥- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ حَقٌّ، ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ بِاللَّعِبِ.

٧٥٨٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ﴾":

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه وأجمعين.

قال الإمام البخاري رحمه الله في كتاب التوحيد: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، ثم ذكرَ قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ ".

قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، وفيه أن القرآن كلام الله، وفيه أن كلامَ الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهذا الثالث، المعنى الثالث وجهه أن الله سبحانه وتعالى سمّى فعلَ المبطلين تبديلًا، سماه أيش؟ تبديلًا، والتبديل يقتضي المغايرة.

فإذًا هم لا يستطيعون أن يحرفوا كلام الله، وإنما بدلوه، والبدل غير المُبدَل منه، مثل إذا قلتَ: التيمم، بدلًا عن الماء، أليس كذلك؟ فإن التيمم غير الطهارة بالماء.

الآية فيها قول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ لتعاليه عن التحريف. فما يفعله المبطلون هو تبديل محض، وإذا تعالى عن التحريف فالتبديل المحض كذبٌ محض وافتراءٌ محض، ولذلك لم يلتبس شيءٌ من ذلك على أحدٍ لا من المسلمين ولا من غير المسلمين، ولا توهم أحدٌ من غير المسلمين أن ثمت شيئًا هو من القرآن وهو ليس من القرآن، حتى مَن لم يؤمن بالقرآن لا يظن أن هذا هو القرآن، وهذا ليس هو القرآن، إنما هو إيمان وكفر.

فقوله جل وعلا: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ وهذا من الإرادات الباطلة.

قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ فما فيه من البيان والعدل والعلم والصدق يتعالى عن قدرة البشر، ولهذا القرآن لا يأتي البشر بمثله كما قال ربنا جل ذكره: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء: ٨٨].

اللهُ جل وعلا جعل هذا الكتاب أعظم آيات النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الله آتى جميع الأنبياء والرسل الآيات كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر**»، جميع الأنبياء آتاهم الله من الآيات ما مثله آمن عليه البشر.

قال عليه الصلاة والسلام لتمام الحديث: «**وإنما كان الذي أُوتيتُ وحيًّا أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثر هم تابعًا يوم القيامة**».

فأعظم آيات لنبينا صلى الله عليه وسلم هو القرآن، وإن كان قد أُوتي من الآيات غير ذلك مما هو من الآيات الكونية أو الآيات العلمية، لكن آيته العظمى (هي) القرآن وهو كتاب الله وكلام الله، فأُوتي الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهذا معنى قول الله كما جاء في الحديث القدسي فيما يرويه النبي عن ربه لحديث عياض بن حمار المجاشعي الذي رواه مسلم وغيره: «**وأنزلتُ عليكَ كتابًا تقرأه نائمًا ويقظان لا يغسله الماء**».

فقوله: «**لا يغسله الماء**» أي لا يدخل التحريف كما قال الله جل وعلا: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

فإذًا القرآن محفوظٌ بحفظ الله له وهو أعظم آيات النبي، في أخباره لا يستطيع البشر أن يأتوا بأخباره، فذكر الله فيه من مقامات الغيب ومن مقامات الأمم السابقة التي خفيت على مَن لم يدركهم، وذكر الله سبحانه وتعالى فيه من التشريع ما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، وذكر الله فيه من فصاحة كلماته، فجاءت كلماته التي نزلت بلسان العرب على مقامٍ من البيان لا يستطيع العرب الذين اعتادوا الفصاحة والبيان، لا يستطيعون أن يأتوا بمثله لفصاحته، فهو معجز لهم في أخباره، وفي تشريعاته، وفي بيانه، وفي أوجهٍ أخرى.

لأن هذه المقامات لا يستطيع لا العرب ولا غير العرب، بل لا يستطيع لا الإنس ولا الجن ولو كان بعضهم كما قال الله جل وعلا: ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء: ٨٨]، لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، لا في أخباره، ولا في تشريعاته، ولا في بيانه.

أمّا الأخبار فإنك ترى ما في القرآن من أمور الغيب وأمور الأمم الماضية التي لا يحيط بالغيب ولا يعلم الغيب إلا الله، وكذلك ما سلف من أحوال الأمم، فبان ما هم عليه من أمورٍ لا يدخلها الكذب البتّة، إنما هو خبرٌ من عند الله سبحانه وتعالى.

وكذلك في التشريع فإنه لا يستطيع بشر أن يأتي بتشريع على المقام الذي جاء في القرآن، وهكذا جميع التشريعات التي بُعث بها الأنبياء والرسل، هي متعالية عن المماثلة فلا يستطيع البشر ولا تستطيع أمة من الأمم أن تأتي بمثل شريعة نبي من الأنبياء، حتى في الأحوال البشرية، كأمور البيع والشراء والأحوال الشخصية ونحو ذلك، لا يستطيع تشريع بشري أن يأتي بعدالة مطلقة وإنصاف مطلق وحكمة مطلقة كما جاء في شرائع الأنبياء حتى جاءت شريعة نبينا وهي أكمل الشرائع ، وإن كان جميع شرائع الأنبياء بُنيت على الكمال والحكمة والتمام.

وقول الله جل وعلا: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ليس في شريعة نبي من الأنبياء من حيث الأصل الآصار والأغلال، وإنما الذي يقع أنه ربما عوقب بعض الأمم فحُرّم عليهم بعض المباح على جهة العقوبة وليس على إنشاء الأصل، مثل ما في قول الله: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) ﴾ [النساء: ١٦٠].

فهذا هو الذي يعرض لبعض أقوام الأنبياء، وأما أن أصل شرائع الأنبياء قائمة على الآصار والأغلال فالأمر ليس كذلك، أو قد يكون ذلك إن لم يكن على ما عرض من عقوبةٍ بظلمهم أو يكون ذلك مما ابتدعوه، كما قال الله جل وعلا: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد: ٢٧].

وأما دين الأنبياء فهو دين مرفوعٌ فيه الحرج، كما قال الله جلا وعلا: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحج: ٧٨].

وهنا تعلم أن هذا النفي للحرج موجود في ملة إبراهيم، وفي جميع الملل التي بُعث بها الأنبياء، وهي ملة واحدة، ملة التوحيد، ولذلك يقول الله: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: ١٣٠]. نعم.

قال الله جلا وعلا: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) ﴾ [الطارق: ١٣]؛ أي القرآن ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) ﴾ [الطارق: ١٤]، ثم ذكرَ البخاري حديثَ أبي هريرة، من رواية سعيد بن المسيب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**قَالَ اللَّهُ تَعَالَى يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ**».

وسبُّ الدهر مما نهت عنه الشريعة؛ لأن ذلك من تدبير الله سبحانه وتعالى، وليس الزمان والمكان يفعلان شيئًا.

وقوله: «**وَأَنَا الدَّهْرُ**» ليس المقصود أن هذا من أسماء الله، فهذا لم يقل به أحدٌ من السلف.

واللهُ له الأسماء الحسنى، وهي المذكورة في القرآن كما في قول الله: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وليس الدهر من أسمائه جل وعلا، وإنما المقصود ما جرى به تمام الحديث، قوله: «**بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**». فالله هو الخالق للأمور، وهو الخالق للمخلوق والمقدر للأمور، ولا يصير شيء إلا بأمرِ الله سبحانه وتعالى، وليس ثمة قوة أو ماهية زمانية أو مكانية أو كونية لها أثرٌ في التدبير، بل التدبير لله وحده لا شريك له.

وما خلقَ اللهُ من الأسباب وجعلها وأمضاها فالأسباب مخلوقةٌ لله تحت ملكه وتدبيره جل وعلا.

ولذلك إذا شاء الله سبحانه وتعالى أن يعطّل أمر السبب، أبطله ﴿ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فهذا إما أنه تعطيل للسبب، وإما أنه تعطيل لذات الماهية، الذي هو رتبه فوق مستوى السبب، أو قدر السبب.

يعني إذا قلنا: إن الإحراق هو السبب، أو قلنا هذا هو الماهية، وهذه مسألة جدلية بين النظار، على كل التقديرين، سواء قدرتها ماهيةً أو قدرتها سببًا، فإنها على كلا الوجهين تحت تدبير الله سبحانه، قال الله: ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء: ٦٩].

(المتن)

٧٥٨٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ حِينَ يُفْطِرُ وَفَرْحَةٌ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»:

هذا حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه، وفيه يقول الله عز وجل، وهذا من أدلة إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى: «**الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»؛ أي أنه عبادة خالصة لله، ولا يدخلها الرياء، في تمامها وإن كان يعرض فيها، لكن لا يدخلها الشرك في تمامها؛ لأنها عبادة خفية في حقيقتها، وإن كان هذا لا يمنع أن بعض الناس قد يعرض له مقام من الرياء بإظهاره الصوم على غير المقصود الذي قضت به الشريعة، لكن هذا معنى قول الله: «**الصَّوْمُ لِي**»؛ أي أنه يقع عبادة خفية لله سبحانه وتعالى، وجعل الله الجزاء إليه ، وإن كان الله جل وعلا هو الذي يجزي العباد في سائر الطاعات لكن في بعض الطاعات ذكر قدرٌ وهنا لم يُسمَّ قدراً، فقال الله: «**وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»، وهذا من فضيلة الصيام وشرف الصيام ما جاء وصفه بهذا الوصف، أن الله في الحديث القدسي قال: «**الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**».

ثم بيّن الله سبحانه وتعالى ما يكون من العبد من استسلامه واستجابته لأمرِ الله، وهذا من تحقيق التوحيد؛ لأن تحقيق التوحيد هو الاستجابة المطلقة لله، فيدع شهوته وطعامه وشرابه أو وشربه من أجلي؛ أي إخلاصًا واستجابةً لله سبحانه وتعالى.

ولهذا فالصوم وهو الانقطاع عن الأكل والشرب هو استجابةٌ لأمر الله سبحانه وتعالى.

وبهذا نعلم شرف هذا الانقطاع، وفضله عند الله سبحانه وتعالى، وأن أعظم العبادات في رمضان، التي تختص برمضان، هي عبادة الصيام، وهذا هو أصل إنشاء هذا الشهر في الشريعة؛ ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وتعظيم قدر الصيام في نفوس المؤمنين مقصد من مقاصد الشريعة، تعظيم قدر الصيام في نفوس المؤمنين؛ لأن هذا يتحقق به العلم، تعظيم قدر الصيام هو مقامٌ من العلم، والإخلاص كما سبق معنا، ينبني على التسليم وعلى أيش؟ العلم.

وما يعرض من بعض الواعظين أحيانًا في رمضان أنه ربما تكلم ولام الناس كثيرًا من جهة أنهم قد دخل عليهم رمضان ومضى نصفه أو مضى كذا منه ولم يفعلوا شيئًا، وماذا فعلوا.. إلى آخره.

فهذا الحرص على حث الناس على الخير لم يُؤتَ من بابٍ مناسب، فإنهم صائمون، أليس كذلك؟ وقد أقاموا هذا المبنى وهذا الركن من أركان دينهم، والأصل هو تعظيم فعل الصيام، تعظيم شعيرة الصيام، وأما الحث على مزيد من الطاعات والخير، فلا يُؤتى بهذه الطريقة.

أحيانًا بعض الواعظين يقوم فيعظ الناس، فيقول: الآن مضى نصف الشهر وماذا فعلتم؟ وماذا صار منكم؟ وهم يصلون ويصومون، وما دام يصلون ويصومون فقد فعلوا خيرًا ويصلون التراويح، ليس مجرد الفريضة.

فهذه الطريقة ليست هي الطريقة الصحيحة، ليست الطريقة الصحيحة، الطريقة الصحيحة تعظيم العبادات التي شرعها الله، لتكون في نفوس الناس على مقامها الشرعي من التعظيم، وهذا أدعى لتحقيق الخشوع فيها كالصلاة أو لتحقيق الإخلاص فيها كالصيام والتعبد لله، وما يكون في القلب من مقامات تعظيم الله لهذه العبادة.

أما يقول: (أيش سويتوا؟) كما يقول بعض العوام، الذين يريدون خيرًا ولكنهم لم يفقهوا علمًا، فهذا لا شك أنه ليس على وجهه، إنما تُعظم هذه العبادات ويُقال للناس بعد ذلك ما أمرهم الله به في القرآن: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، يحثون على أنواع الطاعات، ولكن قطع المعاني الشريفة في نفوس الناس حتى يصبح بعض العوام لا يدري ماذا يفعل، وهذا أسلوب لا يصدر في الغالب إلا من جاهل أو ممن لم يستتم الحكم.

قال: «**وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ**»: والمقصود بكونه جُنةً؛ أي يُتقّى به، فهو يُتقى به غضبُ الله سبحانه وتعالى، ويُتقى به عذابه، والجُنة هو ما يُتقى به، ومنه سُمي الدرع جُنةً، ومنه قول الشاعر:

مِجَنِّي دُون مَنْ كنتُ أتقي ❊ ❊ ثلاث شخوص كاعبان ومعصرُ.

«**وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ**»: هذا من فضل الله أن جعل للصائم فرحتين: فرحة عند فطره، بما ترجع إليه طبيعته وحاله المعتادة، ويرجع إلى ما أباح الله له من الأكل والشرب، وفرحة عند لقاء ربه؛ لأن الله سبحانه أكرم الصائمين حتى إن في الجنة بابًا يُقال له الريان كما جاء في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخله إلا الصائمون.

«**وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ -وجاء في بعض الروايات: «يوم القيامة»-** مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

جاء في بعض الروايات الصحيحة: «**أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ يوم القيامة مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**».

وهذا أيضًا يدل على فضل الصيام.

(المتن)

٧٥٨٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَى رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى قَالَ بَلَى يَا رَبِّ وَلَكِنْ لاَ غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا»:

هذا حديث أبي هريرة، والشاهد فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«فناداه ربه»**.

وهذا من أدلة أهل السنة على إثبات صفة الكلام لله سبحانه على ما يليق بجلاله، **«فناداه ربه: يا أيوب»**.

ونداء الله قد ورد في القرآن كثيرًا، كما نادى جل وعلا آدم، ونادى إبراهيم، ونادى موسى، ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) ﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿ يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ [هود: ٧٦]، وفي آدم وحواء: ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) ﴾ [الأعراف: ٢٢].

فهذا مما يكون مطابقًا لدلالة القرآن، وفيه هنا: **«قال: بينما أيوب»**، وهو رسولٌ ونبي من أنبياء الله، **«قال: بينما أيوب يغتسل عريانًا»**.

كلمة عريانًا: ليس المقصود منها أنه ليس عليه لباس، وإنما العرب تقول في كلامها العريان إذا كان قليل اللباس على غير العادة، مثل ما جاء في حديث جرير بن عبد الله البَجلي الذي رواه مسلم وغيره: قال: بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر النهار، إذا جاءه قومٌ حفاة عراة، مجتابي النمار أو العباء.

في حديث جرير: قال: إذ جاءه قومٌ حفاةٌ عراة.

هل عراة هنا بمعنى لا لباس عليهم؟ قطعًا لا، بل حتى الحديث بعد ذلك، الجملة بعدها تنفيه، قال: جاءه قومٌ حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء.

إذا العرب تقول: العريان، وتريد بذلك (أيش؟) مَن قل لباسه.

«**بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ**» أي تخفف من لباسه المعتاد، وليس أن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام قد تجرد تجردًا مطلقًا من (أيش؟) من اللباس.

هذا الأليق بمقام الأنبياء.

«**خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ**». هنا بعض الاصطلاحات حرَّ، وهي خرَّ، وهذا تصحيف، بعض النسخ مكتوب فيها: حر، وهي خر عليه رجلٌ من جرادٍ مِنْ ذَهَبٍ.. إلى آخر الحديث.

«**قَالَ بَلَى يَا رَبِّ وَلَكِنْ لاَ غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ**»، وهذا من فقه الأنبياء، فإن الله لما سأله، أجاب بهذا الجواب، فإنه كلما يأتي من رزق فإن العبد فقير إلى رزق ربه سبحانه وتعالى، ولذلك سمى ذلك بركةً من الله.

(المتن)

٧٥٨٦- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يَتَنَزَّلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ».

(الشرح)

شرح حديث أبي هريرة: «يَتَنَزَّلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»:

وهذا تضمن جملةً من الصفات: ومنها نزول الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا، وهو نزول يليق بجلال الله مثل مجيء الرب سبحانه المذكور في القرآن، في قول الله: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)**﴾ [الفجر: ٢٢].

فقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾ مجيء الله ليس هو مجيء الملائكة، بل ذُكر معطوفًا عليه على سبيل المغايرة، وما يكون صفةً للخالق ليس معناه أن يكون صفةً للمخلوق، بل صفة الله على اختصاص، كما قال الله جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وهنا النزول كذلك، فاللهُ جل وعلا يختصّ بصفاته وهو نزولٌ يليق بجلال الله سبحانه وتعالى، وقد أجمع السلف على ذكرِ ذلك، وقد جاء في هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما.

وقوله: "**فيقول الله تبارك وتعالى**". وهذا دليل على إثبات صفة الكلام.

وفيه: التحري لرحمة الله ومغفرته وإجابته في الثلث الأخير من الليل، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه.

(المتن)

عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

٧٥٨٨. وَبِهَذَا الإِسْنَادِ «قَالَ اللَّهُ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام البخاري رحمه الله في كتاب التوحيد عند باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وذكر فيه حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، مضى. معنا حديث أبي هريرة، وكذلك حديث أبي هريرة في الصيام، وكذلك حديث أبي هريرة في اغتسال أيوب، وحديث النزول، وكلها من حديث أو من رواية أبي هريرة.

ثم ذكر حديث أبي الزناد عن الأعرج، وأن الأعرج حدثه، وقد صرّح بالتحديث أن الأعرج حدثه، أنه سمع أبا هريرة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وهذا الحديث ذكره البخاري رحمه الله يبين فيه ما نزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن الحديث تضمّن ذكر النبوة، والنبوة معتبرة بالكتاب المنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام، فهي رسالة موسى، ورسالة عيسى، ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذا هو وجه ذكر هذا الحديث في كتاب التوحيد وعند قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]؛ لأن هذه الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] حصل عندهم التبديل في الأيام، وبظلمهم لأنفسهم ضلوا عن هذا اليوم الفاضل وهو يوم الجمعة، فهذا هو وجه ذكر الحديث في الباب، وهو وجه ذكر الحديث في كتاب التوحيد؛ فإن الباب به ذكرُ كلام الله، وهو قول البخاري رحمه الله: باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥].

وكلام الله سبحانه وتعالى متضمَّن، وهو أصل النبوات والرسالات، العمل بما يوحي الله إلى الأنبياء وبما نزل على الرسل من الكتب.

وحصل التبديل من جهة الضلال الذي وقعوا فيه في هذا اليوم وهو يوم الجمعة؛ وذلك أن الحديث بتمامه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث أبي هريرة هذا كما جاء، والحديث متفق على صحته، قال: **«نَحْنُ الآخِرُونَ الأولون يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**. وفي رواية: **«نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم»**. يعني أهل الكتاب.

فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له، قال: هذا يوم الجمعة، فهذا يومٌ اختلف فيه أهل الكتاب، وهو يومٌ شريف عند الله سبحانه وتعالى، فأكرم الله هذه الأمة ووفقها ليوم الجمعة، قال: فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه؛ يعني يوم الجمعة، هدانا الله له.

ثم قال: **اليوم لنا**؛ يعني الجمعة، **وغدًا لليهود**: السبت، **وبعد غدٍ للنصارى**: الأحد.

هذا مناسبة الحديث، وإذا سمعتَ الحديث بتمامه بان لك وجهُ صلته لقول الله تعالى:

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]. نعم.

ثم ذكر قال البخاري: وَبِهَذَا الإِسْنَادِ **«قَالَ اللَّهُ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»**. أي بهذا الإسناد عن أبي هريرة، والحديث تمامه: **«يا ابن آدم، أنفق أنفق عليك»**. فقول الله: يا ابن آدم، هذا فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى.

(المتن)

٧٥٨٩ ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ: «هَذِهِ خَدِيجَةُ أَتَتْكَ بِإِنَاءٍ فِيهِ طَعَامٌ أَوْ إِنَاءٍ فِيهِ شَرَابٌ فَأَقْرِئْهَا مِنْ رَبِّهَا السَّلاَمَ وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبَ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «هَذِهِ خَدِيجَةُ أَتَتْكَ بإنَاءٍ»:

هذا فيه فضل أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها، وهذا شهادة لها بالإيمان، وشهادة لها بالجنة، وهذا البيت الذي ذُكر في الحديث هو بيتٌ لها في الجنة.

وقوله: « **فَأَقْرِئْهَا مِنْ رَبِّهَا السَّلاَمَ** » هذا فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى.

(المتن)

٧٥٩٠ ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِى الصَّالِحِينَ»:

هذا حديث أبي هريرة، والشاهد فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ..»**. فقوله: **«قال الله تعالى»** هذا فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، وما قضى الله لهم من الثواب في الجنة هو كما جاء في هذا الحديث: **«مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»**.

وفي هذا الحديث من الدلالة على أن نعيم الجنة وهو مخلوق من مخلوقات الله، وخلقٌ من خلق الله أن نعيم الجنة لا تبلغه عقول المكلفين، ولا يصلون إلى كنهه ولا إلى الإحاطة بعلمه، فإذا كان ذلك في ماهيات المخلوقات، ففي كيفية صفات الله من باب أولى، ومن هنا قال السلف: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، كما قاله مالك وغيره.

(المتن)

٧٥٩١.عن ابْنِ عَبَّاسٍ، قال: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا تَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ومَن فيهن، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ومَن فيهن، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ».

(الشرح)

شرحُ حديث ابن عباس: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ومَن فيهن»:

هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما في استفتاح النبي صلى الله عليه وسلم، فكان يستفتح في صلاة الليل بجملة من الثناء على الله رواها عنه أصحابه رضي الله عنهم، ومن ذلكم ما جاء في حديث ابن عباس هذا وهو حديث متفق عليه.

وجاء استفتاح في حديث عائشة رضي الله عنها، وجاء استفتاح النبي في حديث علي بن أبي طالب، وهذه الاستفتاحات هي صيغ متنوعة، وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الليل، وبعضها حُفظ عنه في صلاة الفريضة، وما ورد في صلاة الفريضة يُشرعُ في صلاة الفريضة وفي غيرها، وما ورد في صلاة الليل فهو في صلاة الليل.

والشاهد في حديث ابن عباس من وجوه: ومن أخصها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيّن ما يتصف الله سبحانه وتعالى به من الصفات.

(المتن)

٧٥٩٢ .عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا فَبَرَّأَهَا اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .وَكُلٌّ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي حَدَّثَنِي .عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ فِي بَرَاءَتِي وَحْيًا يُتْلَى، وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ﴾ الْعَشْرَ الآيَاتِ.

(الشرح)

شرحُ حديث عائشة حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا:

هذا فيه براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وفي هذا الحديث من درجة فقه عائشة شأنٌ بيّن، هذا من فقهها في هذه الرواية من قول عائشة رضي الله تعالى عنها.

هذا فيه من فقه عائشة وورعها ودينها وتقواها، اجتمع في هذه الكلمات التي قالتها أم المؤمنين هي تدل على ما كانت عليه رضي الله عنها من الديانة والعقل والفقه والفضل والرجاء لله سبحانه وتعالى، والتواضع في شأنها، فدلّ ذلك على جملة من الشمائل، وفيه أن عائشة رضي الله عنها ذكرت كما كان معروفًا عند الصحابة، عملاً بما في القرآن والسنة، فقالت: ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ، فذكرت كلام الله، وعبّرت عنه بصيغة الفعل، فدل ذلك على أن هذا أمرٌ معروف عند الصحابة، ومستقِرٌّ عند الصحابة لكونه صريحًا في القرآن.

(المتن)

٧٥٩٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلاَ تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا

مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «يَقُولُ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً»:

هذا الحديث -حديث أبي هريرة- يقول الله تعالى وهذا هو الشاهد فيه، فيه إثبات صفة القول لله سبحانه وتعالى، وهي صفة الكلام له جل وعلا.

وفيه فضلُ الله على عباده؛ أن مَن همّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشرًا إلى سبعمائة ضعف، وأن مَن همّ بسيئة فلم يعملها لم تُكتب عليه، فإن عملها كُتبت سيئة واحدة، فهذا من فضل الله على عباده.

(المتن)

٧٥٩٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضى الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَ مَهْ. قَالَتْ هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ. فَقَالَ أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ قَالَتْ بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ فَذَلِكِ لَكِ». ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ»:

هذا حديث أبي هريرة أيضًا، وفيه قال: **«خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَ مَهْ»**

فهذا مناداة الرحم لله سبحانه وتعالى وقول الله: أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ. فهذا فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى.

وفيه فضلُ صلة الرحم وعِظم حقّها.

(المتن)

٧٥٩٥- عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ، قَالَ مُطِرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «قَالَ اللَّهُ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِي».

(الشرح)

شرحُ حديث زيد بن خالد: «قَالَ اللَّهُ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِي»:

هذا حديث زيد بن خالد الجهني، وفيه سياق وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال زيد بن خالد: صلّى بنا رسول الله صلاة الصبح في الحديبية في إثر سماءٍ كانت من الليل، فلما فرغ وأقبل على الناس، قال: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**». الحديث.

فقوله: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**» فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، وفيه قوله: « **أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر** ».

(المتن)

٧٥٩٦- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «قَالَ اللَّهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدِي لِقَائِي أَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَإِذَا كَرِهَ لِقَائِي كَرِهْتُ لِقَاءَهُ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «قَالَ اللَّهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدِي لِقَائِي أَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ»:

والشاهد فيه: قوله: «**قَالَ اللَّهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدِي لِقَائِي**»، فهذا فيه ذكرُ صفة القول لله سبحانه وتعالى، وهي كلام الله، اللهُ جل وعلا متصف بصفة الكلام وهو القائل جل وعلا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فسمى كتابه كلامه.

قال: «**إذا أحب عبدي لقائي**»، وجاء ذلك أيضًا من قول النبي صلى الله عليه وسلم في بيان حقيقة أمرِ العبد مع ربه، قال: «**مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومَن كره لقاء الله كره الله لقاءه**». هذا جاء من رواية عائشة ومن رواية أبي هريرة أيضًا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**».

وليس المقصود هنا كراهية الموت كما جاء في الحديث لمّا قالت عائشة: يا رسول الله، أكراهية الموت؟ فكلنا يكره الموت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«لا، ولكن إذا حشرج الصدر واقشعر الجلد وتشنجت الأصابع»**، قالت ذلك عائشة رضي الله عنها في بيان فقه الحديث.

فعند ذلك: **«مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»**.

(المتن)

٧٥٩٧- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «قَالَ اللَّهُ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «قَالَ اللَّهُ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»:

وهذا هو الشاهد فيه: أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«قَالَ اللَّهُ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»**.

وقد شُرِع أن يُحسن العبد ظنه بربه، كما قال النبي في حديث جابر: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو محسنٌ بالله الظن»**.

وإحسان الظن بالله هو نوع من الفقه في الدين، وليس أمنًا من مكر الله، وإنما هو فقهٌ في دين الله، ومعرفة بفضل الله وبصفات الله وبرحمة الله وما إلى ذلك، وهو مباعدة عن القنوط من رحمة الله.

(المتن)

٧٥٩٨- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَإِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ وَاذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ثُمَّ قَالَ لِمَ فَعَلْتَ قَالَ مِنْ خَشْيَتِكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ لَهُ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ»:

وفيه مخاطبة العبد لربه سبحانه وتعالى، ومخاطبة الله سبحانه وتعالى لعبده.

(المتن)

٧٥٩٩- عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا. وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا. فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ. وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ. فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ .أَوْ أَصَبْتُ .آخَرَ فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا. وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا. قَالَ قَالَ رَبِّ أَصَبْتُ. أَوْ أَذْنَبْتُ. آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثَلاَثًا. فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا»:

هذا حديث أبي هريرة أيضًا، والشاهد فيه: أن الله سبحانه وتعالى قال: «**أذنب عبدي ذنبًا**»، «**علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب**».

فهذا القول من الله الذي ذكره عنه رسوله يدل على إثبات هذه الصفة الشريفة لله جل وعلا.

وفيه من الفقه: أن التوبة من الذنب إذا تكررت ولو في ذنب واحد فإن التوبة الأولى صحيحة كما هو مذهب أهل السنة خلافًا للمعتزلة، فإن مَن تاب من ذنب ثم عاد إليه، فإن توبته الأولى إذا استوفت أمرها تكون صحيحة وعوده إليه لا ينقض التوبة الأولى، خلافًا للمعتزلة.

(المتن)

٧٦٠٠- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً فِيمَنْ سَلَفَ. أَوْ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَالَ كَلِمَةً يَعْنِي. أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالاً وَوَلَدًا. فَلَمَّا حَضَرَتِ الْوَفَاةُ قَالَ لِبَنِيهِ أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ قَالُوا خَيْرَ أَبٍ. قَالَ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ. أَوْ لَمْ يَبْتَئِزْ. عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا، وَإِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ يُعَذِّبْهُ، فَانْظُرُوا إِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي. أَوْ قَالَ فَاسْحَكُونِي. فَإِذَا كَانَ يَوْمُ رِيحٍ عَاصِفٍ فَأَذْرُونِي فِيهَا»، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَفَعَلُوا ثُمَّ أَذْرَوْهُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُنْ. فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَائِمٌ. قَالَ اللَّهُ أَيْ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ قَالَ مَخَافَتُكَ أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ قَالَ فَمَا تَلاَفَاهُ أَنْ رَحِمَهُ عِنْدَهَا. وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى فَمَا تَلاَفَاهُ غَيْرُهَا.».

فَحَدَّثْتُ بِهِ أَبَا عُثْمَانَ فَقَالَ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ سَلْمَانَ غَيْرَ أَنَّهُ زَادَ فِيهِ أَذْرُونِي فِي الْبَحْرِ. أَوْ كَمَا حَدَّثَ.

٧٦٠١- حَدَّثَنَا مُوسَى، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ، وَقَالَ، لَمْ يَبْتَئِرْ. وَقَالَ خَلِيفَةُ حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ، وَقَالَ، لَمْ يَبْتَئِزْ. فَسَّرَهُ قَتَادَةُ لَمْ يَدَّخِرْ.

(الشرح)

<u>شرحُ حديث أبي سعيد عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً فِيمَنْ سَلَفَ»:</u>

هذا حديث أبي سعيد على ما سبق في حديث أبي هريرة.

(المتن)

باب كَلاَمِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ

٧٦٠٢- عن أَنَس. رضى الله عنه. قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ شُفِّعْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ. فَيَدْخُلُونَ، ثُمَّ أَقُولُ: أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى شَيْءٍ». فَقَالَ أَنَسٌ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم.

٧٦٠٣- عن مَعْبَد بْن هِلاَلٍ الْعَنَزِيّ، قَالَ اجْتَمَعْنَا نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَذَهَبْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَذَهَبْنَا مَعَنَا بِثَابِتٍ إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ لَنَا عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَإِذَا هُوَ فِي قَصْرِهِ فَوَافَقْنَاهُ يُصَلِّي الضُّحَى، فَاسْتَأْذَنَّا، فَأَذِنَ لَنَا وَهْوَ قَاعِدٌ عَلَى فِرَاشِهِ فَقُلْنَا لِثَابِتٍ لاَ تَسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ أَوَّلَ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ فَقَالَ يَا أَبَا حَمْزَةَ هَؤُلاَءِ إِخْوَانُكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ جَاءُوكَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ. فَقَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ. فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ أَنَا لَهَا. فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيُقَالُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيُقَالُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ». فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ وَهْوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ فَحَدَّثْنَا بِمَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَتَيْنَاهُ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَنَا فَقُلْنَا لَهُ يَا أَبَا سَعِيدٍ جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ هِيهِ، فَحَدَّثْنَاهُ بِالْحَدِيثِ فَانْتَهَى إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ فَقَالَ هِيهِ، فَقُلْنَا لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا. فَقَالَ لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهْوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً فَلاَ أَدْرِي أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ

أَنْ تَتَّكِلُوا. قُلْنَا يَا أَبَا سَعِيدٍ فَحَدِّثْنَا، فَضَحِكَ وَقَالَ خُلِقَ الإِنْسَانُ عَجُولاً مَا ذَكَرْتُهُ إِلاَّ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدَّثَنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ قَالَ: «ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ».

(الشرح)

شرح قول المصنف: "باب كَلاَمِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ":

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه.

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم.

وهذا التبويب الذي ذكره البخاري في كتاب التوحيد استدلّ له بذكر حديث الشفاعة، وتضمّن حديث الشفاعة أن الله سبحانه وتعالى يكلّم نبيه عليه الصلاة والسلام، فهذا قوله: باب كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم.

وسيأتي في الأحاديث اللاحقة بهذا التبويب ما يقع لغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وذكر فيه حديث أنس وذكره مجملًا ثم ذكر تفصيله بعد ذلك.

وهذا الحديث جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجهٍ، ومن ذلكم هذا الوجه الذي رواه أنس رضي الله عنه وهو متفق على صحته، أعني حديث أنس، ومن المخرّج عند الشيخين، وإن كان ثمة بعض الاختلاف في الألفاظ بين الروايات، وهو في الشفاعة العظمى.

والشفاعة العظمى هي: مقام للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي أعظم الشفاعة التي يؤتها عبدٌ من عباد الله، وهي لنبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وقد أجمع أهل القبلة على

إثبات الشفاعة العظمى؛ بمعنى أن الخلاف الذي وقع في أهل الكبائر ونحو ذلك لم يقع في أصل الشفاعة وإن كان هذا الحديث تضمّن الشفاعة لمن هو من أهل الكبائر كما تضمّن الشفاعة العظمى.

فأما الشفاعة العظمى من حيث هي ، فهذه مجمعٌ عليها بين أهل القبلة قاطبة، ودليلها الكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب: فهو ظاهر في القرآن، وإن لم يقع بها نصٌّ صريح، لكنه هو ظاهر القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩)﴾ [الإسراء: ٧٩].

فهذه الآية هي دليل الشفاعة العظمى، وهي ظاهر القرآن، وقد فسّر الصحابة رضي الله تعالى عنهم ذلك بالشفاعة.

ودلّ عليه ما جاء في حديث جابر وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا سمعتم المؤذن فقولوا: مثل ما يقول، كما في صحيح البخاري وغيره، ثم صلوا عليَّ، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأمر عليه الصلاة والسلام في حديث جابر أن يقول بعد المؤذن: اللّهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته.

وجاء في السنن: وابعثه المقام المحمود الذي وعدته.

وهذا قول الله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩)﴾ [الإسراء: ٧٩]، فترى أن في كلمات القرآن والسنة من الدلالة على هذه الشفاعة ما هو بيّن.

وأصل الحديث في الصحيح: إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثلما يقول: ثم صلوا علي، فإنه مَن صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرة، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة.

هكذا في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما.

الشفاعة العظمى دليلها ظاهر القرآن وصريح السنة، فإن الحديث بها صريح، وهي شفاعة النبي لأهل الموقف بعد أن يتراجع عنها كبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن الناس يأتون آدم وهو أبو البشر، وفي الروايات في الصحيح تفصيل في هذا، يقولون: «**يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا، فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرْضِ، وسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فَيَقُولُ نوح عليه الصلاة والسلام: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بها عَلَى قَوْمِي**».

وهي قوله سبحانه وتعالى في ذكر دعوة نوح: ﴿**رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)**﴾ [نوح: ٢٦].

«**وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بها عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ خليل الله ونَبِيُّ اللَّهِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فَيَقُولُ إبراهيم عليه الصلاة والسلام: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغضب بَعْدَهُ مِثْلَهُ**».

وذكرَ كذباته، يعتذر هنا إبراهيم، «**فيقول: اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى عليه الصلاة والسلام**».

ويقولون له ما قالوا لمن سبقه، «**فَيَقُولُ موسى عليه الصلاة والسلام: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا،**

نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ، وَكَلِمَةٌ منه أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا».

قال النبي صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه الصلاة والسلام: **«لم يذكر ذنبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ».**

قال عليه الصلاة والسلام: **«فيأتوني فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وغَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ».**

وهذا قول الله جل وعلا: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)** ﴾ [الفتح: ١، ٢]، فذكر الله سبحانه وتعالى في صلح الحديبية من الامتنان على نبيه مقامات، ومنها: ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ [الفتح: ٢]، فغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ»**، وهذا في رواية أنس رضي الله عنه كما في رواية مسلم، وكذلك في رواية البخاري على ما ذكره البخاري هنا.

«فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ ويلهمني مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي».

وهنا قال: **«بمحامد لا تحضرني الآن»**، فهذا هو مقامُ الشفاعة العظمى، ويتبعه شفاعة النبي في أمته، وفي أهل المعاصي من أمته كما تضمنه هذا الحديث.

وهو من الأحاديث الدالة على إثبات كلام الرب جل وعلا كما جاء في سياقه وهو من الأحاديث المثبتة لمقام الشفاعة العظمى، وهي شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم، وهي المقام المحمود الذي ذكره الله في كتابه.

ومَن يشفع لهم النبي صلى الله عليه وسلم فيخرجون من النار بأمرِ الله وحده لا شريك له، وليس بأمر الأنبياء فإنهم عباد لله، وإنما هم شفعاء عند ربهم، واللهُ سبحانه وتعالى يُمضي من أمره ما يمضيه، ويغفر لعباده ما يغفر، وإنما النبي شافع، وليس بيده من الأمر شيء، كما قال الله جل وعلا: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ونزل عليه ذلك لما دعا عليه الصلاة والسلام.

فالأنبياء في حياتهم وفي مقام الشفاعة يوم القيامة إذا دعوا الله سبحانه وتعالى، وإذا شفعوا يوم القيامة، فهذا مقامٌ من امتنان الله عليهم، وهو أيضًا مقام من عبادتهم لله سبحانه وتعالى، بدعائهم إياه، ولكن دعاء الأنبياء لا يدّل على أن لهم من الأمر شيء؛ إذ قد قال الله لنبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]؛ أي أن الأمر كله لله وحده لا شريك له، ولكن يستجيب الله، ويقبل الله الشفاعة من الأنبياء وخيرُ مَن تُقبل شفاعته هو نبينا عليه الصلاة والسلام، وكذلك أولي العزم من الرسل.

والشفاعة لا تقتصر على الأنبياء، بل يشفع غير الأنبياء من الصالحين كما جاءت بذلك الأحاديث الصحاح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وترى أنه بهذا الحديث ذكرُ مغفرة الله لعباده، وأنه يخرج من النار مَن قال: لا إله إلا الله، والمقصود هنا: أنه مسلمٌ. وهذا مما لا يلتبس على أحدٍ، حتى ما جاء في بعض الرواية في حديث أبي سعيد: **«مَن لم يعمل خيرًا قط»**.

فهنا ذهب بعضهم إلى أنه يرتب عليه نفي بعض الأعمال، ثم يرتب على ذلك أن ترك هذه الأعمال لا يؤثر على أصل الإيمان ، فهذا الاستدلال ليس لازمًا، إنما المقصود بإجماع المتقدمين من أهل العلم، وأظنه لا يختلف في فهمه أحد، بإجماع أهل العلم قاطبةً أن هؤلاء من المسلمين، فهذا أمرٌ بدهي، قد استقر به الإجماع القديم، ومضى عليه أهل العلم من بعد ذلك، أن هؤلاء من المسلمين.

أما مسألة ما يقع به الكفر وما لا يقع به الكفر، فهذه مسألة أخرى، الحديث لمْ ينفِ ذلك ولم يُثبت ذلك، فهو لا يُستعمل كدليل على أن الصلاة ليس في تركها ما هو كفر، كما استدل به بعضهم، هذا مقامٌ آخر؛ لأنه بالإجماع القطعي أن هؤلاء الذين ذكرهم النبي هم من أمته من المسلمين، فهذا ليس محل لبس.

(المتن)

٧٦٠٤- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَبْوًا فَيَقُولُ لَهُ رَبُّهُ ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ رَبِّ الْجَنَّةُ مَلأَى. فَيَقُولُ لَهُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فَكُلُّ ذَلِكَ يُعِيدُ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ مَلأَى. فَيَقُولُ: إِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا عَشْرَ مِرَارٍ».

(الشرح)

شرحُ حديث عبد الله بن عمر: «إِنَّ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ»:

هذا في آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، جاء من حديث عبد الله، وهذا المعنى في ذكر مَن هو آخر أهل الجنة دخولًا الجنة جاء من غير وجهٍ عن النبي عليه الصلاة والسلام، فجاء من رواية عبد الله كما في هذا السياق وجاء من رواية أبي سعيد الخدري في الصحيح، وجاء من رواية أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

وحديث أبي سعيد وأبي هريرة حديث واحد من جهة رواية الصحابة له، لكن اختلفت الرواية بين أبي سعيد وأبي هريرة، في آخر الحديث أن الله قال للرجل: ذلك لك ومثله معه، أم قال له: ذلك لك وعشرة أمثاله معه؟

فهذا محل اختلاف الرواية، وفضل الله سبحانه وتعالى واسع على عباده، فهذا هو آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وذُكر في حديث أبي سعيد وحديث أبي هريرة من تفصيل شأنه ما ذُكر، رجل يمشي مرة ويكبو ويحبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منكِ.

وفي رواية: فيقول لله جل وعلا: يا رب، باعدني عن النار؛ فإنه قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها، ثم يراجع العبد ويسأل ربه سبحانه وتعالى ويدعو ربه النجاة من النار، ويقربه الله سبحانه وتعالى إلى باب الجنة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**فإذا دنا منها انفهقت له الجنة ورأى ما فيها من الخير والسرور، فيقول: أي رب، أدخلنيها**».

وفي الرواية: أن الله يقول له: «**ويلك يا ابن آدم، ما أغدرك، ألم تسأل؟ ألم تقل أنك لا تسأل غير ما أُعطيتَ؟ فيقول: يا رب، هذه لا أسألكَ غيرها**».

فهذه الأحرف من الرواية في الصحيح وغيره جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهي شاهدةٌ كما ذكر البخاري في حديث عبد الله، هذا شاهد لما بوّب عليه، وهو باب كلام الرب عز وجل للأنبياء وغيرهم.

(المتن)

٧٦٠٥- عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

قَالَ الأَعْمَشُ وَحَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ عَنْ خَيْثَمَةَ مِثْلَهُ وَزَادَ فِيهِ «وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

(الشرح)

شرحُ حديث عدي بن حاتم: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ»:

هذا حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وفيه ذكرُ كلام الرب جل وعلا لعباده.

(المتن)

٧٦٠٦- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ: إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَعَلَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْخَلاَئِقَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ. فَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَضْحَكُ حَتَّى

بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَعَجُّبًا وَتَصْدِيقًا لِقَوْلِهِ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾».

(الشرح)

شرحُ حديث عبد الله بن عمر: قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْيَهُودِ:

هذا أيضًا حديث عبد الله، في ذكر مجيء هذا الحبر من اليهود، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ضحك تعجبًا وتصديقًا، وفيه قول الله سبحانه وتعالى.

(المتن)

٧٦٠٧- عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ، أَنَّ رَجُلاً، سَأَلَ ابْنَ عُمَرَ كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ قَالَ: «يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ: أَعَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ. وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ».

٧٦٠٨- عَنِ ابْنِ عُمَرَ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم.

(الشرح)

شرحُ حديث عبد الله بن عمر: «يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ»:

هذا حديث عبد الله بن عمر، وفيه ذكر كلام الرب جل وعلا لمن شاء من عباده.

(المتن)

٣٧- باب قَوْلِهِ ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾

٧٦٠٩ – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجْتَ ذُرِّيَّتَكَ مِنَ الْجَنَّةِ. قَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالاَتِهِ وَكَلاَمِهِ، ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ. فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قَوْلِهِ ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾":

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمدٍ وآله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام البخاري رحمه الله في كتاب التوحيد: باب ما جاء في قوله عز وجل: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«احتج آدم وموسى..»** إلى آخره.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الشاهد من هذا الحديث قوله: **« أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ برسالته -أو بِرِسَالاَتِهِ- وَكَلاَمِهِ»**. وقوله: **«وكلامه»**: أي أن الله كلّم موسى كما هو في صريح القرآن ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. الآية.

فهذا دليل من السنة في إثبات صفة الكلام لله، وبوّب عليه البخاري بقول الله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

وفيه من المسائل في القدر، أن الله سبحانه وتعالى شرع لعباده أن يذكروا قدره في المصائب، فهذا هو وجه قول النبي صلى الله عليه وسلم: **«فحج آدم موسى»**؛ لأنّ موسى ذكر أمر المصيبة وهي الخروج من الجنة، وليس فيه دليل على الاحتجاج بالقدَر على المعاصي، وهذا المعنى معنى لا يختلف أهل الإسلام على بطلانه، وليس في شريعة النبي أو شرائع الأنبياء ما يصحّحه، ولا يُتصوّر أن يُقال في تقرير هذا المعنى على هذا الحديث أن هذا كان في بعض الشرائع؛ لأن هذا لم يُشرع في شريعة نبيٍّ البتة.

وليس الحديث فيه أصلًا، فإن موسى إنما سأل آدم ليس عن معصيته، وإنما قال له: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ وخروج آدم من الجنة ليس هو المعصية، وإنما خروجه

المصيبة التي لحقته بعد الخطيئة التي تاب الله عليه منها، وهي أكله من الشجرة، فالمعصية المذكورة في القرآن: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] هي أكله من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها.

وأما الخروج من الجنة فهي المصيبة التي لحقته، فموسى إنما سأله عن المصيبة، فلمّا سأله عن المصيبة، أجاب آدم بأن هذه المصيبة قد قدّرها الله عليه، وهذا أمرٌ مشروع في شريعة جميع الرسل أن العبد إذا أصابته مصيبة، فإنه يذكر قدر الله على المصيبة، وهذا ما جاء في السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم: **«وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدرُ الله وما شاء فعل»** أو **«قدّر الله وما شاء فعل»**.

فهذا ليس من باب الاحتجاج بالقدر على المعاصي في شيء، وهذا أي الاحتجاج بالقدر على المعاصي لم يقع في شريعة نبي، وهو مخالف للشرع بل ومخالف للعقل والفطرة.

أما مخالفته للفطرة، فلكونه على خلاف الهدي الذي فطر الله الناس عليه، فإنه فطرهم على التوحيد والخير، وأما مخالفته للشرع فبيّن ويقتضي إسقاط الأمر والنهي، وأما مخالفته للعقل فلوجوه؛ منها: التناقض، وغير ذلك، ولأنه يتسلسل بحكم العقل نفسه على إبطال جميع الأحكام التي يقضي العقل بتصحيحها.

فلا يُستغرب ذكر أنه مخالف للعقل، فهو كذلك مخالف لدليل العقل من وجوه، وقد أشار ابن تيمية رحمه الله إلى جملةٍ من الأوجه العقلية في بطلان الاحتجاج بالقدر على المعاصي التي يفعلها بنو آدم، وأن هذا مخالف للشرائع كلِّها، ومخالف للعقل ومخالف للفطرة.

(المتن)

٧٦١٠- عَنْ أَنَسٍ رضى الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يُجْمَعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا. فَيَأْتُونَ آدَمَ

فَيَقُولُونَ لَهُ أَنْتَ آدَمُ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ الْمَلاَئِكَةَ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا. فَيَقُولُ لَهُمْ لَسْتُ هُنَاكُمْ. فَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ».

٧٦١١- عن أنسٍ بن مالك قال: لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم..

(الشرح)

شرحُ حديث أنس بن مالك: «يُجْمَعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ»:

الحديث الثاني وهو حديث أنس في الشفاعة، وحديث الشفاعة العظمى جاء من رواية جماعة من الصحابة، وأجمع المسلمون على وقوع هذه الشفاعة، ودليلها ظاهر القرآن وصريح السنة المتواترة والإجماع، أما ظاهر القرآن فهو قوله جل وعلا: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩)﴾ [الإسراء: ٧٩]، وهو عند المفسرين من الصحابة ويدل عليه ظاهر السنة أن المقام المحمود هو الشفاعة.

وجاء في صريح السنة ذكرُ هذه الشفاعة، وأجمع عليها أهل السنة بل سائر أهل القِبلة، فلم تخالف فيه المعتزلة ونحوها من الطوائف التي خالفت في الشفاعة لأهل الكبائر.

(المتن)

٧٦١٢- عن أنس بن مالك قال لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ أَنَّهُ جَاءَهُ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ وَهْوَ نَائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَقَالَ أَوَّلُهُمْ أَيُّهُمْ هُوَ فَقَالَ أَوْسَطُهُمْ هُوَ خَيْرُهُمْ. فَقَالَ آخِرُهُمْ خُذُوا خَيْرَهُمْ. فَكَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمْ يَرَهُمْ حَتَّى أَتَوْهُ لَيْلَةً أُخْرَى فِيمَا يَرَى قَلْبُهُ، وَتَنَامُ عَيْنُهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ وَكَذَلِكَ الأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلاَ تَنَامُ قُلُوبُهُمْ، فَلَمْ يُكَلِّمُوهُ حَتَّى احْتَمَلُوهُ فَوَضَعُوهُ عِنْدَ بِئْرِ زَمْزَمَ فَتَوَلاَّهُ مِنْهُمْ جِبْرِيلُ فَشَقَّ جِبْرِيلُ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَى لَبَّتِهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَدْرِهِ وَجَوْفِهِ، فَغَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ بِيَدِهِ، حَتَّى أَنْقَى جَوْفَهُ، ثُمَّ أُتِيَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ تَوْرٌ مِنْ ذَهَبٍ مَحْشُوًّا إِيمَانًا وَحِكْمَةً، فَحَشَا بِهِ صَدْرَهُ وَلَغَادِيدَهُ. يَعْنِي عُرُوقَ حَلْقِهِ. ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَضَرَبَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِهَا فَنَادَاهُ أَهْلُ السَّمَاءِ مَنْ هَذَا فَقَالَ جِبْرِيلُ. قَالُوا وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مَعِي مُحَمَّدٌ. قَالَ وَقَدْ بُعِثَ إليه؟

قَالَ نَعَمْ. قَالُوا فَمَرْحَبًا بِهِ وَأَهْلاً. فَيَسْتَبْشِرُ بِهِ أَهْلُ السَّمَاءِ، لاَ يَعْلَمُ أَهْلُ السَّمَاءِ بِمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ فِي الأَرْضِ حَتَّى يُعْلِمَهُمْ، فَوَجَدَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا آدَمَ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ آدَمُ وَقَالَ مَرْحَبًا وَأَهْلاً بِابْنِي، نِعْمَ الاِبْنُ أَنْتَ. فَإِذَا هُوَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِنَهَرَيْنِ يَطَّرِدَانِ فَقَالَ مَا هَذَانِ النَّهَرَانِ يَا جِبْرِيلُ قَالَ هَذَا النِّيلُ وَالْفُرَاتُ عُنْصُرُهُمَا. ثُمَّ مَضَى بِهِ فِي السَّمَاءِ فَإِذَا هُوَ بِنَهَرٍ آخَرَ عَلَيْهِ قَصْرٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ فَضَرَبَ يَدَهُ فَإِذَا هُوَ مِسْكٌ قَالَ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ قَالَ هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ. ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَقَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَتْ لَهُ الأُولَى مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ. قَالُوا وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم. قَالُوا وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ. قَالُوا مَرْحَبًا بِهِ وَأَهْلاً. ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ وَقَالُوا لَهُ مِثْلَ مَا قَالَتِ الأُولَى وَالثَّانِيَةُ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى الرَّابِعَةِ فَقَالُوا لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَقَالُوا لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَقَالُوا لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، كُلُّ سَمَاءٍ فِيهَا أَنْبِيَاءُ قَدْ سَمَّاهُمْ فَأَوْعَيْتُ مِنْهُمْ إِدْرِيسَ فِي الثَّانِيَةِ، وَهَارُونَ فِي الرَّابِعَةِ، وَآخَرَ فِي الْخَامِسَةِ لَمْ أَحْفَظِ اسْمَهُ، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّادِسَةِ، وَمُوسَى فِي السَّابِعَةِ بِتَفْضِيلِ كَلاَمِ اللَّهِ، فَقَالَ مُوسَى رَبِّ لَمْ أَظُنَّ أَنْ يُرْفَعَ عَلَيَّ أَحَدٌ. ثُمَّ عَلاَ بِهِ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللَّهُ، حَتَّى جَاءَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى وَدَنَا الْجَبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّى حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى اللَّهُ فِيمَا أَوْحَى إِلَيْهِ خَمْسِينَ صَلاَةً عَلَى أُمَّتِكَ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. ثُمَّ هَبَطَ حَتَّى بَلَغَ مُوسَى فَاحْتَبَسَهُ مُوسَى فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ مَاذَا عَهِدَ إِلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ عَهِدَ إِلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ وَعَنْهُمْ. فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَى جِبْرِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ أَنْ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ. فَعَلاَ بِهِ إِلَى الْجَبَّارِ فَقَالَ وَهْوَ مَكَانَهُ يَا رَبِّ خَفِّفْ عَنَّا، فَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تَسْتَطِيعُ هَذَا. فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرَ صَلَوَاتٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مُوسَى فَاحْتَبَسَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهُ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ حَتَّى صَارَتْ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ، ثُمَّ احْتَبَسَهُ مُوسَى عِنْدَ الْخَمْسِ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ لَقَدْ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمِي عَلَى أَدْنَى مِنْ هَذَا فَضَعُفُوا فَتَرَكُوهُ فَأُمَّتُكَ أَضْعَفُ أَجْسَادًا

وَقُلُوبًا وَأَبْدَانًا وَأَبْصَارًا وَأَسْمَاعًا، فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ، كُلَّ ذَلِكَ يَلْتَفِتُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَى جِبْرِيلَ لِيُشِيرَ عَلَيْهِ وَلاَ يَكْرَهُ ذَلِكَ جِبْرِيلُ، فَرَفَعَهُ عِنْدَ الْخَامِسَةِ فَقَالَ يَا رَبِّ إِنَّ أُمَّتِي ضُعَفَاءُ أَجْسَادُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ فَخَفِّفْ عَنَّا فَقَالَ الْجَبَّارُ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ إِنَّهُ لاَ يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، كَمَا فَرَضْتُ عَلَيْكَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ. قَالَ. فَكُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، فَهْىَ خَمْسُونَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ وَهْىَ خَمْسٌ عَلَيْكَ. فَرَجَعَ إِلَى مُوسَى فَقَالَ كَيْفَ فَعَلْتَ فَقَالَ خَفَّفَ عَنَّا أَعْطَانَا بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا. قَالَ مُوسَى قَدْ وَاللَّهِ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ فَتَرَكُوهُ، ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ أَيْضًا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَا مُوسَى قَدْ وَاللَّهِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي مِمَّا اخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ. قَالَ فَاهْبِطْ بِاسْمِ اللَّهِ. قَالَ وَاسْتَيْقَظَ وَهْوَ فِي مَسْجِدِ الْحَرَامِ.

(الشرح)

شرحُ حديث أنس بن مالك قال: لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ:

هذا الحديث في مسرى النبي صلى الله عليه وسلم، ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسراء به ثم العروج به إلى السماء، جاء في السنة مفصلًا، الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها، جاء من رواية جماعة من الصحابة، وأصل ذلك في إسراء النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن في قول الله جل وعلا: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾ [الإسراء: ١].

وحصل للنبي في هذا المعراج وفي هذا المسرى حصل له عليه الصلاة والسلام من الآيات المذكورة في القرآن وفي الأحاديث الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقدرٌ من ذلك، جاء في هذا الحديث الذي ذكره البخاري في كتاب التوحيد، وفيه: دليلٌ بيّنٌ من

جهة إثبات صفة كلام الله جل وعلا لنبيه صلى الله عليه وسلم. في ذكرِ الله لموسى وكلام الله لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام.

(المتن)

٣٨- باب كَلاَمِ الرَّبِّ مَعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

٧٦١٢- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رضى الله عنه- قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. فَيَقُولُونَ يَا رَبِّ وَأَىُّ شَىْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب كَلاَمِ الرَّبِّ مَعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ":

قال: الحديث في كلام الرب مع أهل الجنة كما بوّب عليه البخاري، وهو صريح في إثبات صفة الكلام لله.

وهذا الحديث له أيضًا شواهد من رواية جماعة من الصحابة.

(المتن)

٧٦١٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ فَقَالَ أَوَ لَسْتَ فِيمَا شِئْتَ. قَالَ بَلَى وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ. فَأَسْرَعَ وَبَذَرَ فَتَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ وَتَكْوِيرُهُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ فَإِنَّهُ لاَ يُشْبِعُكَ شَىْءٌ. فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ لاَ تَجِدُ هَذَا إِلاَّ قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، فَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم.

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ:

أيضًا هذا الحديث حديث أبي هريرة فيه كلام الرب مع عباده.

(المتن)

٣٩- باب ذِكْرِ اللَّهِ بِالأَمْرِ وَذِكْرِ الْعِبَادِ بِالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالرِّسَالَةِ وَالإِبْلاَغِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾، ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ غُمَّةٌ: هَمٌّ وَضِيقٌ. قَالَ مُجَاهِدٌ ﴿ اقْضُوا إِلَيَّ ﴾ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ، يُقَالُ افْرُقِ اقْضِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ﴾ إِنْسَانٌ يَأْتِيهِ فَيَسْتَمِعُ مَا يَقُولُ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَهْوَ آمِنٌ حَتَّى يَأْتِيَهُ فَيَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ، وَحَتَّى يَبْلُغَ مَأْمَنَهُ حَيْثُ جَاءَهُ. النَّبَأُ الْعَظِيمُ الْقُرْآنُ ﴿ صَوَابًا ﴾ حَقًّا فِي الدُّنْيَا وَعَمَلٌ بِهِ.

٤٠- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾.

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب ذِكْرِ اللَّهِ بِالأَمْرِ وَذِكْرِ الْعِبَادِ بِالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالرِّسَالَةِ وَالإِبْلاَغِ ":

الباب الذي ذكره البخاري قبله، باب ذِكْرِ اللَّهِ بِالأَمْرِ وَذِكْرِ الْعِبَادِ بِالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالرِّسَالَةِ وَالإِبْلاَغِ، وفيه من الآيات المذكورة في كتاب الله ما يدل على إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، وأن الله يذكر عباده كما أنّ العباد يذكرون ربهم بما هو أهله.

ومن ذلك قول الله جل وعلا: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ﴾؛ وهو القرآن.

(المتن)

٤٠- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، وَقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ وَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ. فَذَلِكَ إِيمَانُهُمْ وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وَمَا ذُكِرَ فِي خَلْقِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَكْسَابِهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ مَا تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ إِلاَّ بِالْحَقِّ بِالرِّسَالَةِ وَالْعَذَابِ ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ الْمُبَلِّغِينَ الْمُؤَدِّينَ مِنَ الرُّسُلِ وَإِنَّا لَهُ حَافِظُونَ عِنْدَنَا ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ الْقُرْآنُ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ الْمُؤْمِنُ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذَا الَّذِي أَعْطَيْتَنِي عَمِلْتُ بِمَا فِيهِ.

٧٦١٤- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ. قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾":

هذا الباب باب قول الله تعالى: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ هو في تقرير التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وهذا هو أصل دين الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ فإنهم بُعثوا بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فهذا هو أصلُ دين الأنبياء، والأنداد هم الشركاء مع الله، فكل مَن جعل شريكًا مع الله وعبد غير الله فهذا يُسمى نِدًّا، وكل عبادة لغير الله فهي عبادة باطلة، سواء عبد حجرًا أو صنمًا أو عبدَ غير الله ممن خلق الله، ولو كانوا من الصالحين من عباد الله.

وأنتَ تعلم أنّ أشرف مَن خلقَ الله: الملائكة والأنبياء، ومع ذلك بيّن الله سبحانه وتعالى أن مَن عبد الملائكة ومَن عبد النبيين فهو كافر مشرك، وإذا كان ذلك فيما عبد نبيًّا أو مَلكًا، فمَن عبد غيرهم فإنه أظهر وأبين وإن كان مادة الشرك جميعها بيّنت الضلال، والبطلان لكن دخلت بعض الشبه الشيطانية على بعض بني آدم، فلم يفهموا أن عبادة غير الله هي شركٌ على كل تقدير، سواء عبد صنمًا أو عبد نبيًّا، والنبي والمَلك، وكذلك مَن دونهم من الصالحين وآحاد المسلمين لا يُوجد مسلمٌ فضلًا عن الصالحين والأولياء، فضلًا عن الملائكة والنبيين يرضى بعبادته مع الله، بل هم تبرأوا من ذلك، ولهذا جاء قوله جل وعلا: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠) ﴾ [آل عمران: ٨٠].

فهذا صريح أن عبادة غير الله على كل تقدير فهي عبادة الكفر وعبادة الشرك.

والأنبياء والملائكة بُرآء من هذه العبادة كما تبرأ عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام في قول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

فهذا صريح أن العبادة هي حقٌّ لله وحده لا شريك، ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: ١١٦] أي الله سبحانه وتعالى يعلم، وما سأل الله عبده لكونه جل وعلا لم يعلم، فهذا بيّن في العقل والفطرة، وإنما سأل الله جل وعلا عبده لتقوم الشهادة على خلقه في ذلك، ولحكمٍ أراده الله بهذه الشهادة.

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧]، فبدأ عيسى بذكر مقامات التوحيد، توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة، وتوحيد الأسماء والصفات، أنتَ ترى في كلام عيسى الذي ذكره الله في كتابه في قول الله جلا وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧]، فتضمن هذا الذكر توحيد الله في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

ثم جاء قوله جل وعلا: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة: ١١٧]، وهذا صريح في أمرِ التشريع، فأول ما أمر الله به الأنبياء وأمرهم أن يبلغوه العباد هو التوحيد.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾ [المائدة: ١١٧]. فإذًا مَن أتى بابًا من الشرك فهو الشرك، سواء كان المعبود مع الله نبيًّا أو ملكًا أو صالحًا أو كان جِنًّا أو صنمًا أو غير ذلك، وهذا لا يلتبس التسوية الملائكة والنبيين والصالحين بالجن أو الشياطين أو الأصنام، فهذا لا يقول به أحد من أهل الإسلام البتة، بل مقام الأنبياء وشرف الأنبياء وفضل الأنبياء والملائكة بل وحتى الصالحين والأولياء بل حتى آحاد المسلمين من الجن والإنس مقامهم محفوظ في الفضل والثناء، والأصل هو الثناء عليهم بما يليق بأحوالهم ومراتبهم، والبراءة من أمر الشياطين، وما هم عليه من السوء.

ولا يُذكر الشياطين إلا بالسوء كما ذكر الله إبليس وشياطين الإنس والجن بالسوء في القرآن، وما هم عليه من الفساد والظلم والكفر بالله سبحانه وتعالى بخلاف الأنبياء والرسل، وآحاد المسلمين، وصالحيهم، ما هم عليه من الإيمان وما إلى ذلك، ولكن هذا الفرق بين الأنبياء والرسل والملائكة والصالحين وآحاد المسلمين مقابل الجن أو مقابل

الشياطين وليس مقابل الجن؛ لأن في الجن مسلمين، مقابل الشياطين من شياطين الإنس والجن، وكذلك الجمادات والأصنام ما يقابل هذا وهذا، الفرق متحقّق، فلا أحد يسوي الأنبياء والصالحين باللات والعُزّى كما حاول بعضهم أن يوجد شبهة في ذلك، كيف يُجعل الأنبياء والأولياء مثل اللات والعُزى، إنما هو الشرك في القرآن، واللهُ سمّى عبادة اللات والعُزى شركًا، وسمى عبادة يغوث ويعوق ونسرا شركًا في حكم القرآن هو الشرك والكفر.

كما أن الله سبحانه وتعالى بيّن أن عبادة الملائكة هي أيضًا من الكفر بالله، وعبادة الأنبياء من الكفر بالله، ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ٨٠]، فهو اسمُ الكفر المطلق، الكفر الأعظم، فسماه الله الكفر به.

وعن هذا جاء قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢)﴾ [المائدة: ٧٢]، فهذا الأصل هو أعظم الأصول الشرعية وهو توحيد الله جل وعلا، وألا يُتخذ معه أنداد، بل الدين الخالص حق الله جل وعلا، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

فالعناية بهذا الأصل علمًا وعملًا وفقهًا وتعبدًا لله جل وعلا، هو أشرف العلم وأشرف العمل، وأشرف الفقه.

وذكرَ في ذلك جملةً من الأحاديث، جملةً من آيات القرآن، والآثار المعلّقة عن بعض السلف، وذكر في ذلك حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ: **«أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ»**.

وجواب الرسول لعبد الله بن مسعود تضمن بيان الحكم الشرعي وبيان البطلان العقلي والشرعي للشرك.

بيّن النبي عليه الصلاة والسلام أو تضمن جوابه بيان بطلان الشرك شرعًا وبطلان الشرك عقلًا وفطرةً، فالشرك باطل شرعًا فهو خلاف أصل دين الرسل كما نعلم، وهذا مستفيض متواتر في القرآن والسنة.

وهو باطل فطرةً؛ لأن الله فطر العباد على التوحيد، وهو باطل عقلًا.

ومن أوجه البطلان العقلية ما تضمنته تلك الكلمة النبوية، وقد أُوتي عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم لما قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»، مثل ما جاء في القرآن: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) ﴾ [الطور: ٣٥]، فهذا يتضمن أيضًا لأن العقل هو مناط التكليف.

قد يقول قائل: ما علاقة العقل بالتوحيد؟ نقول: العلاقة أن العقل مناط التكليف، فحتى يتبين أن طريقتهم مخالفة طريقة المشركين مخالفة للشرع والعقل، وهذا مطابق لقول الله جل وعلا: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ﴾ [الملك: ١٠].

وكلما كانت المسألة أشرف في الدين فهي أكثر استفاضةً في دليلها، ولهذا التوحيد دليله مستفيض كما سبق، ومتواتر، (وكما سبق في درس التفسير) إن الله جعل الإيمان بالمثل لما فيه من البيان المطلق، بخلاف المسائل التي يعرض فيها الاجتهاد والاحتمال.

(المتن)

٤١- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

٧٦١٥- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ -رضى الله عنه- قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ، أَوْ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ، كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ: أَحَدُهُمْ أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلاَ يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا، وَقَالَ الآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا

جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ﴾ الآيَةَ.

(الشرح)

شرح قول المصنف: " باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾":

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

قال الإمام البخاري رحمه الله: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ثم ذكر أحاديث عبد الله، وهذا فيه إثبات صفة العلم لله سبحانه وتعالى، وغيرها من الصفات المتضمنة في هذا الحديث، ومنها؛ صفة القدرة، فإن الله ينطق أسماعهم، وأبصارهم وجلودهم، والله سبحانه وتعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)﴾ [غافر: ١٩].

وهذا الزلل هو الضلال الذي ذكره ذاك القرشي والثقفي، أو أولئك النفر من قريش أو ثقيف إنما هو من العارض في شأن العرب، والعرب أمّة مشركة قبل الإسلام، ولكن في الجملة إلا من كان متحنفًا منهم، ولكن كان ساعدًا الشرك بالذات.

ولكن في أمر الربوبية يقرّون بجمل الربوبية، وأن الله يعلم كل شيء، وعلى كل شيء قدير، وأنه الله الذي خلقهم سبحانه وتعالى، ولكن يقع منهم من الانحراف في الربوبية لجملة من الأسباب.

ومن الأسباب في الانحراف في الربوبية؛ الكبرياء والجهل الذي طبع على بعض العرب، كما في مثل هذه الرواية .

(المتن)

٤٢- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ وَ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾.

وَأَنَّ حَدَثَهُ لاَ يُشْبِهُ حَدَثَ الْمَخْلُوقِينَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ اللَّهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لاَ تَكَلَّمُوا فِي الصَّلاَةِ».

٧٦١٦- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ كُتُبِهِمْ وَعِنْدَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ أَقْرَبُ الْكُتُبِ عَهْدًا بِاللَّهِ، تَقْرَءُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ.

٧٦١٧- أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم أَحْدَثُ الأَخْبَارِ بِاللَّهِ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ وَغَيَّرُوا فَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ، قَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ لِيَشْتَرُوا بِذَلِكَ ثَمَنًا قَلِيلاً، أَوَ لاَ يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ، فَلاَ وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلاً مِنْهُمْ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ.

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ":

قال البخاري رحمه الله: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾، وذكر الآيات وحديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من قوله، وهذا التبويب من البخاري فيه بيان أن الله سبحانه وتعالى متصفٌ بصفة الكلام، وأن كلامه متعلقٌ بمشيئته، وإرادته.

وهذا من دلالة قول الله تعالى: وَ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾، والله سبحانه وتعالى يتكلم، والكلام صفةٌ من صفات الله، وكلّم الله جل وعلا موسى كما جاء في كتاب

الله، ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) ﴾ [النساء: ١٦٤]، وفي قوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، إلى غير ذلك.

والكلام متعلقٌ بإرادة الربّ ومشيئته، وليس معنى واحدًا قائمًا بالنفس، كما ذكره بعض متكلمة أهل الإثبات، فإنّ هذا القول ليس موافقًا للآيات، والأحاديث بل مخالفٌ للنص ولإجماع السلف من الصحابة رضي الله تعالى عنه، وأهل القرون الثلاثة الفاضلة.

وأما حديث عبد الله بن عباس فهو متضمن لصفة كلام الله سبحانه وتعالى، وأن الله جل وعلا تكلم به وأن القرآن كلام الله كما جاء صريحًا في كتاب الله، ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦].

وتضمّن هذا الحديث من الفقه ما ذكره ابن عباس من سؤال بعض المسلمين لأهل الكتاب مع كثرة ما وقع من التبديل والتحريف في كتبهم ودينهم، كما قال الله جل وعلا: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة: ٧٩].

وبيّن الله سبحانه وتعالى ما يلوون به ألسنتهم، ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٨]، إلى غير ذلك مما ذكره الله جل وعلا عن هؤلاء.

فبيّن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا من جلالة علمه وفقهه؛ أن هذه أمة ليست بحاجة في أمر دينها إلى غير ما ذكره الله ورسوله، إن في الكتاب وهو القرآن الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت: ٤٢]، وفيه من الهدى والنور ما يوجب صلاح القلوب، وصلاح الأحوال، واستقامة الدين، واستقامة الشريعة، واستقامة الحياة، إلى غير ذلك.

(المتن)

٤٣- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ وَفِعْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم حَيْثُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا مَعَ عَبْدِي حَيْثُمَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ».

٧٦١٨- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ -فَقَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ أُحَرِّكُهُمَا لَكَ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُحَرِّكُهُمَا فَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ- فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾، قَالَ: جَمْعُهُ فِي صَدْرِكَ ثُمَّ تَقْرَؤُهُ. ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ. قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- اسْتَمَعَ فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم كَمَا أَقْرَأَهُ.

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: "باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾":

وهذا التبويب أيضًا، قال البخاري رحمه الله: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾، وذكر فيه أحاديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وكذلك يدل على أن الله جل وعلا متصفٌ بصفة الكلام، وأن القرآن كلام الله.

(المتن)

٤٤- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ﴿ يَتَخَافَتُونَ ﴾ يَتَسَارُّونَ.

٧٦١٩- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضى الله عنهما- فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾، قَالَ: نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ، فَكَانَ إِذَا صَلَّى

بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَإِذَا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَقَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ﴾؛ أَيْ بِقِرَاءَتِكَ، فَيَسْمَعَ الْمُشْرِكُونَ، فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ، ﴿وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ عَنْ أَصْحَابِكَ فَلاَ تُسْمِعُهُمْ، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾.

٧٦٢٠- عَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ فِي الدُّعَاءِ.

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾":

قال البخاري رحمه الله: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، الآيات، وذكر حديث ابن عباس، وحديث عائشة رضي الله تعالى عنهما، وهذا التبويب أيضًا تضمن أن الله سبحانه وتعالى متصفٌ بصفة العلم، ومتصفٌ بصفة الكلام، وأن كلام الرب بمشيئته وإرادته، وجاء قوله: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ﴾ أي: بِقِرَاءَتِكَ، وهذا هو التفسير المعتبر كما جاء في رواية ابن عباس؛ أن الصلاة هنا القراءة.

وهذا على معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى في حديث أبي هريرة في الصحيح: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي**»، فقال: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي**»، وهذا قوله جل وعلا: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ﴾.

(المتن)

٧٦٢١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ». وَزَادَ غَيْرُهُ: «يَجْهَرُ بِهِ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»:

هذا حديث أبو هريرة مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم: **«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»**؛ بمعنى أنّ القرآن يُلقى (كما كان النبي صلى الله عليه وسلم)؛ أي يُقرأ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأه، وهذا قول الله جل وعلا: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) ﴾ [المزمل: ٤]، والترتيل المذكور في القرآن هو الموافق لقواعد اللغة العربية، وطرق العرب في إلقاء الكلام.

ويكون ذلك على وجهٍ من التحبير والتزيين، والتغنّي، كما جاء في هدي الصحابة رضي الله تعالى عنهم، الذين أخذوا ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، دون أن يصل الأمر إلى التكلّف والمبالغة بما لم يكن مألوفًا في الصدر الأول من القراءة.

وقد نبه على ذلك الإمام أحمد في المتقدمين، وابن تيمية في المتأخرين.

(المتن)

٤٥- باب قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهْوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَرَجُلٌ يَقُولُ لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا فَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ».

فَبَيَّنَ اللَّهُ أَنَّ قِيَامَهُ بِالْكِتَابِ هُوَ فِعْلُهُ وَقَالَ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾. وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

٧٦٢٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لاَ تَحَاسُدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهْوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَهْوَ يَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا، لَفَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ. وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهْوَ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ فَيَقُولُ لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ».

٧٦٢٣- عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهْوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهْوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ». سَمِعْتُ سُفْيَانَ مِرَارًا لَمْ أَسْمَعْهُ يَذْكُرُ الْخَبَرَ وَهْوَ مِنْ صَحِيحِ حَدِيثِهِ.

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ ":

قال الإمام البخاري: باب قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «**رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهْوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**»، ثم ذكر بعد ذلك حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وكذلك حديث سالم عن أبيه، وهو عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهم.

فهذه الروايات عن أبي هريرة، وكذلك حديث عبد الله بن عمر في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهْوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**»

وهذا يبيّن أن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى، والعباد يعملون به، فأفعال العباد مخلوقة، وهم مستجيبون للقرآن، وأما القرآن فهو آيات بينات، وهو كلام الله.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**يقوم به**»، هذا لا يدل على شبهة تمسّكت بها المعتزلة في كلامها، وإنما كلام النبي صلى الله عليه وسلم موافقٌ لما جاء في قول الله: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦].

ولكن كلام الله يُعمل به، كما في قول الله: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فالمؤمن يقوم بالقرآن: أي يعمل به، وهذا هو تأويل القرآن، وهو العمل بالقرآن، ولذلك قال سفيان وغيره من السلف: السنة تأويل الأمر والنهي؛ أي العمل بذلك.

(نقف على هذا ويبقى إن شاء الله بعض الأبواب في كتاب التوحيد من صحيح البخاري نختم بها إن شاء الله الأسبوع القادم.

فنقف على قول المصنف: ٤٦ .باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالاَتِهِ ﴾)

(المتن)

٤٦- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالاَتِهِ﴾.

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: مِنَ اللَّهِ الرِّسَالَةُ، وَعَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْبَلاَغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ. وَقَالَ: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ﴾ وَقَالَ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي﴾.

وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ حِينَ تَخَلَّفَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ.

وَقَالَتْ عَائِشَةُ: إِذَا أَعْجَبَكَ حُسْنُ عَمَلِ امْرِئٍ فَقُلِ: اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ أَحَدٌ. وَقَالَ مَعْمَرٌ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، هَذَا الْقُرْآنُ ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ بَيَانٌ وَدِلاَلَةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾ هَذَا حُكْمُ اللَّهِ ﴿لاَ رَيْبَ﴾؛ لاَ شَكَّ، ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾؛ يَعْنِي هَذِهِ أَعْلاَمُ الْقُرْآنِ وَمِثْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾؛ يَعْنِي بِكُمْ.

وَقَالَ أَنَسٌ: بَعَثَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم خَالَهُ حَرَامًا إِلَى قَوْمِهِ، وَقَالَ: أَتُؤْمِنُونِي أُبَلِّغُ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَجَعَلَ يُحَدِّثُهُمْ.

٧٦٢٤- عَنْ جُبَيْرِ بْنِ حَيَّةَ، قَالَ الْمُغِيرَةُ: أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا، صلى الله عليه وسلم عَنْ رِسَالَةِ رَبِّنَا: «أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنَّا صَارَ إِلَى الْجَنَّةِ».

٧٦٢٥- عَنْ عَائِشَةَ -رضى الله عنها- قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم كَتَمَ شَيْئًا.

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَتَمَ شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ، فَلاَ تُصَدِّقْهُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

٧٦٢٦- عَنْ عَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ: «أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا، وَهْوَ خَلَقَكَ». قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ، أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَهَا: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ الآيَةَ.

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: "- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالاَتِهِ﴾":

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالاَتِهِ﴾، ثم ذكر بعض الآيات في هذا المورد، وذكر ثلاثًا من الروايات.

جاء هذا الباب في كتاب التوحيد مبينًا فيه الإمام البخاري رحمه الله، أن الله سبحانه وتعالى ائتمن نبيه على الرسالة وجعله أمينًا، ورسولًا ونبيًا، بل خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم.

وهو متضمّن لصفات الله جل وعلا، من جهة إنزال الكتاب، وأن الله سبحانه وتعالى أنزله بعلمه، وهو كلام الله جل وعلا، وأن الرسول بلّغ ما أُنزل إليه من ربه، ولم يكتم شيئًا، وهذه صفةٌ ضرورية في الأنبياء، فإنه لا يُتصوّر منهم غير ذلك.

وذكر بعد ذلك حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا، وَهْوَ خَلَقَكَ».

وهذا أعظم الكبائر، وأعظم الذنوب وهو الكفر، والشرك بالله سبحانه وتعالى، عبادة غير الله.

ثم ذكر بعد ذلك: «**ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ، مخافة أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**»، كما في جاء في بعض الروايات في الصحيحين ؛فإن هذا الحديث متفقٌ عليه: «**أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مخافة أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**».

وهذا أيضًا من أعظم الكبائر التي حرّمها الله سبحانه وتعالى، بل إن هذا الفعل يتضمن جملةً من الكبائر بما هو أخصها هنا؛ قتل النفس التي حرّم الله، وكون القتل للولد، وكون القتل للصغير، والطفل، وقطع الرجاء والتعلق بالله، إلى غير ذلك.

ولهذا لم يكن هذا الفعل إلا من فعل بعض مُغلِق الجاهليين، وليس جميع أهل الجاهلية يفعلونه لما فيه من منافاة المروءة والأحوال والعوائد، والطباع الفاضلة، والمعاني المتزنة إلى غير ذلك، ولكنه وقع في بعض الأحوال، وبيّن الله أن هذا من تزيين الشياطين لهم.

وكذلك زين لكثيرٍ من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليرضوهم فهو من تزيين الشياطين لهم، ولم يكن هذا فعلًا لجميع المشركين في صحيح القرآن، ولهذا جاء قوله: ﴿**وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وليس لجميعهم.

وهو من أعظم الموبقات عند الله سبحانه وتعالى.

ولهذا بيّن الله سبحانه وتعالى أن الرزق من عنده جل وعلا: ﴿**نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ**﴾ [الإسراء: ٣١].

(سنخفف التعليق حرصًا على أن يكون هذا الفصل يُغلق هذا اليوم بختم كتاب التوحيد من صحيح البخاري، ومن يتجوز أو سيتجوز، ولابد من التعليق لنتمكن من الانتهاء حتى شرح الأصول؛ أصول الفقه، نقف عنه اليوم.

وسنبدأ إن شاء الله الفصل القادم مع بداية الدراسة في استكمال شرح الفقه، والتفسير على ما هو عليه، واستكمال أيضًا في أصول الفقه، ونبدأ بكتابٍ جديدًا في العقيدة.)

(المتن)

٤٧- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾.

وَقَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «أُعْطِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ فَعَمِلُوا بِهَا، وَأُعْطِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا بِهِ، وَأُعْطِيتُمُ الْقُرْآنَ فَعَمِلْتُمْ بِهِ». وَقَالَ أَبُو رَزِينٍ ﴿يَتْلُونَهُ﴾؛ يَتَّبِعُونَهُ وَيَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ، يُقَالُ: يُتْلَى يُقْرَأُ، حَسَنُ التِّلاَوَةِ حَسَنُ الْقِرَاءَةِ لِلْقُرْآنِ، ﴿لاَ يَمَسُّهُ﴾؛ لاَ يَجِدُ طَعْمَهُ وَنَفْعَهُ إِلاَّ مَنْ آمَنَ بِالْقُرْآنِ وَلاَ يَحْمِلُهُ بِحَقِّهِ إِلاَّ الْمُوقِنُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وَسَمَّى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الإِسْلاَمَ وَالإِيمَانَ عَمَلاً. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِبِلاَلٍ: «أَخْبِرْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الإِسْلاَمِ». قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلاً أَرْجَى عِنْدِي أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ إِلاَّ صَلَّيْتُ. وَسُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ الْجِهَادُ، ثُمَّ حَجٌّ مَبْرُورٌ».

٧٦٢٧- عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضى الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَنْ سَلَفَ مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ فَعَمِلُوا بِهَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ، ثُمَّ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صُلِّيَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيتُمُ الْقُرْآنَ فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأُعْطِيتُمْ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ هَؤُلاَءِ أَقَلُّ مِنَّا عَمَلاً وَأَكْثَرُ أَجْرًا. قَالَ اللَّهُ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا قَالُوا: لاَ. قَالَ: فَهْوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾":

قال البخاري رحمه الله: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾.

والتوراة هو: الكتاب الذي أنزله الله على عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام، وجعل الله فيه من العلم، والنور والهدى والرحمة، ما بيّن الله به لعباده من الحق، ثم لبسوا الحق الذي فيه بالباطل.

قال الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾ [البقرة: ٤٢].

ثم ذكر البخاري رحمه الله بعد ذلك حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في بقاء هذه الأمة في الأمم، وهذا البقاء على سبيل الوصف، وليس على سبيل التقرير الزماني.

ولهذا لا يصح أن يقال: إن مدة هذه الأمة من حيث السنين سيكون من سنة كذا، بناء على احتساب أن أهل التوراة يتلوا التوراة إلى نصف النهار إلى آخره.

فهذا الاحتساب ليس صحيحًا، بل الواقع يخالفه، ولا يصدّقه، فهذا لم يُرد به إبانة لأن هذه الأمة إلى قيام الساعة، ولم يُرد به إبانة العدد أو الحساب، وإنما أُريد به بيانٌ لوصف الحال، وهو مثلٌ شُبّهت الأحوال به، ما بين صلاة إلى نصف النهار، ثم إلى صلاة العصر، إلى آخره، هذا على سبيل المثل.

ولهذا لا يصح البحث فيه باعتبار تحديد مدة بقاء هذه الأمة، والبحث في هذا لا معنى له؛ لأن هذه الأمة باقية إلى قيام الساعة، والساعة كما جاء صريح في القرآن أمرها عند الله: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وأماراتها التي لها أثر في إيمان العباد، ولها أثر في مصالح العباد، بيّن الله من ذلك كما بيّن، وبيّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك كما بيّن في أمارات الساعة، وأشراط الساعة.

وأما ما زاد على ذلك فالتكلف فيه لا يصح، والبعث فيه لا يصح، وما ورد في القرآن أو السنة من ذلك في أمر الساعة وأماراتها فهو بابٌ خبري، والباب الخبري كما سبق ليس كباب في الأمر والنهي، يُستعمل فيه القياس والدلالات بأنواعها، والتماس الإشارات والتنبيهات.

فهذا فقه غريب، وليس مأثورًا عن السلف رحمهم الله، إنما يؤخذ بالنص، والظاهر البيّن ، وأما ما عدا ذلك فيوكل علمه وأمره إلى الله، فلا يستفاد من الأخبار بالطريقة والمنهج في الدلالات المستعمل في باب الأمر والنهي.

فهذا موردٌ وهذا مورد، فإن باب الأمر والنهي بابٌ واسع، من جهة الاستدلال؛ لأن له قواعد يتّزن بها، وأما باب الغيب فالغيب لا يعلمه إلا الله، ويُفوض أمره إلى الله.

والمقصود بالقواعد المشار إليها؛ أن ثمة قواعد القياس، وما ينطبق من دلالات التي فيها عدم تمام من جهة اللغة تزنها تلك القواعد، لكن باب الغيب أو باب الخبر بمعنى عام قائم على النفي والإثبات، وقد يكون من الممكن وجود الشيء، وعدم وجود الشيء بدرجةٍ واحدة، فيبقى وجوده من عدمه، بناءً على وقوع الخبر من عدمه، ويختلف من جهة قواعد الدّلالات.

القواعد التي في باب الأمر والنهي تُفسِّر الدلالات، أما القواعد التي في باب الغيب فهي تُحكِم الدلالات عن الدخول فيما لم يأت به النص، سواء سُمي في الاصطلاح الأصولي نصًا أو ظاهرًا، فهذا أمرٌ يسير.

وأما التكلّف في البحث فهذا يكون غريب، وأما المقارنات والاستشرافات، والتطبيقات فهذا ليس فقهًا، لا غريبًا، ولا من باب أولى وجيهًا، إنما هو من أحوال العوام وأشباه العوام، دخول فيما فوق ذلك.

إنما الذي عرض من بعض المتأخرين من أهل العلم أنهم طبقوا على بعض الأخبار استخراجًا، أو الاستنباط في الخبريات بمثل ما يُستعمل في باب الأمر والنهي، وهذا خطأ.

وأما ما زاد على ذلك فهذا ليس من الفقه في شيء، ولم يقع فيه أحدٌ معتبر في العلم، كتحديد المدة، والبعث بالزمان، وتحديد المدة، و تطبيق الأحوال على أشياء لم يأت بها نصٌّ بيّن، واستدعاء الغرائب من الأقوال، أو الآثار التي شبه متروكة، إلى آخره.

فهذا منهج ليس له أصل في أهل العلم لا في متقدميهم، ولا في متأخريهم في الجملة.

(المتن)

٤٨- باب وَسَمَّى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الصَّلاَةَ عَمَلاً وَقَالَ: «لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ».

٧٦٢٨- عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رضى الله عنه- أَنَّ رَجُلاً، سَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلاَةُ لِوَقْتِهَا، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ، ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب وَسَمَّى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الصَّلاَةَ عَمَلاً وَقَالَ: «لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»":

بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الصلاة من العمل، كما أن الصلاة من الإيمان، كما أن الصلاة من الإسلام، كما أن الصلاة من الدين إلى آخره، وهذا في قول البخاري: باب وَسَمَّى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الصَّلاَةَ عَمَلاً وَقَالَ: **«لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»**.هذا جاء أيضًا في حديث عبادة.

(المتن)

٤٩- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ ﴿هَلُوعًا﴾ ضَجُورًا.

٧٦٢٩- حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم مَالٌ فَأَعْطَى قَوْمًا وَمَنَعَ آخَرِينَ فَبَلَغَهُ أَنَّهُمْ عَتَبُوا فَقَالَ: «إِنِّي أُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْخَيْرِ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ». فَقَالَ عَمْرٌو: مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حُمْرَ النَّعَمِ.

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾":

قال البخاري رحمه الله: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾؛ أي ضَجُورًا، وهذه الصفات في بني آدم، وهي تتفاوت بين الناس كما جاء في تطبيق الحديث، وبيّن فيه النبي حديث عمرو بن تغلب؛ أنه عليه الصلاة والسلام يعطي المال ليس على معيار الإيمان ونقصه وزيادته، وإنّما لمصالح تراعى في الشريعة باعتبار تأليف القلوب تارة، وباعتبار اختلاف النفوس تارة.

ففاضل النبي صلى الله عليه وسلم في قسم المال بين الناس على هذين السببين في الجملة؛ إما تأليفًا للقلوب تارة، وإما لاختلاف أحوال النفوس تارة أخرى، كما هو أي الثاني ظاهرٌ في هذا الحديث.

(المتن)

٥٠- باب ذِكْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَرِوَايَتِهِ عَنْ رَبِّهِ.

٧٦٣٠- عَنْ أَنَسٍ -رضى الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ، قَالَ: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

٧٦٣١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: -رُبَّمَا ذَكَرَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم-قَالَ: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا أَوْ بُوعًا».

٧٦٣٢- وَقَالَ مُعْتَمِرٌ سَمِعْتُ أَبِي، سَمِعْتُ أَنَسًا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ، عَزَّ وَجَلَّ.

٧٦٣٣- قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّكُمْ، قَالَ: «لِكُلِّ عَمَلٍ كَفَّارَةٌ، وَالصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

٧٦٣٤- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضى الله عنهما- عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ قَالَ: «لاَ يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى». وَنَسَبَهُ إِلَى أَبِيهِ.

٧٦٣٥- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِيِّ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ الْفَتْحِ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ، أَوْ مِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ -قَالَ- فَرَجَّعَ فِيهَا -قَالَ- ثُمَّ قَرَأَ مُعَاوِيَةُ يَحْكِي قِرَاءَةَ ابْنِ مُغَفَّلٍ وَقَالَ: «لَوْلاَ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيْكُمْ لَرَجَّعْتُ كَمَا رَجَّعَ ابْنُ مُغَفَّلٍ». يَحْكِي النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقُلْتُ لِمُعَاوِيَةَ: كَيْفَ كَانَ تَرْجِيعُهُ قَالَ آ آ آ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ.

(الشرح)

شرح قول المصنف: " باب ذِكْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَرِوَايَتِهِ عَنْ رَبِّهِ.":

قال البخاري رحمه الله: باب ذِكْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَرِوَايَتِهِ عَنْ رَبِّهِ، وذكر في ذلك حديث أنس رضي الله تعالى عنه، وحديث أبي هريرة في الصيام، وكذلك حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وبعده حديث عبد الله بن المغفل المزني.

وكلُّ ذلك فيه بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم يوحى إليه، وينزل عليه القرآن، وهذا المعنى وإن كان ظاهرًا من الديانة إلا أنه هو أصلها ، فالإيمان بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم، فهو أصلٌ في الدين كما هو معروف.

فالإيمان بالقرآن أصلٌ في الدين، والإيمان بالنبوة أصلٌ في الدين، وهذه من أصول التوحيد، وهي مع الإخلاص، وعبادة الله وحده هي جماع الدين كله.

(المتن)

٥١- باب مَا يَجُوزُ مِنْ تَفْسِيرِ التَّوْرَاةِ وَغَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ بِالْعَرَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

٧٦٣٦- وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، أَنَّ هِرَقْلَ، دَعَا تَرْجُمَانَهُ، ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَرَأَهُ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ، وَ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾» الآيَةَ.

٧٦٣٧- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ ﴾ الآيَةَ».

٧٦٣٨- عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضى الله عنهما- قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِرَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ زَنَيَا فَقَالَ لِلْيَهُودِ: «مَا تَصْنَعُونَ بِهِمَا». قَالُوا نُسَخِّمُ وُجُوهَهُمَا وَنُخْزِيهِمَا. قَالَ: «﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾». فَجَاءُوا فَقَالُوا لِرَجُلٍ مِمَّنْ يَرْضَوْنَ يَا أَعْوَرُ اقْرَأْ. فَقَرَأَ حَتَّى انْتَهَى عَلَى مَوْضِعٍ مِنْهَا فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ. قَالَ: «ارْفَعْ يَدَكَ». فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهِ آيَةُ الرَّجْمِ تَلُوحُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ عَلَيْهِمَا الرَّجْمَ. وَلَكِنَّا نُكَاتِمُهُ بَيْنَنَا. فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا، فَرَأَيْتُهُ يُجَانِئُ عَلَيْهَا الْحِجَارَةَ.

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب مَا يَجُوزُ مِنْ تَفْسِيرِ التَّوْرَاةِ وَغَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ بِالْعَرَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا ":

قال البخاري رحمه الله: باب مَا يَجُوزُ مِنْ تَفْسِيرِ التَّوْرَاةِ وَغَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ بِالْعَرَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

ثم ذكر حديث ابن عباس، وهو متفقٌ عليه في سياقٍ طويل، ذكره البخاري في غير هذا الموضع، وأن النبي كتب إلى هرقل، ومما جاء في هذا الكتاب: ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وكتبها النبي صلى الله عليه وسلم آية ولم يذكرها بترجمتها، وإنما يُذكر في الترجمة المعنى وأما الحرف فإنه لا يُصار إلى ترجمته بجملة من الأسباب، فضلاً عن تعذره .

ثم ذكر بعد ذلك حديث أبي هريرة هو أن أهل الكتاب كانوا يقرأون الكتاب بالعبرانية، ويُفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، وهذا الذي يقع عندما كان لبعض الأسباب الداعية، وليس أن هذا مما كان مألوفًا في حال المسلمين؛ أنهم يسمعون لأهل الكتاب، ولتفسيرهم للتوراة؛ لأن الأصل أن أهل الإسلام مكتفون بما جاء في كتاب الله؛ وهو القرآن، وما جاء في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والقرآن فيه جماع الخير كله، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت: ٤٢].

ثم ذكر بعد ذلك حديث عبد الله بن عمر في قصة اليهودي الذي زنى، وأن آية الرجم، وهذا يدل على ما بقي في التوراة من الحق الذي أنزله الله جل وعلا، وما جاء في كتمهم، حتى قال ذلك الرجل منهم: إِنَّ عَلَيْهِمَا الرَّجْمَ. وَلَكِنَّا نُكَاتِمُهُ، ثم ذكر أن النبي أقام الرجم عليهم، وأن الرجل كان يجاني عليها الحجارة، كما جاء في الرواية الأخرى في الصحيح، قال عبد الله بن عمر: فلقد رأيته يتقيها من الحجارة بنفسه؛ أي يجعل نفسه بينها وبين الحجارة.

(فيما يبدو لي والله أعلم أن نقف عند هنا؛ لأني أشوف بقي جملة من الأبواب التي قد يكون التفصيل فيها أولى من الإجمال البالغ إليها.)

(المتن)

٥٢- باب قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ» وَزَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ.

٧٦٣٩- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ».

٧٦٤٠- عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا -وَكُلٌّ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنَ الْحَدِيثِ- قَالَتْ: فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ يُبَرِّئُنِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ﴾ الْعَشْرَ الآيَاتِ كُلَّهَا.

٧٦٤١- عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ فِي الْعِشَاءِ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ.

٧٦٤٢- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضى الله عنهما- قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مُتَوَارِيًا بِمَكَّةَ، وَكَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ، فَإِذَا سَمِعَ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾.

٧٦٤٣- عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ -رضى الله عنه- قَالَ لَهُ: «إِنِّي أَرَاكَ تُحِبُّ الْغَنَمَ وَالْبَادِيَةَ، فَإِذَا كُنْتَ فِي غَنَمِكَ أَوْ بَادِيَتِكَ فَأَذَّنْتَ لِلصَّلاَةِ فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ، فَإِنَّهُ لاَ يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلاَ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ، إِلاَّ شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم.

٧٦٤٤- عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَرَأْسُهُ فِي حَجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ.

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ» وَزَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ ":

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وآله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام البخاري رحمه الله: باب قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ**»، وَزَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ.

هذا التبويب الذي ذكره الإمام البخاري رحمه الله في كتاب التوحيد مناسبته؛ ما يتضمن هذا التبويب، والأحاديث التي رواها بعده؛ من ذكر صفات الله سبحانه وتعالى، وأن القرآن كلام الله، وأن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم، كما جاء في حديث عائشة.

وهذا المعنى وغيره من المعاني التي تضمنتها هذه الآيات في تحقيق المعنى الكلي المتفق عليه بين أهل السنة في صفات الله جل وعلا على ما يليق بجلال الرب.

ذكر حديث أبي هريرة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ**»، وهذا يدل على صفات الله سبحانه وتعالى، وإثباتها، وأن الصفات تقوم بذات الرب جل وعلا كما يليق بجلاله.

كما تضمن فضل التغني بالقرآن على ما قدرت الشريعة من القدر، دون إفراطًا في ذلك، وإنما يكون على الهدي المأثور في أن القرآن أُخذ سماعًا، فيكون على القدر المأثور عن السلف رحمهم الله في ذلك، ولا يزاد في ذلك إلى تحقيق مقصود زائدٍ عن ذلك.

ثم ذكر بعده حديث عائشة رضي الله عنها، في قولها رضي الله عنها: وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ.

وهذا تصريح بعقيدة الصحابة أن القرآن كلام الله، وهذا مطابق لما جاء في كتاب الله أيضًا في قوله جل وعلا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وهو صريح هذا الآيات في سورة النور نزلت فيها، وهي قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [النور: ١١].

ثم ذكر بعده حديث البراء، وفيه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قَرَأَ فِي الْعِشَاءِ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾، قال: فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ.

وهذا من عدي النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ بمثل هذا القدر في صلاة العشاء، وقرأ: والضحى، والليل إذا يغشى، والشمس وضحاها، كل ذلك جاء في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة العشاء.

ولهذا مثل هذه السور تُشرع قراءتها في صلاة العشاء ابتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، والناس في هذا أحيانًا في الصلاة يغرب على بعض الناس أنه يقرأ بأواسط السور الطوال، إذا كان حافظًا، وهذا إذا فُعل فإنه لا ينبغي معه أجر ما ورد من قصار السور.

وذكر بعده حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مكة، ونزل عليه قول الله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾ [الإسراء: ١١٠]، وهو قراءته القرآن.

وتضمن هذا الحديث الذي نُهي فيه النبي عن ذلك، تضمن تقريرًا لقاعدة سد الذريعة، فإنه لما كان المشركون يسبون الله سبحانه وتعالى، ويسبون القرآن نُهي النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا النوع من الجهر الذي يصاحبه هذا المنكر منهم، فجاء قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾ [الإسراء: ١١٠].

ثم ذكر بعده حديث أبي سعيد الخدري، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم ندب إلى الآذان في الغنم والبادية، وهذا مشروع باتفاق الفقهاء، وإن كان قد اُختلف، فيه من يقول منه الآذان: هل لابد أن يكون في جماعة، أو يكون غير ذلك.

وظاهر حديث أبي سعيد هذا أن الواحد يؤذن ويقيم، وهذا رأي لطائفة من الفقهاء.

وآخر ما ذكر في هذا التبويب؛ حديث عائشة كان النبي صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَرَأْسُهُ فِي حَجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ، هذا ما قالت عائشة.

وهذا فيه دليل على أن القرآن يُقرأ في حال الاضطجاع، فإنه لا يكون رأسه في حجرها إلا إذا كان على هيئة المضطجع على ظهره أو على جنبه، وهذا يدل على خلاف ما ذكره بعض أهل العلم من قراءة القرآن حال الاضطجاع، وهذا بعيد والله تعالى أعلم، في أن حديث عائشة هذا يدل على خلافه، ولعموم دخوله في الذكر لله سبحانه وتعالى، وهو أشرف ذكره جل وعلا في قراءة كلامه.

ولا يدل نفيًا وإثباتًا على مسألة الحائض، وأنها تقرأ القرآن، أو لا تقرأ القرآن، وهذه مسألة كما تعلمون محل خلاف بين الفقهاء، والراجح فيها أن الحائض تقرأ القرآن، ولكن لا تمس المصحف.

(المتن)

٥٣- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾.

٧٦٤٥- أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَبْدٍ الْقَارِيَّ، حَدَّثَاهُ أَنَّهُمَا، سَمِعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، يَقُولُ سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمٍ، يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ، فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلاَةِ، فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَقُلْتُ مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقُلْتُ: كَذَبْتَ، أَقْرَأَنِيهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَرَأْتَ. فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم

فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا. فَقَالَ: «أَرْسِلْهُ، اقْرَأْ يَا هِشَامُ». فَقَرَأَ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «اقْرَأْ يَا عُمَرُ». فَقَرَأْتُ الَّتِي أَقْرَأَنِي فَقَالَ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: "باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾"

نعم، قال البخاري رحمه الله: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾، وهذا محله فيما شُرع في الصلاة وغير ذلك، ما يقتصر على ما جاء في الصلاة، وإنما هو محل استدلال لما شُرع في الصلاة، وجاء في حديث عمر رضي الله عنه هو قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ»، هذا دليل على إثبات إنزال القرآن، وأنه منزلٌ من عند الله سبحانه وتعالى، «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ».

وهذه الأحرف السبعة هي حرف قريش، وما زاد على ذلك، وليس هي القراءات السبع التي سماها العلماء القراءات بل هذه داخلة في حرف قريش.

(المتن)

٥٤- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾.

وَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ". يُقَالُ مُيَسَّرٌ مُهَيَّأٌ. وَقَالَ مَطَرٌ الْوَرَّاقُ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، قَالَ: هَلْ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ فَيُعَانَ عَلَيْهِ.

٧٦٤٦- عَنْ عِمْرَانَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِيمَا يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ قَالَ: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

٧٦٤٧- عَنْ عَلِيٍّ -رضى الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ كَانَ فِي جِنَازَةٍ فَأَخَذَ عُودًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ فِي الأَرْضِ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ أَوْ مِنَ الْجَنَّةِ». قَالُوا: أَلاَ نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾». الآيَةَ.

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾":

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وآله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾، وذكر فيه بعض الآثار، ثم ذكر حديث عمران، قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِيمَا يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ قَالَ: «**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**».

وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو الحديث الذي ذكره بعده: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ أَوْ مِنَ الْجَنَّةِ**»، قَالُوا: أَلاَ نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ. ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾**». الآيات.

هذا الباب الذي ذكره الإمام البخاري تضمن جملة من المسائل وفيها أن الله سبحانه وتعالى وهي من مسائل التوحيد والقدر؛ أن الله يسر الأمر لعباده مع ما مضى به قدره، وصار العبد ميسر لما خُلق له.

ووصف الله سبحانه وتعالى التيسير، أو هذا الوصف وهو اليسر. والتيسير جاء في غير مورد من القرآن، وفي السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

وهذا بيانًا وهدايا للناس، فمن أعرض عنه فإنما أخذ بهواه وبالضلالة، واتبع هواه والشيطان، وإلا فإن القرآن تضمن من اليسر. والبيان ما يُلحق الإيمان به، والاستجابة بما تضمنه من الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما هذا الحديث وهو حديث عمران، وكذلك حديث علي رضي الله عنه: **«كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»**، وهذا أصلٌ في باب القدر، وهذا الجواب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجوابٌ جامع مانع لمسألة القدر، وهي مسألة موافقة للعقل، كما أنها مبنية على التسليم بالشرع.

فليست مسألة القدر مسألة تسليم محض ينافي كما يتوهم البعض أنها معتبرة بالتسليم، وإلا العقل بنافيها، لا، العقل يوافق ذلك، بمعنى؛ أنه لا يصح أن يقال: فِيمَا يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ حينما يخبر الشارع بأن الله قدّر مقادير العباد أهل الجنة وأهل النار، لا يقال هنا: مادام أن العباد قُدر أهل الجنة من أهل النار، ففيما العمل؟

نقول: هذا الذي سأل هذا السؤال، الذي عرض، وإن كان قد يكون العرض من الصحابة هو في الواقع عرض من بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وعلى علم واسترشاد، لكنك ترى أن الذي قال قاله بعضهم، ولكن كبار الصحابة رضي الله عنهم؛ كأبي بكر، وعمر وعثمان، وعلي لم يسألوا هذه السؤال؛ لما في نفوسهم من العلم، وتعرف أن الصحابة درجاتهم متفاوتة في الحكم في الدين، وأفقههم: أبو بكر رضي الله تعالى عنهم، وبقية الخلفاء بعده، وأئمة الصحابة من المهاجرين والأنصار، وجملة الصحابة كما نعرف هم فقهاء أيضًا.

إنما الشاهد هنا أن من يقول، أو يرد عليه مثل هذا السؤال، أو ما كان على شاكلته هو سؤالٌ عرض على الذهن، وإلا لو تأمله السائل لبان له أن هذا السؤال لم يكن واردًا، وأن عقيدته التي يحملها في قلبه ينافي هذا السؤال.

بمعنى أن هذا السؤال لا يكون صحيحًا إلا على فرض مقدمة، أن القدر هو المعال دون الحال، لو فُرض جدلًا أن قدر الله والأمر لا يكون كذلك، لو فُرض جدلًا أن القدر هو المعال دون الحال، أمكن أن يرد هذا السؤال.

لكن قدر الله وقضاء الرب سبحانه وتعالى متعلقٌ بكل شيء، أليس كذلك؟

فالله قدّر الحال، وقدر المعال؛ بمعنى أن أفعال العباد من قدر الله، وخلق العباد من قدر الله، ومآل العباد من الجنة والنار من قدر الله، وما من أمرٍ يقع على العباد أو غير العباد إلا وهو في قضاء الرب سبحانه وتعالى وقدره.

فإذا عرفت هذه المقدمة الصريحة الفصيحة في الفطرة والشرع والعقل، وحتى هذا السائل الذي سأل من الصحابة يعرفها، ويؤمن بها، لكن أحيانًا الإنسان يعرض له سؤال وجوابه في علمه الذي عنده إذا تأمل.

لا يعني أن الصحابي ما كان يؤمن بذلك، ولكن يعني أن هذا من الأمور التي تعرض على الذهن، يلتبس به القول عند بعض الناس إذا لم يُحسن الجواب عنها، لكن جواب النبي عليه الصلاة والسلام، جوابٌ شرعيٌ فضلي، بل وجواب أيضًا يبين للعاقل إذا سمعه، وهو أن الله سبحانه وتعالى يسر العباد على ما مضى بهم: اعملوا فكل ميسر لما خُلق له.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الرواية الأخرى في الصحيح: أما أهل السعادة فيُيسرون لعمل أهل السعادة، وأما أه الشقاوة، فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ما معنى ذلك؟

أهل الشقاوة مآلًا، والسعادة مآلًا، ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة لعمل أهل الشقاوة.

إذن هما الحال والمآل، وكل نفس في القدر يعرض على بعض الناس سببه؛ عدم الفقه لهذا الأصل الشريف، وإلا الإيمان بهذا الأصل مستقر في نفوس المسلمين، بل هو فطرة؛

لأنه من مقتضى ربوبية الله سبحانه وتعالى؛ أن كل شيء بأمره القدري وقضائه سبحانه وتعالى وتدبيره.

هذا من مقتضيات الربوبية، لكن الشيطان يعرض بالوسوسة مثل ما عرض لبعض الناس في بعض المسائل الوسوسة فيعرض الشيطان ببعض الوسوسة، فيقول مثلًا: في القدر هذه المسألة مشكلة وصعبة، لا لا هي مشكلة ولا حاجة.

مسألة القدر من أبسط المسائل وأبين المسائل بالعقل والشرع والفطرة، أليس الله سبحانه وتعالى هو رب العالمين، أليست العرب في الجاهلية تؤمن أن الله هو رب العالمين؟

وأليس جبير بن المطعم لما سمع النبي يقرأ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) ﴾ [الطور: ٣٥]، فحرّك قلبه هنا إليها في سورة الطور، ثم أسلم بعد ذلك.

إذن هذه الجملة من الربوبية التي كان العرب يعرفونها، الله سبحانه وتعالى هو رب العالمين، وهو الخالق لكل شيء، وهو المدبر لكل شيء.

إذن لا يكون شيء إلا بأمر الرب وقضائه وقدره، وتدبيره.

من يأتي ويقول: المآل بقضاء الرب، ولماذا لم تقل: الحال بقضاء الرب؟! هنا يأتي تلبيس الشيطان على بني آدم، ليس هذا العقل، بعض الناس يضيف ذلك إلى العقل؛ فيقول: هذه واللهِ مسألة في العقل فيها إشكال، لكن نسلم للشرع.

أو حينما يسمع بعض أهل العلم يقولك: لا تلتفت لعقلك، والزم الشرع، يقول: إن العلم بالفعل يُشكل على هذه المسألة.

لا، هو المقصود لا تتمادى مع البحث العقلي الخاص بك؛ لأن عقلك ليس هو العقل.. يعني عقلك الخاص بك ليس هو دليل العقل الذي عليه الكلام، دليل العقل المعتبر، دليل العقل المعتبر هو ما ينتظم عند العقلاء، لكن اقتران كل إنسان وحده قد تكون متفقة مع

الدليل العقلي وقد تكون أوهامًا عقليةً عنده، أليس كذلك؟ ليست هي الدليل العقلي المعتبر.

ولذلك العقل هو معيار التكليف أو ميزان التكليف كما نعرف، لكن ليس معنى أن مناط التكليف هو العقل أن كل ما انقدح لعاقل من آحاد المكلفين أنه سيصبح دليلًا عقليًّا ولابد لازمًا؛ لأنه كما ترى اليوم ينقدح لك وربما لا نقول: إن غيرك يخالفك، ربما انقدح لك دليل في العقل ثم مدة معينة تجد أن عقلك يراجعك في هذا الدليل، أليس كذلك؟

فإذًا العقل دليل معتبر في بابه أو في مورده المناسب له، ولكنه إذا قيل: إنه دليل فهو على الدليل معتبر بهيمنة الشريعة، وهيمنة الشريعة على العقل ليست هي هيمنة دينية محضة كما يتصور بعض الناس، هي هيمنة دينية وهيمنة تقوم العقل؛ بمعنى تميز للعقل ما كان صحيحًا وما كان باطلًا.

فإذا هيمنت الشريعة على العقل وأبطلت بعض الموارد التي ترد على عقول آحاد من العقلاء بان بذلك أنها ليست دينًا لمنافاتها الشريعة، وبان أيضًا أنها ليست دليلًا عقليًّا صحيحًا، وإلا لو كانت دليلًا عقليًّا صحيحًا لم تقضِ الشريعة بهيمنتها على فسادها.

الشريعة هنا كشفت لك أنه مخالف للشريعة لكن كشفت لك أو أبانت لك أنه مخالف للشريعة، وكشفت له أنه ليس دليلًا عقليًّا صحيحًا، وإلا الدليل العقلي الصحيح الذي جعل الله العقل مناط للتكليف لا يمكن أن يكون معارضًا للشرع، ولهذا هو تحت هيمنة الشريعة حتى يُحمى العقل ويُميز له ما كان عقلًا صحيحًا وما كان ؛لأن العقل يقع فيه التوهم كما يقع من الصحيح.

وهكذا كل مدارك بني آدم يقع منها التوهم، ويقع منها الصحيح، فالبصر مثلًا إذا أبصر الجسم أمامه بين يديه، وليس ثمة ما ينافي الإبصار الصحيح سُمي هذا إبصارًا صحيحًا.

وكما يقول أبو حامد: إذا أبصر العصا في الماء منكسرًا .. تعرف إذا وضعتَ عصا مثلًا في الماء باتجاه معين، بان لك أنه منكسر وهو في الواقع ليس منكسرًا، فهذا إبصار توهم.

فكذلك هذا المثال الذي تراه بالحس، هو كذلك في العقل، فربما توهمت من العقل ما تظنه عقلًا وهو كل أرباب المدارس العقلية والنظار والفلاسفة يتفقون على هذا، لم يأتِ أحدٌ من النظار ويقول: إن كل ما يعرض لآحاد العقلاء سيكون عقلًا صحيحًا ولابد، وإلا لتناقض العقل تناقضًا مطلقًا؛ لأن كل واحد يقول ما لا يقوله الآخر، وربما قال هو اليوم شيئًا ورجع عنه من غدٍ أو بعد ذلك، أليس كذلك؟

فإذًا حينما نقول: الدليل العقلي، فليس معناه كل ما انقدح لك من خاطر فهو دليل عقلي، بل قد يكون من الوهم، ولذلك لم يتفق العقلاء حتى من غير المسلمين على دليلٍ ينافي ما جاءت به النبوات أو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مع أن مقتضى التقرير أن الاعتبار بما يُجمع عليه العقلاء، والعقلاء هنا لا يختصون بغير المسلمين، العقول التي سبقت بمعالم النبوة وآثار النبوة هي المقومة أكثر في هذا المعنى الذي جعله الله مدركًا للبشر عن غيرهم من الحيوان.

الشاهد في ذلك: أن الجواب النبي عليه الصلاة والسلام دائمًا هو أشد الأجوبة وأبلغ الأجوبة وهو أبلغ من إجابات العلماء ولابد، ولذلك قوله عليه الصلاة والسلام: **«اعملوا فكلٌّ ميسرٌ لما خُلق له»**، فبيّن عليه الصلاة والسلام أن القدر هو الحال والمآل، وليس المآل دون الحال.

وقطع القدر على المآل دون الحال منافٍ للشرع، ومنافٍ للعقل، ومنافٍ للفطرة؛ لأن الشرع والعقل والفطرة كلها تقضي بأن الله سبحانه وتعالى هو رب العالمين وهو المدبر للأمور وهو الذي بيده كل شيء وهو الخالق لكل شيء إلى غير ذلك من معاني الربوبية، أليس كذلك؟

فإذا قصرتَ القدر على المآل أن هذا في الجنة أو هذا في النار، أو هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، وهذا قدرٌ مضى به قضاء الله في عباده، لكن أين أنت عن الحال؟ ولماذا لم تجعل الحال على تدبير الرب؟ ومَن الذي يدبر الحال؟ مَن الذي قضى بهذه الأعمال التي يعملها الناس، واضح؟ ومَن هي تحت إرادته، لا شك أنها بأمر الرب؛ بأمره الكوني وبقدره وبتدبيره، فالله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ولا أحد في الكون يتصرف بمطلقه أو بانفكاكه عن تدبير الخالق رب العالمين سبحانه وتعالى.

فهذه كما تلاحظون معانٍ فطرية ومعان شرعية ومعان عقلية، ولذلك حتى الجاهليون ما كانوا ينازعون كثيرًا فيها، وإنما طرأت بعض السؤالات لما دخلت بعض الفلسفات وصار بعض الناس يتربص ببعض المسائل ويورد عليها الأسئلة التي يتوهم أنها أسئلة صعبة مغلقة مشكلة على هذه المسائل، وهي ليست كذلك.

ولا يمكن أن الشريعة يرد عليها أسئلة صعبة أصلًا، بل كل ما يرد على أصول الشريعة من أسئلة فيها مادة من الإشكال أو الاعتراض، فيغلب ابتداء أنها أسئلةٌ موهومة كاذبة، وقد يَبِين لبعض الناس ذلك ابتداءً، وقد يكون بعض الناس قد اعتلت حاله واختلت فطرته واضطربت مدارك عقله فيحتاج إلى مزيد من الجدل والأخذ والنظر حتى يستقر له ما كان بدهيًّا، وإلا هذه مسائل بدهية، وترون ذلك الشاب الجاهلي في جاهليته وفي باديته ولم يكن يقلّب الكتب والأخبار والعلوم والفلسفات والنظريات وربما كان لا يقرأ ولا يكتب، بل قصة قتله تدل على أنه -إن صدقت في تفاصيلها- تدل على أنه لم يكن يقرأ ولا يكتب، لما حُمل كتابًا فيه قتله، وهو طرفة بن العبد مع خاله المتلمس، وكلاهما شاعر معروف، ومع ذلك كان يقول في شعره ما يدل على الإيمان، تفاصيل مسألة القدر حتى من حيث الحال، فيقول لك في الحال.. بل كانتِ الحالة بائنة عندهم كثيرًا، وكان بعض العرب يقولون: ﴿مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، لكن كانت الحال بينة عندهم، فكان يقول:

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بنَ خَالِدٍ *** وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بنَ مَرْثَدِ.

فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيْرٍ وَزَارَنِي *** بَنُونَ كِرَامٌ سَادَةٌ لِمُسَوَّدِ.

هذا وهو في عرض جاهليته وفي مطلع شبابه إلى آخره.

وكما تعرفون أنه حمل منيته بيده، كما تقول القصص الإخبارية، وهو الذي يقول لما وصف الموت أيضًا:

لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى *** لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ بِاليَدِ.

فكان حكيمًا في شعره، ويكفي في حكمته أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يتمثل ببيت أحد من شعراء المعلقات مثل ما تمثل ببيت طرفة بن العبد في قوله: سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً.

وخاله المُتَلَمِّس يقول: وسبقه عقله ورشده وسنه ففتح الكتاب وقُرئ له الكتاب في الحيرة، فأُخبر أن القتال فيه قتله، فرمى الكتاب ولم يذهب إلى الملك ذاك، وأما طرفة فتدعي الرواية أو تقول الرواية بعبارة أصدق: بأنه فتح الكتاب فلم يرضَ فتح الكتاب، وقُتل.

والمتلمس كما نعرف شاعر أيضًا جاهلي، وهو من شعراء نجد المعروفين، والمتلمس لقبٌ لُقب به، وإلا ليس اسمًا له، وإنما لُقب به، قالوا: لبيتٍ قاله، وهو قوله:

وهذا أوان العِرْض جُنَّ ذبابه، زنابيره والأزرق المتلمّسُ.

فلما وصفَ بعض ما ذكره في هذا الوادي، فلُقب بالمتلمس لهذا البيتِ الذي قاله.

وهذا أوان العِرْض جُنَّ ذبابه، زنابيره والأزرق المتلمّسُ.

فلُقب بالمتلمس لهذا البيت الذي قاله.

الشاهد في هذا أن مسألة القدر هي من مسائل الربوبية البينة في صريح الشريعة، وفي صريح الفطرة، وفي صريح العقل، وأن ربنا سبحانه وتعالى هو الذي قدر الحال والمآل، فمن يأتي ويقول: من لم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر، إن كان قد كُتب في الجنة، سيكون في الجنة.

نقول: هذا فردٌ جدلي يفرضه وهم عقلي، وهو محال في قدر الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى حرّم الجنة على من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إلى آخره.

فالله سبحانه وتعالى جعل الحال مناسبة للمآل، والمآل مناسبٌ للحال، وهو الذي ييسر العبا، فكل ميسر لمآله، فالذين كتبهم الله في الجنة، ربنا ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ [البقرة: ٢٩]، وييسرهم للهدى.

ولهذا بيّن الله في القرآن التثبيت، ولم يجعل التثبيت في حال دون حال، بل جعل التثبيت لعموم حال المكلف، وهو في قول الله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وأنت إذا قرأت القرآن في أفعال الله وقضاءه وقدره، بان لك أن هذه المسألة صريحة بيّنة ظاهرة في الشريعة، وأن الله سبحانه وتعالى أجرى القدر على ما مضى به عدله وحكمته سبحانه وتعالى، وأن المآل الذي كتبه الله لا ينافي الحال البتة، فكل ميسر لما خُلق له.

وهذا هو الذي افترض في ما مضت به حكمة الله سبحانه وتعالى، والله جل وعلا جعل هذا الأمر من اليسر، ولذلك كان من المعاني التي يعرفها الناس بفطرتهم، ثم جاءت الشريعة فبيّنت أصول ذلك، وذكرت تفاصيل ذلك، ولهذا أصول القدر كما نعرف أصولٌ في جملتها أصول فطرية؛ الإيمان بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله خلق أفعال العباد، وأنه خالق كل شيء، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، هذه أصولٌ شرعية، وهي أصولٌ فطرية، وهي أصولٌ عقلية بمعنى أن العقل يقضي بأن الله بكل شيء عليم.

هذه ضرورة يقضي بها العقل، ولهذا صفة العلم كما نعرف، وفي كلام الإمام أحمد وغيره، كما ذكر ابن تيمية: هناك من صفات الله ما دل عليه دليل السمع وحده، كالإخبار عن الرب ببعض أفعاله وصفاته هذا يُقتصد فيه على دليل السمع، وبعض الصفات لكون

الله سبحانه وتعالى بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، هذا جاء بدليل السمع ودليل العقل.

(المتن)

٥٥- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾، ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾.

قَالَ قَتَادَةُ: مَكْتُوبٌ، يَسْطُرُونَ يَخُطُّونَ فِي ﴿أُمِّ الْكِتَابِ﴾ جُمْلَةِ الْكِتَابِ وَأَصْلِهِ ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ مَا يَتَكَلَّمُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ كُتِبَ عَلَيْهِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُكْتَبُ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ، ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ يُزِيلُونَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُزِيلُ لَفْظَ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَهُ يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، دِرَاسَتُهُمْ تِلاَوَتُهُمْ، ﴿وَاعِيَةٌ﴾ حَافِظَةٌ ﴿وَتَعِيَهَا﴾ تَحْفَظُهَا. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ وَمَنْ بَلَغَ هَذَا الْقُرْآنُ فَهْوَ لَهُ نَذِيرٌ.

٧٦٤٨- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ غَلَبَتْ -أَوْ قَالَ سَبَقَتْ- رَحْمَتِي غَضَبِي. فَهْوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾":

قال البخاري: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾، واللوح المحفوظ كتب الله فيه المقادير، وقوله الله جل وعلا: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩]، هذا في الشريعة على الراجح وليس في القادر، وأما قدر الله فإنه لا يقع فيه شيء من ذلك.

ومما قضى به الله جل وعلا ما جاء في هذا الحديث أن رحمة الله وهذا من فضل الله على عباده، وهي نعمة يجب شكرها، أن رحمة ربنا سبقت غضبه، وفي رواية: غلبت غضبه.

(المتن)

٧٦٤٩- عن أبي هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي. فَهْوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ».

(الشرح)

شرحُ حديث أبي هريرة: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ»:

وهذا فيه إثبات صفة الرحمة والغضب من صفات الله بما يليق بجلاله، وهي ليست كرحمة المخلوق، ولا كغضب المخلوق، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى: ١١].

(المتن)

٥٦- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾. ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾. وَيُقَالُ لِلْمُصَوِّرِينَ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ. ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: بَيَّنَ اللَّهُ الْخَلْقَ مِنَ الأَمْرِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾. وَسَمَّى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الإِيمَانَ عَمَلاً. قَالَ أَبُو ذَرٍّ وَأَبُو هُرَيْرَةَ: سُئِلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ. وَقَالَ: ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾». وَقَالَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: مُرْنَا بِجُمَلٍ مِنَ الأَمْرِ إِنْ عَمِلْنَا بِهَا دَخَلْنَا الْجَنَّةَ. فَأَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ وَالشَّهَادَةِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، فَجَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَمَلاً.

٧٦٥٠- عَنْ زَهْدَمٍ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ هَذَا الْحَيِّ مِنْ جُرْمٍ وَبَيْنَ الأَشْعَرِيِّينَ وُدٌّ وَإِخَاءٌ، فَكُنَّا عِنْدَ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ فَقُرِّبَ إِلَيْهِ الطَّعَامُ فِيهِ لَحْمُ دَجَاجٍ، وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَيْمِ اللَّهِ كَأَنَّهُ

مِنَ الْمَوَالِي، فَدَعَاهُ إِلَيْهِ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ شَيْئًا فَقَذِرْتُهُ، فَحَلَفْتُ لاَ آكُلُهُ. فَقَالَ: هَلُمَّ فَلأُحَدِّثْكَ عَنْ ذَاكَ، إِنِّي أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فِي نَفَرٍ مِنَ الأَشْعَرِيِّينَ نَسْتَحْمِلُهُ قَالَ: «وَاللَّهِ لاَ أَحْمِلُكُمْ وَمَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ». فَأُتِيَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِنَهْبِ إِبِلٍ فَسَأَلَ عَنَّا فَقَالَ: «أَيْنَ النَّفَرُ الأَشْعَرِيُّونَ». فَأَمَرَ لَنَا بِخَمْسِ ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى، ثُمَّ انْطَلَقْنَا قُلْنَا: مَا صَنَعْنَا حَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لاَ يَحْمِلُنَا، وَمَا عِنْدَهُ مَا يَحْمِلُنَا، ثُمَّ حَمَلَنَا، تَغَفَّلْنَا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَمِينَهُ، وَاللَّهِ لاَ نُفْلِحُ أَبَدًا، فَرَجَعْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا لَهُ فَقَالَ: «لَسْتُ أَنَا أَحْمِلُكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَمَلَكُمْ، إِنِّي وَاللَّهِ لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلاَّ أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَتَحَلَّلْتُهَا».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: "باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾":

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وآله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، وهذا الباب في كتاب التوحيد ذكر فيه البخاري آثارًا معلقة وذكر فيه أحاديث أبي موسى الأشعري، وهذا الباب هو في باب خلق الله سبحانه وتعالى في أفعال العباد، وغير أفعال العباد.

وأن الله خلق العبد، وأن أفعال العباد مخلوقة لله، وهذه مسألة في أصلها مسألة فطرية؛ إن الله فطر الخلق على أنه هو الخالق لكل شيء، لكن حصل لبسٌ عند بعض النظار في مسألة أفعال العباد، فصار يقال فيها قولًا غريبًا عن أصول الأدلة، وعن أصول الفطرة، وعن دليل العقل.

لما قالت طائفةٌ: بأن أفعال العباد ليست داخلةٌ في ذلك، وأن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، والله يقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات: ٩٦]، فأفعال العباد مخلوقة لله سبحانه وتعالى، والفاعل للفعل هو العبد، فهو فعل العبد، ويضاف إليه خيرًا كان أم شرًا، فإن الله وصف العباد بأفعال الخير: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ [التوبة: ١١٢]، ووصف العبد بفعل الشر، و﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨]، ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، إلى غير ذلك مما هو معروفٌ في الشريعة والفطرة، والحس؛ أن الفعل هو فعل العبد، والله هو الخالق سبحانه وتعالى.

وذكر بعد ذلك حديث أبي موسى الأشعري، والشاهد فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لَسْتُ أَنَا أَحْمِلُكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَمَلَكُمْ**»، لما حلف على تلك اليمين، وراجعوا النبي فيها، فقال: «**لَسْتُ أَنَا أَحْمِلُكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَمَلَكُمْ**»، هذا هو الشاهد في الحديث.

وفيه من الأحكام؛ أن اليمين من رأى غيرها خيرًا منها، فليس من البر في الشريعة أن يلزم يمينه، إذا حلف على يمين أنه لا يفعل كذا، ثم اقتضت المصلحة أن يفعل غيره كفّر عن يمينه، وأتى الذي هو خير، بل قد يكون تركه لأذى يمينه قد يكون واجبًا كما لو حلف ألا يصل رحمًا، فإن هذه اليمين على تقدير أنها يمين منعقدة، فهي مما لا يجب الوفاء به.

وطائفة من الفقهاء لا يجعلونها في الأصل يمينًا منعقدة.

(المتن)

٧٦٥١- عن ابن عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالُوا: إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ مُضَرَ، وَإِنَّا لاَ نَصِلُ إِلَيْكَ إِلاَّ فِي أَشْهُرٍ حُرُمٍ، فَمُرْنَا بِجُمَلٍ مِنَ الأَمْرِ، إِنْ عَمِلْنَا بِهِ دَخَلْنَا الْجَنَّةَ، وَنَدْعُو إِلَيْهَا مَنْ وَرَاءَنَا. قَالَ: «آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ

أَرْبَعٍ، آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَتُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ لاَ تَشْرَبُوا فِي الدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالظُّرُوفِ الْمُزَفَّتَةِ، وَالْحَنْتَمَةِ».

(الشرح)

شرحُ حديث عبد الله بن عباس قَالَ: قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:

هذا حديث عبد الله بن عباس، ويُعرف بحديث عبد القيس، وقد جاء من رواية ابن عباس كما في هذه الرواية، وهي المخرجة عند الإمام مسلم، كما أن حديث أبي موسى كذلك مخرج عند الإمام مسلم.

وجاء حديث عبد القيس من رواية أبي سعيد الخدري أيضًا وهو من أكثر الأحاديث بيانًا في مسألة دخول العمل في مسمى الإيمان، وهو حديث أصل في باب الإيمان؛ لأنه صريح وصحيح، محفوظ الصحة حفظًا مستتمًا عند المحدثين، وهو حديثٌ صريح في كون العمل داخلًا في مسمى الإيمان؛ لأنهم قالوا: أمرنا بأمر فصلٍ، نخبر به من وراءنا، فقال: **«آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ وحده، أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وحده؟»**، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وأني رسول الله، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وصوم رمضان»**، وذكر لهم أعمال الإسلام، الذي ذُكر في حديث عبد الله بن عمر: **«بُني الإسلام على خمسٍ»**.

فبان بهذا أن هذه الأعمال إيمان، وهي الإسلام، وهذا هو المتحقق في الشريعة الذي أجمع عليه العلماء، كما هو معروف في إجماع الصحابة رضي الله عنهم، وتبعهم على ذلك أئمة السنة والجماعة في أن الإيمان قولٌ وعمل، فهذا حديث عبد القيس.

وفي آخره: **«وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ لاَ تَشْرَبُوا فِي الدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالظُّرُوفِ الْمُزَفَّتَةِ، وَالْحَنْتَمَةِ»**، هذه التي نُهي عنها إنما نُهي عنها لأنه يُسرع إليها الإسكار، فالنبيذ المباح إذا وُضع في هذه الظروف في مادتها، وطبيعتها الكيميائية يُسرع إليها الإسكار، فيكون محرّمًا.

وهذا الحديث من أدلة قاعدة سد الذريعة، فيه دلالة على سد الذريعة، ولذلك الشارع أغلق ذريعة الفساد، حتى هذا النبيذ المباح يسمى عنده نبيذًا، وإن كان اسم النبيذ قد يُستعمل في بعض الأعراف؛ بمعنى الخمر أو بعض أنواع الخمر، يسمى نبيذًا.

والمقصود بالنبيذ الأول: هو ما ليس مسكرًا، فأما إذا أسكر فإنه يسمى خمرًا.

فنُهي عن هذه من جانب الكيميائية أنه يسرع إليه الإسكار، وهذا معروف في صفتها، الحنتم، والمزفت، والمغير، إلى آخره.

وهل هذا النهي محفوظ أم أنه منسوخ؟

على قولين للفقهاء، والجمهور على أنه لم يُنسخ، وقيل: بأنه منسوخ لحديث بريدة رضي الله عنه، وهو في صحيح مسلم وغيره: أن النبي قال: **«كنت نهيتكم عن الظروف، وإن الظروف لا تحل شيئًا ولا تحرمه، فَاشْرَبُوا فِي الْأَسْقِيَةِ كُلِّهَا، وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا»**، وقيل: إنه نُسخ بحديث بريدة.

وقال طائفة من العلماء: أنه على الكراهة، توفيقًا بين الروايات.

(المتن)

٧٦٥٢- عَنْ عَائِشَةَ -رضى الله عنها- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ».

٧٦٥٣- عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضى الله عنهما- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ».

٧٦٥٤- عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ -رضى الله عنه- قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً».

(الشرح)

شرحُ حديث عائشة: «إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»:

هذه الأحاديث في التصوير بيّنه في أن الله هو الخالق لكل شيء، ولهذا ذُكر عذاب ووعيد المصورين، وأنه يقال لهم يوم القيامة: أحيوا ما خلقتم، فإنه لا خالق إلا الله سبحانه وتعالى، وهذا في التصوير الذي جاءت الشريعة بتحريمه، وهو أوجه معروفة عند العلماء.

(المتن)

٥٧- باب قِرَاءَةِ الْفَاجِرِ وَالْمُنَافِقِ، وَأَصْوَاتُهُمْ وَتِلاَوَتُهُمْ لاَ تُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ

٧٦٥٥- عَنْ أَبِي مُوسَى -رضى الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالَّذِي لاَ يَقْرَأُ كَالتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلاَ رِيحَ لَهَا».

٧٦٥٦- قَالَتْ عَائِشَةُ -رضى الله عنها-: سَأَلَ أُنَاسٌ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَنِ الْكُهَّانِ فَقَالَ: «إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَىْءٍ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ».

٧٦٥٧- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رضى الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يَخْرُجُ نَاسٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لاَ يَعُودُونَ فِيهِ حَتَّى يَعُودَ السَّهْمُ إِلَى فُوقِهِ». قِيلَ: مَا سِيمَاهُمْ. قَالَ: «سِيمَاهُمُ التَّحْلِيقُ». أَوْ قَالَ: «التَّسْبِيدُ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قِرَاءَةِ الْفَاجِرِ وَالْمُنَافِقِ، وَأَصْوَاتُهُمْ وَتِلاَوَتُهُمْ لاَ تُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ":

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمدٍ، وآله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى في أواخر كتاب التوحيد: باب قِرَاءَةِ الْفَاجِرِ وَالْمُنَافِقِ، وَأَصْوَاتُهُمْ وَتِلاَوَتُهُمْ لاَ تُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ.

إنما قال البخاري رحمه الله: باب قراءة الفاجر والمنافق، مع أنك إذا نظرت للآثار التي رواها، والأحاديث التي رواها عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فقال البخاري رحمه الله: عَنْ أَبِي مُوسَى -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالَّذِي لاَ يَقْرَأُ كَالتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلاَ رِيحَ لَهَا»**

وجعل مقابله، قال: **«وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلاَ رِيحَ لَهَا»**

هذا مثل ضربه النبي صلى الله عليه وسلم في المؤمن والفاجر.

ومن فقه الإمام البخاري رحمه الله أنه بوّب عليه بقوله: باب قراءة الفاجر والمنافق، مع أن الحديث وما بعده وهو حديث عائشة، وكذلك حديث أبي سعيد الخُدريّ، كلها ليس بها ذكر اسم المنافق.

ولكن هذا من فقه الإمام البخاري رحمه الله؛ أنه سمَّى ذكر المنافق في تبويبه؛ لأن مقصود الشارع -فيما يظهر والله تعالى أعلم- بالفاجر هنا المنافق، أما الفاجر الذي يفجر بمعنى يعصي؛ كتسمية بعض المعاصي فجورًا.

فالمعصية أو الكبيرة من الكبائر الذي يقترفها وهو يقرأ القرآن لا يُضرب له هذا المثل؛ لأن طاعته، هذا صاحب الكبيرة طاعته إيمان، وتقوى يحبها الله سبحانه وتعالى، كما جاء في حديث أبي هريرة في البخاري وغيره في الرجل الذي شرب الخمر أو أكثر من شربها، فأُخذ للحج، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»**.

فهنا طاعته؛ وهي محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كانت محبوبة محل ثناء.

وإذا أخذت قراءة القرآن فهي عبادة وطاعة مثل محبة الله، أليس كذلك؟

مثل محبة الله، فإذا فعلها العاصي أيضًا فإنه لا يُضرب له مَثَل السوء فيها، بل صاحب الكبيرة إذا قرأ القرآن حُمِدَ بقراءته للقرآن، مثل ما أن صاحب الكبيرة إذا صلى حُمِدَ بصلاته؛ لأنه وإن كان من أهل الكبائر أو من مُشهر الكبائر أحياناً، إلا أن أعماله الصالحة طاعة، وهي الأصل فيه؛ لأنه مؤمن بإيمانه فاسقٌ بكبيرته، والأصل فيه الإيمان والإسلام.

وإذا كان كذلك فإن الفاجر في هذا الحديث يُراد به المنافق، ومثله: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»، فكذلك يراد به من ليس مسلمًا في أصله.

فكذلك المنافق إذا قرأ القرآن هو على هذا المثل الذي ضربه النبي، لما؟

لأن المنافق ليس كصاحب الكبيرة من المسلمين، المنافق لا يقرأ دينًا وإيمانًا بالله، وتصديقًا بكتابه واستجابةً له، وتعظيمًا له، لكن صاحب الكبيرة يقرأ القرآن طاعةً ومحبةً لكتاب الله ولكلام الله إلى آخره.

فحمل البخاري هذا من فقهه.

وعليه لا يصح حمل الحديث على الفاجر بمعنى صاحب المعصية أو صاحب الكبيرة، وإنما الفاجر هنا في حديث أبي موسي هو المنافق، ولهذا التفت البخاري رحمه الله إلى ذلك، وهذا من سِعة فقهه رحمه الله، فقال: باب قراءة الفاجر.

وإنما قال الفاجر؛ لأن النص ورد بهذه التسمية.

ثم قال: والمنافق، والمنافق هنا ليس إشارة إلى الحديث الذي بعده، لا، هو تفسير أيضًا في الحديث الأول، تفسيرٌ في الحديث الأول، وبيان من البخاري لمقصود الباب، ولا يرد هنا أن يقال: أنه عطف، والعطف يقتضي المغايرة، ومن هذا الربط علي قاعدة سميت في اللغة، وصار يُبني عليها الكلام المطول.

هذا هو المقصود في الحديث؛ لأنك إما أن تحمل كلمة الفاجر على المسلم صاحب الكبيرة، وإما أن تحمل الفاجر على المنافق، الكافر لا يُتصور منه الكافر المعلن الكفر، لا يتصور منه أنه يقرأ، أو يظهر قراءة القرآن في الأصل، أليس كذلك؟

وإنما هي تقع من المؤمن وهذا سُمي مَثَله، وتقع من صاحب الكبيرة، وتقع من المنافق، وصاحب الكبيرة ليس له هذا المثل؛ لأن هذا المثل إنما أُريدَ به بيان لسوء الحال وتناقض الحال، فليس له من قراءته شيء، بخلاف صاحب الكبيرة فإن قراءته طاعة، الأصل أنها طاعة صحيحة كطاعة غيره من المسلمين.

ولذلك قال: وطعمها مُر، قال: وطعمها كمثل الريحانة طعمها مُر، صاحب الكبيرة طعمه ليس مُرًا؛ بمعنى أن قلبه فيه الإيمان، فيه أصل الإيمان وفيه كثير من شعائر الإيمان، بخلاف المنافق فإن طعم قلبه مُر؛ لأنه لا إيمان فيه، ولهذا صدق في حقه هذا المثل.

وعليه لا يجوز حمل الحديث على العصاة.

فإن قيل: فأهل الكبائر في أي المثلين هم؟ قيل: الأصل بالشريعة أنها لا تسمي أصحاب الكبائر باعتبار أن أصحاب الكبائر حالة منتظمة في أخذ الطاعات، الكبيرة ينبه عليه من الشريعة باعتبارها عملًا خارجًا عن الأصل، وإن كان أصحاب الكبيرة يدخلون في خطاب أهل الإيمان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]، دخل في أهل الإيمان هنا الأولياء، أولياء الله ودخل أهل الكبائر، ومن ذا الذي يسلم من المعاصي والكبائر؟!

فالشريعة لا ترتب هذا الترتيب الذي قد يسأل بعض الناس: طيب صاحب الكبيرة أين هو؟ صاحب الكبيرة الأصل إنه تابع لخطاب الإيمان، لكن إيمانه ناقص، وله من المثل الأول .. من قول النبي: ومثل المؤمن له من القدر الأول بقدر إيمانه، فهو داخل في الأصل، فيه أصل الإيمان.

ثم قال البخاري رحمه الله بعد ذلك، وذكر حديث عائشة رضي الله عنها: سَأَلَ أُنَاسٌ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَنِ الْكُهَّانِ فَقَالَ: «**إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ**» الحديث.

ما المناسبة بين حديث عائشة في ذكر الكُهّان وما بعده، وما قبله؟

المناسبة: هو أن النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه ذكر الكُهّان وأن هم إذا قالوا الكلمة من الحق، فإنما هي من مسترقي السمع من الجن، ويكذبون ويخلطون معها، فقد يصادفون الكلمة من الحق، وهذا يُعلم به أن الكلمة من الحق وحدها لا تكفي حتى يقترن بها نظائرها، وحتى تتحقق المآلات على وفقها.

لأن دين الإسلام ودين الأنبياء بعامة ليس هو مجرد كلمة من الحق في ظاهرها مقطوعة عن بقية الحق.

ولهذا الشريعة فيها جاء قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد، وفيها قاعدة سد الذرائع، فالشريعة لا تأخذ الحق بصفته مجردًا مقطوعًا عن بقية أوجه هذا الحق.

الله يقول: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ [المائدة: ٣] ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا** ﴾ [الزمر: ٢٣] ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)** ﴾ [النساء: ٨٢].

الشريعة لا اختلاف فيها، وما معنى الاختلاف فيها؟ أن الحق فيها يصدق الحق، أما أن تكون كلمة من الحق صحيحة في تجريدها ولكنها مقطوعة عن نظام الشريعة من الحق وأوجه الحق الآخر، فهذا ليس هو الدين الذي جاء به الأنبياء.

وهذا منهج مهم أن طالب العلم والمسلم يفهم فيه فهمًا صادقًا وصحيحًا ومتينًا في تحصيله.

وعلى هذا قال علي رضي الله عنه، لما قالت الخوارج: حكّمت الرجال في دين الله ولا حكم إلا لله؟ لما قالوا: لا حكم إلا لله، ماذا فعل؟ قال: كلمة حق أُريدَ بها باطل، لماذا أُريدَ بها باطل؟ هل شَق علي عن ما في قلوبهم؟

ليس هو البحث عن ما في قلوبهم، ولكن البرهان والشاهد بيّن، أين البرهان والشاهد؟ أنهم قطعوا الحق عن أوجهه.

هل سَل السيف على المسلمين حق ولا باطل؟ باطل، سَل السيف على المسلمين باطل.

فلما رآهم علي قد قطعوا الحق عن أوجهه وجردوا منه كلمة، قال: كلمة حق أُريدَ بها باطل؛ لأن ليس بحث عن ما في قلوبهم، هذا بيان لواقع الحالة التي هم عليها.

فالحق كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء: ٨٢]، الحق يُصدق بعضه بعضًا، الشريعة منتظمة، الشريعة منتظمة، ولهذا أحكامها مرتبة على هذا القدر.

قاعدة سد الذرائع تجدها سارية بالشريعة في تطبيقات الحدود، وفي الأحكام الشرعية، حتي في باب العقائد، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ لأن هذا السَب ليس هو هو بعينه السَب لآلهتهم التي يقع عنه أو به سَب لله سبحانه وتعالى، ليس هو وجه التوحيد الذي لا يكون التوحيد إلا به؛ لأن تحقيق التوحيد يقع في أصله، وإن اجتُنب هذا القدر من الذكر.

ولذلك الذكر لآلهتهم، ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقال النبي لعائشة: **«لولا أن قومك حديث عهدهم جاهلية»**، فقواعد سد الذرائع وأحكام سد الذرائع في النصوص كثير.

وإذا كان كذلك فهذه الكلمة من الحق جعلها البخاري برهانًا وإن كانت في أمر الكُهّان، والحديث الثاني في الخوارج جعلها البخاري برهانًا على أن الشريعة لها نظامٌ واحد، وليست منقطعة، بحيث يقطع الحق بعضه عن بعض.

ومن هذا قول الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢].

ثم بعد ذلك ذكر حديث أبي سعيد الخدريّ، يعني في الخوارج، وظهروا هؤلاء على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكفَّروا علي رضي الله عنه والصحابة، وقاتلهم علي بن أبي طالب، ووصفهم النبي بهذه الأوصاف الشرعية.

أشار البخاري إلى بعض منها بقوله: وَأَصْوَاتُهُمْ وَتِلاَوَتُهُمْ لاَ تُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ.

وفي الحديث قال: «**وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ**»، والبخاري يقول: وأصواتهم، والتنبيه على كلمة الصوت هنا إشارة إلى أن ما في قلوبهم لم يكن ملاقيًا لما في ألسنتهم.

ومن هنا ذكر المناسبة التي ابتدأ بها رحمه الله، وفي هذا التبويب من كلام الإمام البخاري رحمه الله على أحاديثه النبوية عن رسول الله عليه الصلاة والسلام دليل بيّن على ما وُصف به الإمام البخاري من الفقه في تبويبه رحمه الله.

(المتن)

٥٨- باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾، وَأَنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ وَقَوْلَهُمْ يُوزَنُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ الْقُسْطَاسُ الْعَدْلُ بِالرُّومِيَّةِ، وَيُقَالُ الْقِسْطُ مَصْدَرُ الْمُقْسِطِ، وَهْوَ الْعَادِلُ، وَأَمَّا الْقَاسِطُ فَهْوَ الْجَائِرُ.

٧٦٥٨- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضى الله عنه- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ».

(الشرح)

شرحُ قول المصنف: " باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾":

قال البخاري: باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ثم قال معلقًا: وَأَنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ وَقَوْلَهُمْ يُوزَنُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْقُسْطَاسُ الْعَدْلُ بِالرُّومِيَّةِ، وَيُقَالُ: الْقِسْطُ مَصْدَرُ الْمُقْسِطِ، وَهْوَ الْعَادِلُ، وَأَمَّا الْقَاسِطُ فَهْوَ الْجَائِرُ.

ثم ذكر حديث أبي هريرة: **«كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ»**. إلى آخره.

قوله: وَهْوَ الْعَادِلُ، وَأَمَّا الْقَاسِطُ فَهْوَ الْجَائِرُ، هذا أحد الوجهين في اللغة، وقيل: يفسره السياق، لكنه يقع ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن: ١٥].

وأحد الوجهين في اللغة: أن المُقسِط هو في العدل، والقاسط هو في الظلم، والقول الآخر في اللغة: أن هذا القاسط يقع في العدل، ولكنه يُعدل به بموجب السياق إلى المعنى الآخر.

وقول الله جل وعلا: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] هو دليل على ثبوت الموازنة والموازين، وهذا مجمع عليه بين العلماء، بين السلف والخلف، أن الموازنة حق؛ لأن الله ذكرها في كتابه في القرآن نزل بها صريحًا، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣] كما في سورة المؤمنون، وفي سورة الأعراف، وفي سورة القارعة.

وذُكرت الموازنة في هذه الآية في قول الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ودل عليها آيات كثيرة من القرآن، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] إلى آخره.

فالموازنة ثابتة، ودل عليها السُنة والإجماع، فهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، وهي؛ أن أعمال العباد توزن، أما الماهية التي تقع بها هذه الموازنة فهذه أمرها إلى الله.

وبعض العلماء المتأخرين رحمهم الله فصَّلوا في الموازنة تفصيلًا لم يُحفظ فيه نص، كما ذكر ذلك ابن حزم ونقله عنه ابن القيم رحمهما الله؛ وهو أن أهل الكبائر توزن أعمالهم وهم على ثلاثة أوجه:

إما أن الحسنات تكون راجحة، فهؤلاء إلى الجنة، وإما أن الحسنات تتساوى مع السيئات فهؤلاء هم أهل الأعراف يحبسون عن الجنة ثم يدخلونها، وإما أن سيئاتهم تكون راجحة على حسناتهم فهؤلاء يعذبون، أو يعرضون للوعيد والعذاب ويدخلون بعد ذلك الجنة.

من زادت حسناته على سيئاته بواحدة فهو إلى الجنة، ومن تساوت فكذا، ومن تساوت كان من أهل الأعراف يحبسون عن الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته حتى بعض العبارات في الكتب في كلام هؤلاء من أهل العلم أن يعبرون دائمًا بكلمة **«بواحدة»** فإنه يُعذَّب أو يعرض للعذاب.

هذا التفصيل في هذه الكبائر لا أصل له في الكتاب ولا بالسُنة، ولا في كلام السلف الأول، وإن كان ابن القيم على جلالته وفضله، لكن المسألة من المسائل العلمية التي لابد فيها من البيان الواضح.

ابن القيم رحمه الله أضاف هذا المذهب للسلف، وهذا النقل أو إضافته للسلف ليس له فيه سلف، والذي في القرآن على وجهين؛ إما ذكر الموازنة مجملة ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؛ أي العدل، وإما ذكر من ثقلت موازينه ومن خفت، وهذا الذي استدله ابن القيم وقبله ابن حزم.

وهذا إذا تأملتموه في القرآن فهو في الإيمان والكفر وليس فيها أهل الكبائر، انظروه في صورة الأعراف، وانظروه في صورة المؤمنون: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ

وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)﴾ [المؤمنون: ١٠٥-١٠٨].

فإذًا هي صريحة ومِثله بصورة القارعة، فالآيات في ثقل الموازين وخفت الموازين؛

أولًا: دلالتها غير مطابقة لهذا التفصيل الذي ذكره ابن حزم.

ثانيًا: أنها في الإيمان والكفر كما هو صريح في سياقها، ولو قُدر إنها في أهل للكبائر هي ليست مطابقة لهذا التفصيل.

والدليل على أن هذا ليس مذهبًا للسلف؛ لأن ابن القيم رحمه الله توسع بالعبارة وقال: إنه مذهب السلف وخلافه رأي المُرجِئة، والحق أن رأي المُرجِئة باطل لا شك.

ولكن هناك طريقة أخرى ليست هي طريقة المُرجِئة، وهذه الطريقة هي الإيمان بالموازنة كما ذكرها الله في كتابه وكما ذُكرت في السُنة دون الدخول في التفاصيل التي لم تُصرح بها النصوص؛ لأن ذلك نمّة لا يعلمها الناس، وإنما يُقال نؤمن بالموازنة وأن الأعمال توزن وتوضَع الموازين القسط، كما جاء صريحًا في كتاب الله، ويُؤمَن بما ذُكر في سورة الأعراف، وفي سورة القارعة إلى آخره.

أما الدخول في تفصيل أهل الكبائر بهذه الطريقة فبعيد.

ومما يدلك على كونه ليس مذهبًا للسلف بمعنى مذهب، كما تقول في رؤية المؤمنين لربهم مذهب السلف، وفي كذا مذهب السلف، بمعنى أنه خلاص أصبح إجماعًا أو منهجًا أو مذهبًا لا يصح العدول عنه، أن جزءًا من هذا المذهب أن من تساوت حسناته مع سيئاته يحبس عن الجنة.

ما الدليل على أنه يحبس عن الجنة؟ وما يدرينا أن الله يدخله الجنة دون أن يُحبس عن دخولها شيئًا؟

وأما أنهم أهل الأعراف ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)﴾ [الأعراف: ٤٦، ٤٧].

هؤلاء أهل الأعراف أولًا: ليس في كتاب الله بيان لحقيقة من هم أهل الأعراف، إنما هم رجال كما جاء القرآن صريحًا بهم، وأنهم على هذه الحالة التي سماها الله، أما ما سبب أو ما صفة أهل الأعراف بالتي وقعت هذه الحالة لهم بها، هذا لم يُسمى في القرآن، الذي سُمي في القرآن؛ أنهم رجال من المكلفين، أنهم جزء من المكلفين.

لكن لماذا صاروا في هذه الحال؟ ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ لماذا صاروا في هذه الحال التي قدرها الله؟ الله أعلم، ليس في القرآن ذكر لذلك، ولا في السُنة المحفوظة عن رسول الله ذكر لذلك، بل حتى آثار الصحابة المروية عن ابن عباس وابن مسعود وجابر بن عبد الله منقطعة، ذكرها ابن جرير وغيره وفيها انقطاع.

وغاية ما يقال في آراء الصحابة هنا لو ثَبتت عن ثلاثة من الصحابة، عن ابن عباس حُفِظَ عنه خلاف ذلك، لو ثبتت عن صحابيّ أو اثنين فإن هذا لا يتحول إلى كونه مذهبًا للسلف وخلافه قول المُرجِئة.

وابن القيم على جلالته رحمه الله؛ حرصًا منه على نصر السُنة كما هو معروف في منهجه الشريف رحمه الله، لكنه بهذه المسألة لم يكن محررًا لها بالوجه الصحيح.

والصحيح أن كلامه في أصل الموازنة هو كلام السلف، لكن لما دخل في الزيادة زيادة التفاصيل في أهل الكبائر كلامه الأول في إثبات الموازنة وأنها حق وأن النص جاء بها، وأن دليلنا الكتاب والسُنة والإجماع، هذا كله صريح وواضح بالقرآن والسُنة والإجماع إجماع السلف.

لكن لما دخل في أهل الكبائر وفصَّلهم على هذه الأحوال الثلاث هذا في الحقيقة تحسين لأبي محمد بن حزم رحمه الله ذكره في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنِحل"، ونسبه لبن حزم لأهل السُنة، فجاء بن القيم، وهو ينظر في كلام ابن حزم، متأثر بطريقة ابن حزم.

فابن القيم فيما يظهر نقله من ابن حزم وزاد عليه بعض الترتيبات والتحريرات التي تساعده رحمه الله في تحصيلها لكنها لم تقع على نتيجة صحيحة.

ولو كان أهل الأعراف هم من تساوت حسناتهم مع سيئاتهم من أهل الملّة، من تساوت حسناتهم مع سيئاتهم من أهل الملّة لكان السلف مجمعين على تفسير أهل الأعراف، أليس كذلك؟ لصار قضية أهل الأعراف مسألة في تفسيرها في القرآن مسألة واضحة؛ أنهم من تساوت حسناتهم مع إيش؟ لكن أهل الأعراف فيهم عدة مذاهب في تفسير الآية، أوصلها بعضهم إلى ثمانية مذاهب.

وابن جرير رحمه الله تعرفون منهجه؛ أنه إذا حُفِظ عن الصحابة في تفسير شيء وخالفهم من بعدهم يقدم تفسير الصحابة، لما ذكر بن جرير في تفسيره تفسير أهل الأعراف منهم ذكر أثرًا عن ابن عباس وابن مسعود وجابر، وذكر آثارًا أخرى، ثم انتهى بن جرير إلى عدم الترجيح، لم يُصرح بترجيح بالآية، بتفسير آية الأعراف.

ولذلك ابن تيمية رحمه الله كان تعبيره دقيقًا في هذه المسألة، ذكر الإيمان بالموازنة والنصوص الصريحة في ذلك، وأن هذا صريح في القرآن والسُنة والإجماع، ثم لما أشار للمسألة التي أشار لها ابن القيم ذكرها مُقتضبة، قال: وهل ذلك على سبيل الموازنة مع الحكمة أم على سبيل الحكمة فقط؟ قولان للمنتسبين إلى السُنة من أصحابنا أو غيرهم.

فأشار إلى أن هذه الطريقة طريقة لبعض المنتسبين للسُنة من الحنابلة وغيرهم، فهو قول متأخر بهذا التفصيل، وليس بصريح النصوص ما يدل عليه وإنما الذي يكون أن هذه المسألة يوقف فيها على ما جاء به القرآن والسُنة، وأما التفصيل فهذا الله أعلم به.

ثم هو عليه أسئلة أصلًا، هل لابد أن الحسنات والسيئات تتساوى؟ هل لابد أن قومًا من المكلفين يوافون ربهم قد تساوت حسناتهم مع سيئاتهم؟ هذا احتمال ليس ضروريًا، على الموضوع أسئلة من أكثر من جهة.

ولذلك لم يُصرح به المتقدمون بهذه الطريقة، ولكن بعض المفسرين بهذه الطريقة كمذهب للسلف، وأول من نسبه كمذهب لأهل السُنة هو ابن حزم رحمه الله، فتبعه ابن القيم رحمه الله، وزاد في تقريره، والأدلة -كما ذكرت- لا تدل عليه؛ لأن أدلة القرآن أحد دليلين:

إما دليل مجمل مثل: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، أو دليل مفصل، ولكنه ما بين الإيمان والكفر في سورة الأعراف، والمؤمنون، والقارعة.

قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، القسط؛ أي العدل كما ذكر البخاري في تفسيره، وهذا دليل على ثبوت الموازنة، ووزن الأعمال على ماهية الله أعلم بها سبحانه وتعالى.

وجاء قوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾، الموازين القسط فالموازين جمع وجاء وصفها أو صفتها جاءت مفردةً، مع أن الأصل لغةً أن الصفة تتبع الموصوف، فإذا كان الموصوف جمعًا صارت الصفة جمعًا هذا الأصل.

لكن هنا جاءت الصفة مفردة، وجاءت أيضًا مذكرةً ليس مؤنثًا، جاء مفردًا مذكرًا، مع أن الموصوف لم يكن كذلك ما السبب في ذلك؟ ما السبب لغةً في ذلك؟

السبب في ذلك أن الوصف هنا مصدر، والقاعدة في النحو واللغة: أن الوصف إذا كان مصدرًا فإنه يلزم إفراده وتذكيره دائمًا بغض النظر عن الموصوف، العربي إذا وصفك بالمصدر ألزمته صفة الإفراد أو ألزمته حالة الإفراد والتذكير، ولو كان الموصوف خلاف ذلك؛ أي جمعًا أو مؤنثًا إلى آخره.

ولذلك قال ابن مالك رحمه الله في ألفيته:

ونعتوا بمصدر كثيرا ❊ فالتزموا الإفراد والتذكيرا.

ونعتوا؛ أي في اللغة، وقع النعت؛ أي الصفة والوصف بالمصدر، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

«كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ»، هذا من فضل الله على عباده، ومن أعظم نِعم الخالق ربنا جل وعلا على عباده أن شرع لهم هذه العبادات الميسرة، والدين جميعه يسر كما هو مستقر في كتاب الله وسُنة نبيه، ومن يُسره هذا الذِكر المبارك، الذي هو طُهرة للقلب واللسان والجوارح وصدقة.

ولذلك قال النبي: **«يصبح على كل سُلامى من أحدكم صدقة»**، والذكر هو الذي يؤدي هذه الصدقات، فالذكر يؤدي الصدقة عن هذه الأعضاء، وعن هذه الثلاثمائة، إنه خُلق كل إنسان من بني آدم كما في الصحيح على ستين وثلاثمئة مفصل.

فهذه الأعمال الميسرة أو اليُسر، الأعمال اليُسر، هنا تقول: الأعمال اليُسر لماذا؟ لأن اليُسر هنا مصدر مثل الموازين القسط، الأعمال اليُسر هذا التعبير سليم، بل هذا اللازم لغةً، فمنه هذا الذِكر المبارك: **«سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»**.

فالمؤمن يحرص على كثرة الذِكر جعلنا الله وإياكم من الذَّكرين الله كثيرا.

وبالله التوفيق، وبهذا نكون انتهينا من شرح كتاب التوحيد من صحيح الإمام البخاري.